مقالات

السَّحَر

Kitabook

• عنوان الكتاب: مقالات السحر ـ أوان الحجر الصحي ـ
• اسم المؤلف: د. محمد باباعمي
• الطبعة الأولى: 1442هـ - 2020م
• مقاس الكتاب: 140 × 210
• عدد الصفحات: 244
• ردمك: ISBN 978-9931-735-10-4
• الإيداع القانوني: السداسي الثاني، 2020.

جميع الحقوق محفوظة

Copyright © 2020 Kitabook

Kitabook

Kitabook.net

Cité Ghaalloul, Bordj El Bahri, Alger Tél: 023.957.273 E-mail : Info@kitabook.net

د.محمد باباعمي

مقالات

السَّحَر

أوان الحَجْرِ الصّحي

كتابك
Kitabook

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

تقديم أستاذي الدكتور محمد ناصر بوحجام 7

مقدمة 15

ما يشبه الحوصلة: وصايا ملَكية في شأنِ الفيروس التَّاجي 20

الفصل الأول: مقالات السَّحَر

أيا (كورونا) أتحدَّاك... مُهداة إلى عمَّال النظافة الأبطال 32

من حِجْر الأم إلى الحَجْر الصحي (هدية إلى غزة زمن الكُرونا) 35

يا من أسهرته الكُرونا... لا تكن عن ذِكر ربك حَرُونا 39

فرجعناك إلى أمّك كي تقرَّ عينها ولا تحزن (لكل أمٍّ، فرَّق الكُرونا بينها وبين بنيها) .. 46

النعمة والمنعِم (مقال ليس للنشر، فقط للكبار!) 52

«مغلوفَة زوجتي»... (كمال العلم...) 62

إلَّا أموال الناس ... بُني! (...العلَّامة عمر بومعقل الوارجلاني....) 72

ملحمة جزائريٍّ قايضَ جميع مالِه مقابل سماع الأذان (... «صلُّوا في بيوتكم» ...) .. 80

هذا أوان الوصل، لا حظَّ فيه للفصل 92

رسالة سلام وأمان، رسالة استدعاء واستنفار (للمهاجرين الجزائريين...) 97

مناجاة الحَجْر الصحي... وقت السحَر 103

من جدار برلين إلى أذان برلين (تحية إلى مراد هوفمان...) 109

مجاهد وشهيد معتبر، لا مجرد رقم وخبر ﴿... بَل أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ﴾ 117

أبي... (حين تغيب الكلمات... تخلفها الدموع والعَبرات) 127

عرفتَ فالزَم (الصمت أو الكلام... أوان الكُرونا) 138

توبة الفجر الجديد، وأوبة الفرج السديد 145
مَن علَّمني حرفًا صرتُ له سندًا ومددًا! (معلمي القديم...) 151
الجزائر: من لها؟ (...أوان ثورة حقيقة لأجل الجزائر!) 159
وتبقى الصداقة... ويبقى الصديق 165
رجل المرحلة ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ...﴾ 170
مواقف أبكتني (مِسك الختام، هدية للقراء الكرام) 178

الفصل الثاني: البدايات والنهايات

جائحة الفيروس التاجي: البارحة، اليوم، وغدا 186
ترموماتر الطاعة والمعصية 190
المصيبة، وضمير المؤمن الرضي (مهداة إلى كل مصاب بالوباء...) 197
حتى «الموتُ» مصابٌ بوباء التمييز العنصري ضدَّنا؟! 201
«كُرونا» وعصر الكرامات (أو: حين صدَّقت سجاح مسيلمة الكذاب؟) 206
هذا أو ذاك... لعبة القط والفار.. أو محنة المسلم اليومَ 209
دعاءٌ على استحياء، وابتهال لما بعد العيد 214
ساعة الجمعة: الزمن الثقيل... الثقيل 217
الغد المزهر والأمل المبهر ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ 221
موت العالم ثلمة لا يسدها اختلاف الليل والنهار 226
غادرنا عمنا صالح حفَّار، ولكنَّ البرَّ لا يَبلى! 231
والله لولا الله... 240

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم
أستاذي الدكتور محمد ناصر بوحجام

صباح اليوم ـ وكعادتي كلّ يوم أتفقّد ما يحمل إليّ هاتفي الأمينُ الأنيسُ من الجديد فيما ينشر في بعض وسائل التّواصل الاجتماعي. أُتحِفتُ اليوم برسالة من أخ كريم ورجل فاضل، يعرف قدرَه ومكانتَه، ويقدّر فكرَه ونشاطَه العارفون الفضلَ لأهله..، صديقي الدكتور محمد بن موسى بابا عمي ـ حفظه الله ـ يطلب فيها طلبًا مُفاجئًا، رأيت فيه الخطأ في عنوانِ المُرسل إليه، قد يكون ضلَّ طريقه إلى المعنيِّ، قد تكون الوجهة صحيحةً، قَدِمَ إليها بحسن ظنٍّ من الصّديق، الذي استسمن ذا ورمٍ، فقدّم إليه طلبًا، وهو يرجو أن يحقّقه له، ويستعجل الجواب؛ كأنّ الأمر قد حُسم عنده وقضي، فلا مجال لردِّه؛ بصفة المرسل إليه الصّاحبَ الكفءَ، الذي يلبّي الطّلب، وبما يأمله الخلُّ الودود، يحقّقه الرَّجل الرَّشيد.. هنا حضرني بيت المتنبّي:

أنْ تَحسبَ الشّحمَ فيمنْ شحمُه ورمُ
أُعيدُها نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَائِبَةً

مضمون رسالة أخي الدكتور محمد بابا عمّي يقول: «أستاذي الكريم الدّكتور محمد ناصر بوحجام، أغتنم نفحات السَّحَر والفجر من يوم الترويَّة قُبيل عَرفة والعيد، لأبلِّغك التحيَّة الطيِّبة

والسلام العاطر، ثمّ أطلب منك أن ترصِّع كتابي (مقالات السّحر: أوان الحجر الصحِّي)، بتقديمٍ من عندك، يكون شامته وهامته، ويمنحه النفَس الأدبيَّ والفنِّي من نبعك الثرِّ الصفيِّ...ثم إنّي طلبتُ من جابر العزيز ابنكم أن يتابع الطلب[1] وأن يكون الكتابُ جاهزا للطَّبع في أقرب الآجال، بعد تفضُّلكم - غير مأمورين - بالتقديم. دمت للدَّاعي لك بالخير.. تلميذك محمد بابا عمّي».

أين ذلك الشخص الذي لا تُذيبه خجلا تلك الكلمات والعبارات الرَّقيقة؟

أين ذلك الفرد الذي تحجبه الأسباب والأعذار عن تلبية الطَّلب؟

أين ذلك الإنسان الذي لا يدعُّه الرَّجاء إلى تنفيذه دعًّا؟؟

كتبت له على الفور: «وعليكم السَّلام، نهاركم طيِّب وسعيدٌ ومباركٌ. وفَّقكم الله لمزيد من العطاءِ، ونشرِ الوعي، وتثبيت الفهمِ العالي في النُّفوس؛ حتّى تفهم الحياة فهمًا صحيحًا، وتدرك ما لها وما عليها.

أخي الدكتور المحترم لقد بوَّأتني مكانة لستُ أهلا لها، ووضعتني في حرج من أمري: أردُّ طلبك، فهذا عقوق لجهودكم ونشاطكم؛ أُلبِّيه، أكون متطاولا على قامة فكريَّة، بيني وبينها ما بين الثَّرى

(1) الطّلب فيه اشتراكيّة بين الوالد والولد.. سامحك الله أخي الدكتور محمد، هل يعني هذا أنّ أسلوب العاطفة هو سلاحُك، عمدتَ إليه مستغلًّا مبرّتيْ الأبوّة والبنوّة، حرّكتهما في القلب لتحطّا في حقّ الأخوّة، فلن يكون لي بدّ وعذر للامتناع عن تلبية طلبك؟؟!!..

والثريَّا.. سمعًا وطاعة أخي الكريم».

جاء ردُّ الدُّكتور محمد بابا عمّي سريعًا: «أخجلتَني أستاذي .. وكلَّما تفنّنتَ في الوصف الجميل كان ذلك من جمال سريرتك.. بارك الله فيك أستاذي. لا حرمك الله من خير أبدًا. أنتظرها على أحرَّ من جمر...».

هنا يصمتُ بوحجام عن مواصلة الكلام، ويمسك القلم (مفاتيح الجهاز)، فيشرع في تحرير ما يليق بالمقام لمن هو رفيع الهام.

هذا السِّجال الذي دار بيني وبين أخي محمد، قدّمتُه بين يدي ما يوفّقني الله إلى تحبيره، هو رسالة أولى أوحتْ بها الخواطرُ والمشاعر، التي قدَّمها أخي محمد لقرَّائه الكرام.. يقرؤها ويقوِّمها ويستلهمها.. كلُّ فرد بما يهديه إليه فهمُه، ويرشده إدراكُه، ويسعفه وعيُه.. الرسالة الثانيَّة هي ما تهدف إليه «مقالات السَّحر» من نشر الوعي، وتقديم النُّصح، وترشيد المسيرة، والتَّنبيه إلى واجب النَّظر فيما يدور في السَّاحة، وإلى ضرورة التَّأمُّل فيما تفرزه الأحداث والمستجدَّات..

هذه المقالات نقلت بصدق وواقعيَّة وبعمق ما يتمخَّض عن السَّير في هذه الحياة، ممَّا يجب فهمُه ووعيُه والاستفادةُ منه في ترشيد المسيرات، وتصحيح الغلطات، والتَّخطيط بإحكام لما يحقِّق الظَّفَر بالخير العميم في هذه الحياة..

كانت مناسبةُ زيارة جائحة كُرونا لأوساط النَّاس فرصةً لتستفزَّ مشاعر الدكتور محمد، وتستثير عواطفه، وتحرَّ نفسه وعقله

ليبلِّغ ما يريد تبليغه للناس، في منهج وسبيل تتوخَّى نشر العلم الصَّحيح، وبثَّ الوعي السَّليم، وتثبيت الفهم العالي.. وهو ما تتطلَّبه الحياة التي لا تسلم قيادها وأمرها وأَزمَّتَها إلَّا للماهر المتمرِّس الحكيم.. وهو ما يُفاد من الأحداث والواقعات، والوقائع والتّجارب والمعاناة، والاختبارات والابتلاءات..

لذا نجد في هذه الخواطر والمشاعر، التي خرجت من رحِم مظلمٍ يتململ وهو يعيش المخاض، ووُلدت في وقت مظلم وهو السَّحر، وانبعثت من بعض الإرهاصات المظلِمة، ونبعت من ظروف عصيبة مُظلمة.. خرجت من الظَّلام لتبعث الضيَاء في الجسوم، والإشراقة في النُّفوس، والنُّور في العقول، والسِّراج في الدُّروب.. وتضيء البصائر وتجبر الخواطر؛ لتعرفَ وتدرك الخلائقُ معنى أن تعيش الحياة على بيِّنة وبصيرة.. وهو القائل عن تجربته في الكتابة، وعن ولادة هذه الخواطر والمشاعر:

«ثم ألوذ بالنشر ـ في صفحتي الخاصَّة ـ بعدَ أن أقتنع بأنَّ المقصد قد تحقَّق، وغالبًا ما يكون ذلك بُعيد صلاة الفجرِ؛ ذلك أنَّ عددًا من القرَّاء الكرام كانوا يترقَّبون هذه المقالاتِ بشغفٍ، وينتظرونها على أحرَّ من جمرٍ؛ ولطالما عبَّروا صراحة عن ذلك في تعليقاتهم، أو مراسلاتهم الحميميَّة إليَّ؛ ولذا أجد من الجفاء عدم الاستجابة لطلبهم الكريم؛ حتى ولو كان ثقيلا عليَّ أحيانًا؛ فمثلي ومثلهم كمثل خبَّاز القريةِ الوحيد، يبيت الليل يعجن خبزه ويطبخه، يحسّنه ويجيده، ثم يعرضه للناس طريًّا مذهَّبا، مكوَّرًا محمَّرًا؛ فيسعى الناس لشرائه في الساعات الأولى من

اليومِ، وهم لو حُرموا منه يومًا، لسبب أو لآخر، لوجدوا عنتا كثيرا، ولفقدوا خيرا عميمًا...

ربما لا أكون ماهرا مثل ذلك الخباز، وربما لا تكون بضاعتي مما يُحتاج إليه مثل حاجة الناس إلى الخبز؛ لكنَّ تعطُّش الناس إلى المعنى «أوان الحجر الصحّي»، بات عندي واضحًا أكيدًا، وحقيقةً ماثلة للعيان؛ فكثيرٌ منهم خلال هذه التجربة المريرة قد استعاد البوصلةَ، وصوَّب الرتيب من الأوهام، وتعلَّق بالعزيز من القيم النبيلة، التي لطالما غفلَ عنها وضيَّعها في وهدة الحياة الصاخبة؛ وها قد عاد كلُّ شيء إلى نصابه، وأوتي كلُّ شيء من بابه، وتوجَّه الناس إلى الله تعالى من محرابه، واستجمعوا معنى البر من مورده، ودليل الخير من مصدره...».

ألا نقرأ في هذه الفقرة، الواجهة التي قدَّم فيها مضمون المقالات والرَّسائل التي يرمي إيصالَها وتبليغَها للقارئ؟

ألا نتذكَّر ونحن نقرأ هذه الأسطر محتوى المقولة الآتية: «اللَّيالي حُبالى يلدن كلَّ عجيب»؟

عجيب محمد باباعمِّي هو الخير كلُّه، لمن قرأ خواطرَه، واستوعبَها، ووعاها، وعمل بما تدعو إليه.

يدعو الكاتب إلى الاستفادة من الأزمة التي أوجدها فيروس كورونا قائلا:

تجربة «الفيروس التاجي» (الكُورونا، الكوفيد) مهما بلغت من عنتٍ وعناء، ومهما خلَّفت من آلام وأسقام، ومهما حصدت

من أرواح ونفوس؛ فإنها ستمرُّ كما مرَّ شريطُ التاريخ من لدن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى اليومِ؛ ستصير يومًا ما «حديثا وخبرًا»؛ وستبقى في ذاكرة البشرية «عبرةً وأثرًا»؛ والعاقلُ من يحوِّلها فرصةً وهي في ظاهرها تهديدٌ، ومَن يجعلها سببًا للتوبة والأوبة، ومعراجا للحوبة إلى كل ما هو حقٌّ وخيرٌ، وصدقٌ وبرٌّ؛ وينسجُ منها خيوطا لضمان تعلُّقه بـ«حبل الله» المتين؛ فينال من الله الكريم جائزةَ القرب، وهدية الحبّ؛ وعاقبة الرويَّة، وحظوة المعيَّة...

هذه الأسطر حدّدت الهدف من بثِّ ما كان يعتمل في قلبِ الكاتب، ونشرِ ما كان يدور في عقله، وسرد ما مرَّ به هو وغيره من تجارب مع الزَّائر الثَّقيل المزعِج، الذي سيرحل لا محالة بإذن الله تعالى..

في هذه المقالات نقرأ الألَم والأمل، والدَّعوة لحسن العمل، نجد فيها العبر والدُّروس والمواعظَ، والتَّنبيه والتَّحذير، نكتشف الإنصاف والاحترام والتَّقدير والتَّذكير، نلتقي فيها مع اللَّوم والعتابِ، والتَّبصرة لأولي الألباب..

نقرأ في هذه الخواطر الفكرَ والأدب.. فمحمد باباعمي رجل فكر في أصل تكوُّنه ونشاطِه ونتاجه.. لكنَّه أدرك أنَّ الفكر قد يخطئ طريق الوصول إلى مختلف فئات المجتمع، وقد يتعثَّر قبلَ أن يصل إلى عقولِ كثير من النَّاس وقلوبهم، فيضيع الجهد. كما فهم أنَّ البقاء في دائرة الفكرِ وحده، وربط نفسه بعجلتِه، يتحكَّم في سيرورة حياته.. قد يجني عليه وجدانيًّا وفكريًّا.. كما قال الشَّاعر الوجداني أبو القاسم الشّابي:

دُنـيـاك كـون عَـوَاطِـفٍ وشُـعُـورِ
عِـشْ بـالـشـعـورِ ولـلـشـعـور وإنَّـمـا
لَـتَـجِـفُّ لـوْ شـيـدتْ عَـلَـى التَّـفْـكـيـرِ
شِـيـدَتْ عـلـى الـعـطـفِ الـجـمـيـلِ وَإنّـهـا

قال أبو تمَّام أيضًا:

بُـنـاةُ الـعـلاَ مـن أيـنَ تُـؤْتَـى الـمـكـارمُ
ولـولاَ خِـلالٌ سـنّـهـا الـشّـعـرُ مَـا دَرَى

الشّعر أدبٌ، والنثر أدبٌ، على متنه يمكن الركوبُ بالكلمات والعبارات لنقل المشاعر والخواطرِ، والهمسات والومضاتِ، وإرسال الإشارات والإيماءاتِ، وكلِّ ما يجيش في القلب وما يجوس في العقل؛ لهذا العامل أعزو توجُّه الدكتور محمد إلى معين الأدب يستقي منه ويسترفده، ليعينه على تبليغ أفكاره، وتقديم آرائه بوسيلة تضمن له التجاوُب والانجذاب، ورسوخ ما يعرضه في نفوس من يقرؤه..

فنحن نجد بعض كتاباته في السَّنوات الأخيرة مقالاتٍ أدبيَّة وقصصًا وروايـاتٍ.. حتَّى في كتابته العادية كان لا يبتعد عن التَّصوير الفنِّي، والتّعبير الأدبيِّ، أي كان يُضفي على تآليفه المسحة الأدبيَّة.. من أمثلة ذلك أو من نماذجه ما نشر في هذه المقالات والخواطر والأفكار والآراء..

شكرًا للدكتور علوَّ ما قدَّم وما حبَّر وحرَّر، وحظًّا موفورًا وفوائدَ جمَّة نرجوها لمن يقرأ هذه المقالات، ولمن يعيد قراءتها

مرَّة أخرى ومرَّات.

نسأل الله التّوفيق والهداية والسَّداد والرَّشاد؛ إنّه نعم المولى ونعم النّصير وبالإجابة جدير..

الجزائر يوم الأربعاء: 08 من ذي الحجّة 1441هـ

29 من يوليو 2020م

محمد بن قاسم ناصر بوحجام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

مع بداية «الحجر الصحي» في الجزائر بخاصَّة، وفي العالم بعامَّة؛ «أوى» الناس إلى «الكهف» فتغيَّر نمطُ حياتهم رأسا على عقبٍ؛ إذ غُلِّقت المدارس، وصفّدت المتاجر، وفرض على الناس «المكث الطويل في البيوت»، والحال أنهم لم يألفوه، ولم يتعوَّدوا عليه؛ فمنهم من سارع إلى التأقلم، وكيَّف عاداته على وقع الوضع الجديد؛ ومنهم من شقَّ عليهم الأمرُ، فكان في رفضه لمَا حلَّ به عنيد...

ولقد كنتُ أجلسُ «وقت السحَر» كلَّ يومٍ إلى مكتبي، أفكِّر وأعيد في حال الناس، وفيما يختلج في نفوسهم من مشاعرَ، وما يعتلج في صدورهم من عواطفَ، وما يتهجَّم على عقولهم من أفكار وقناعات، وما يصرمُ أفئدتهم من أخبار وإشاعات... فأستعين بالله تعالى، وأضع القلم على القرطاس، بعد أن يستقرَّ الرأي على موضوعٍ، أو تنبيهٍ، أو إشارةٍ، أو عبرةٍ، أو تصحيحٍ لخطأٍ، أو تصويب لخُلقٍ... ثم أكتب ما يشاء الله لي أن أكتبَ، وأحرص في ذلك أن يكون بأسلوب أدبيٍّ خفيفٍ، وجدانيٍّ مباشرٍ، عفويٍّ صريحٍ، لا تكلُّف فيه ولا تمحُّل، ينطلق من يوميات القارئ ليصبُّ في انشغالاته، يعبِّر عمَّا يجدُ في قلبه، وما يفور في عقله...

ثم ألوذ بالنشر ـ في صفحتي الخاصَّة ـ بعدَ أن أقتنع بأنَّ

المقصد قد تحقَّق، وغالبًا ما يكون ذلك بُعيد صلاة الفجرِ؛ ذلك أنَّ عددًا من القرَّاء الكرام كانوا يترقَّبون هذه المقالاتِ بشغفٍ، وينتظرونها على أحرَّ من جمرٍ؛ ولطالما عبَّروا صراحة عن ذلك في تعليقاتهم، أو مراسلاتهم الحميميَّة إليَّ[1]؛ ولذا أجد من الجفاء عدم الاستجابة لطلبهم الكريم؛ حتى ولو كان ثقيلا عليَّ أحيانًا؛ فمثلي ومثلهم كمثل خبَّاز القريةِ الوحيد، يبيت الليل يعجن خبزه ويطبخه، يحسّنه ويجيده، ثم يعرضه للناس طريًّا مذهَّبا، مكوَّرًا محمَّرًا؛ فيسعى الناس لشرائه في الساعات الأولى من اليومِ، وهم لو حُرموا منه يومًا، لسبب أو لآخر، لوجدوا عنتا كثيرا، ولفقدوا خيرا عميمًا...

ربما لا أكون ماهرا مثل ذلك الخباز، وربما لا تكون بضاعتي مما يُحتاج إليه مثل حاجة الناس إلى الخبز؛ لكنَّ تعطُّش الناس

(1) من نماذج مراسلات القراء، وهي كثيرة لا عدَّ لها، أعرضُ للتمثيل لا للحصر، قولَ أحدهم: «جزاكم الله خيرًا، لقد سِرنا معكم طيلة هذه الأيَّام خطوةً بخطوةٍ، ننتظر بشوق ولهفة كلماتك الحرّى؛ تبعثها من قلبٍ مكلوم، وعقل مهمومٍ بقضايا أمّته ودينه ووطنه... وأحسسنا بصدق اللهجة، وأدركنا سلامة الوجهة... ولا زلنا معك نطمح إلى القابلية للرشد الجَمْعي؛ لربط الفكر بالفعل، والعلم بالعمل... معكم متضامنين وفي الله الكريم واثقين...»؛ وقال آخر: «أمسينا نتمنَّى الفجر؛ لننال شيئا من علمك أستاذ؛ شكرا لكل مختاراتك، جزاك الله خيرا، وبارك فيك، وبلَّغنا من خير رمضان، وتقبَّله منا». وآخر قال: «قصصٌ غسلت عيني بالدمع، وأسال الله أن يغسل قلبي ويطهّره». وآخر: «آنستنا يا دكتور، فعهدنا أُنْسَك في السَّحَر، فصعُب فراق هذا الأنس؛ تقبّل الله منا ومنكم صالح الأعمال». أقول في حياء وخجلٍ: كلُّ رسالةٍ أو كلمةٍ طيّبة من قارئ عزيز أستأنس بها، وأجعلها دعاءً، ولا أعتبرها حقيقةً في شخصي المحتاج إلى رحمة الله وكرمِه.

إلى المعنى «أوان الحجر الصحّي»، بات عندي واضحًا أكيدًا، وحقيقةً ماثلة للعيان؛ فكثيرٌ منهم خلال هذه التجربة المريرة قد استعاد البوصلةَ، وصوَّب الرتيب من الأوهام، وتعلَّق بالعزيز من القيم النبيلة، التي لطالما غفلَ عنها وضيَّعها في وهدة الحياة الصاخبة؛ وها قد عاد كلُّ شيء إلى نصابه، وأوتي كلُّ شيء من بابه، وتوجَّه الناس إلى الله تعالى من محرابه، واستجمعوا معنى البر من مورده، ودليل الخير من مصدره...

تجربة «الفيروس التاجي» (الكُرونا، الكوفيد) مهما بلغت من عنتٍ وعناء، ومهما خلَّفت من آلام وأسقام، ومهما حصدت من أرواح ونفوس؛ فإنها ستمرُّ كما مرَّ شريطُ التاريخ من لدن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى اليومِ؛ ستصير يومًا ما «حديثا وخبرًا»؛ وستبقى في ذاكرة البشرية «عبرةً وأثرًا»؛ والعاقلُ من يحوِّلها فرصةً وهي في ظاهرها تهديدٌ، ومَن يجعلها سببًا للتوبة والأوبة، ومعراجا للحوبة إلى كل ما هو حقٌّ وخيرٌ، وصدقٌ وبرٌّ؛ وينسجُ منها خيوطا لضمان تعلُّقه بـ«حبل الله» المتين؛ فينال من الله الكريم جائزةَ القرب، وهدية الحبّ؛ وعاقبة الرويَّة، وحظوة المعيَّة...

لمَّا فرَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من ظلم فرعون وجوره، ولقد تربى من قبلُ في قصره وبين أهله؛ ساقه القدر إلى ماءِ مدينَ يسقي الناسُ منه ويشربون، ووجَد من دون الناس امرأتين تذودان، سألهما سؤالا مباشرا غير ملتوٍ: «**ما خطبكما؟**»، قالتا: «**لا نسقي حتى يصدر الرعاء**»،

وزادتا من «جواب الحكيم» سببَ توليهما الأمر، فقالتا:

«**وأبونا شيخ كبير**»...

لم يتوان نبي الله المفدَّى، ولم يتردَّد في فعل الخير، وفي نفع المحتاج، بخاصَّة وأنهنَّ نساءٌ لا قيِّم عليهما؛ وإنما استعجل وبادر وسارع «**فسقى لهما**».

ثم عاد إلى حاله هو، وغُربته هو، وحاجته إلى مأوًى ضامنٍ، وإلى مكان آمنٍ؛ ولذا «**تولى إلى الظل**»، وتوجَّه إلى الله سبحانه بالدعاء السرمدي الخالد: «**ربِّ، إني لِما أنزلتَ إليَّ من خير فقيرٌ**».

وكانت النتيجة والثمرة والاستجابة ما نعرفُ؛ ويبقى هذا الدعاءُ البديع ملءَ السموات والأرض، يبقى سلاحَ كلّ مؤمن مكروبٍ، وكلِّ مكلومٍ مكدودٍ؛ وهو اليوم سلاحُنا ومصدر قوَّتنا، معراجُنا وأملُنا، يومُنا وغدنا، دنيانا وآخرتنا؛ هو كلُّ شيء في تقديرنا، وغيره لا شيء في ميزاننا...

«**ربِّ، إني لما أنزلتَ إليَّ من خير فقيرٌ**».

سؤال بالحال، وسؤال بالمقال؛ والله سبحانه يحبُّ أن يسأله عبده ويلحَّ في السؤال؛ قال ﷺ فيما روى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**من لم يسأل الله يغضَبْ عليه**»(رواه الترمذي)؛ وإذا تم السؤالُ من العبد فقد تحقق الجواب من الربّ، ما لم يُحدِث في دينه مانعًا ومحبِطًا؛ ففي سنن أبي داود أنه ﷺ قال: «**إنَّ ربَّكم تبارك وتعالى حييٌّ كريمٌ، يستحيي من عبدِه إذا رفع يديه إليه أن يردَّهما صِفرًا**» وفي رواية الترمذي: «**صفرا خائبتين**».

ربّ، في حمأة هذه المحنة التي اعتصرتنا وزلزلتنا؛ ومع نقص

الأنفس والأموال والثمرات؛ وعند فتك الوباء بنا وبالناس؛ وجورِ الكفار والمشركين على المستضعفين من المؤمنين؛ لا نملك إلاك، ولا ندعو سواك؛ نقول ونعيد:

«ربِّ، إني لِما أنزلت إليَّ من خير فقيرٌ»... فقيرٌ... فقيرٌ.

محمد باباعمي، باسة وافضل، بني يسجن

فجرَ يوم التروية

الثامن من ذي الحجة 1441هـ/ 29 جويلية 2020م

ما يشبه الحوصلة...

وصايا ملَكية في شأنِ الفيروس التَّاجي[1]

الوهم نصفُ الداء، والاطمئنانُ نصف الدواء،
والصبرُ بداية الشفاء (ابن سينا)

هذا الذي أكتبُ اليومَ، بعد غيابٍ طويلٍ عن الكتابةِ، ليس مقالًا فكريًّا، بل هو عُصارة تجربةٍ تشرَّبتُها مريرةً؛ ولم أقدِر أن أكتب حرفًا واحدًا وأنا طريحَ الفراشِ لأيَّام ثقيلةٍ، فقدتُ فيها كلَّ قدرةٍ على التفكير، وكلَّ طاقة على التعبير؛ لَكأني ولدتُ للتوِّ، أو نزلت من كوكبٍ آخرَ، أو عدتُ من البرزخ هنالكِ لأجدَ الأمرَ مختلفًا هنا...

مصادرُ هذا المكتوب متنوِّعة وموثَّقة، منها:

تجرِبتي الشخصية على خفَّتها،

وهواتف مباشرة لأصدقاء أطبَّاء من الجزائر ومن خارجها،

أطباء في الميدان هنا بالبلد، وهم الرجال الأبطال...

مداخلات موثوقة في الأنترنت لمن أجد منه الانضباط العلميَّ،

مقالات دقيقة وعميقة منشورة هنا وهنالك،

تجربة أصدقاء وأقرباء كُثرٌ، تحاورتُ معهم، وهم قد عايشوا

(1) الاثنين 2 ذو الحجة 1441هـ / 21 جويلية 2020م، باسة وافضل، بني يسجن.

الوباء وخبَروه...

1. نقطة الانعطاف: لا خوف...

حين عمَّت الحمَّى أهلَ الدار كلَّهم تقريبًا، وبدا أنَّ الذي ألمَّ بنا ليس «أنفلونزا موسمية» كمَا ألِفنا؛ لذتُ بالهاتف أسأل الطبيب عيسى حميد أوجانة ـ حفظه الله تعالى ـ؛ ولقد أجابني بصراحةٍ ووضوحٍ:

«لا خوف... عليك بالراحةِ، موجةٌ ستمرُّ، عليك بالمقوّمات والفيتامينات، لا تشغل بالَك، الشفاءُ بيد الله... لا خوفٌ».

ثم اتصل بي صديقي الدكتور أحمد تاج الدين عبد الحفيظ من مصر، وحمَّلني رسائل صوتيةً تطمينيةً، شرحَت رُوحي وقلبي لخوضِ التجربة بأمل زاهرٍ، وتفاؤلٍ ظاهر...

وكان الطبيبُ الهمام، صاحبُ القلب الفسيح، والنظر الوضيح، الدكتور دبوز ياسين، المجاهدُ في الميدان، نعمَ اليد ونعمَ النصيح؛ ففي لقاءٍ قصيرٍ معه جعلني أؤمن بأني على أتم الشّفاء، وأن لا خوف عليَّ ولا حُزن...

كانت لحظةُ نزع الخوف هي البلسمُ الشافي، وهي السرُّ للتعافي... ومن ثم تكون أوَّل وصية ملَكية حول الفيروس:

«لا خوف... لا خوف... لا خوف».

2. تقبَّل حالَك ولا تستهتر، فتؤذي الناس!

أخطَر صورةٍ لمن يُبتلى ببعض أعراض «الكوفيد 19» هو «أن لا يتقبَّل حالَه»، وأن يرفُض الامتثال لقواعد الوقاية: مِن لبس الكمَّامات، والتعقيم الدائم، والحَجر الصحي الصارم، وعدم تخليط أواني الشرب، والمسافة اللازمة مع الناس...

ثم تجد هذا المريضَ ينقُل الفيروسات من مكانٍ إلى آخر، من شخصٍ إلى آخر، أو حتى من بلدٍ إلى آخر... فيؤذي الناسَ ـ بخاصَّة كبار السن منهم ـ من حيث يدري، أو لا يدري...

ولعلَّ اعتقاد أنَّ الإصابة هي نوعٌ من «العارِ» يجب أن يُصحَّح، وطريقةَ الكلام عنه بين الناس يجب أن تعدَّل؛ لأنَّ هذا هو سببُ «الرفض»؛ ولو علمَ المريض أنما هو «وباءٌ» يُصيب كلَّ إنسانٍ، ولا شيءَ من «العيب» فيه، لصبر صبرا جميلًا، ولما ارتكب خطأً جَسيمًا، قد يودي بحياة الناس لا قدَّر الله...

3. الموت لا علاقة له بالكوفيد: بالنخلة مات شهيدًا...

كان المعتقَد الجازم في بدايات الوباء أنَّ «من يُصاب بالوباء يكون مآله الموتُ لا محالةَ»؛ وكانت مناظرُ التلفزيون الصادمة، وقوائمُ أعداد الموتى المعروضة يوميًّا عبرَ العالَم، ومَن يُتوفَّى من أعزَّاء علينا... كلُّ ذلك زرع هذه الصورةَ القاتمةَ؛ إلَّا أنَّ المحقَّق عند العلماء أنَّ النسبة الكُبرى ممن يصاب بالوباء يَتعافى بعدَ

أمدٍ، لعلَّ النسبة حسب الدكتور عيادة عبد الحفيظ هي أنَّ أقلَّ من واحدٍ في المائة بكثيرٍ يُكتب لهم الوفاةُ، والباقي بحول الله تعالى يُشفى؛ ومثل هذه المعلومة تريح النفس، وتفسح المجال للتعافي.

ولي قصَّة على ذلك:

في بلدتنا بني يسجن رجلٌ طيّبٌ، كان صارمًا جدًّا في شأنِ الوباءِ، يتَّخذ جميع التدابير، فلم يُصب بأذىً؛ ويومَ الجمعة الماضي، شاءَ الله أن يذهب إلى البستان مع عائلته. ووقتَ المغربِ، توضَّأ وقام للصلاةِ، فإذا ريحٌ عاتيةٌ تهبُّ فتقتلعُ الأشجارَ والنخيلَ، وتُفزِع الكلَّ؛ فوقعتْ نخلةٌ عليه وعلى ابنتِه؛ وكان ذلك سببا لحتفه: ماتَ شهيدا، وهو قائمٌ للصلاة، ولم يمت بالوباء...

أمَّا البنتُ العزيزة فهي على طاولة العمليات الجراحية حاليًّا، نسأل الله لها الشفاء العاجلَ...

وكثيرون هم على هذه الشاكلة...

بل إنَّ الكثير ممن كُتب له الوفاة مِن أهلينا وممن نعرفُ، إنَّما لكبرٍ في السنّ، أو لمرضٍ آخرَ غير الوباء؛ وفيهم من مات بالوباءِ...

وعلى العموم اختلط الحابل بالنابل، فلا تحقيقَ بل تصديق...

4. الأعداد والأرقام والنسب: لا شيء على الحقيقة...

حين نقرأ أرقام المصابين بالوباء في الجزائر، ونخصُّ بالذكر العاصمة (مقرُّ خلية التنسيق والتوجيه، بالعالية)[1]، وغرداية التي أقيمُ فيها هذه الأيام؛ أنا على يقينٍ أنَّ الأرقام المعلَنة رسميًّا لا تدلُّ على شيءٍ؛ وأنَّ ما نسبته خمسُون في المائة من الناس على الأقلّ (50%) قد زاره الوباءُ ضيفًا: خفيفًا على بعضٍ، ثقيلًا على بعضٍ؛ خلَّف شهيدًا عند عائلاتٍ، ولم يخلّف أيَّ أثر عند عائلاتٍ أخرى...

مِن عجبٍ أني أحسستُ بالصمتِ ممن حولي، فقمتُ بمهاتفة ومراسلة العشراتِ ممن أعرفُ؛ فإذا بهم جميعًا تقريبًا، يقولون: «نحن مع الحمَّى، ومع التعب، والتعرُّق، ومع عُسر في التنفس... بعضُنا، أو كلنا... ولقد بدأنا نتعافى ولله الحمد...»[2].

(1) تأسست «خلية التنسيق والتوجيه» بمركب الشيخ اطفيش، العالية، الجزائر العاصمة؛ بمبادرة من المؤسَّسات والهيئات العرفية الفاعلة، وباستجابة عفوية غير مشروطة من كلّ شرائح المجتمع في العاصمة وما حولها؛ ذلك أنَّ كلَّ خلية حية في البلد، وفي العالم أجمع؛ كان لزاما عليها أن تفرغ الوسع، في الوقاية من تفشي وباء كورونا (covid19). ويسند هذه الخطوات أربع لجان: لجنة الصحة، لجنة الإعلام، لجنة الخدمات الصحية، لجنة التوجيه. ولقد سخرت «خلية التنسيق والتوجيه» خطا هاتفيا مفتوحا، وأحدثت صفحة للتواصل الاجتماعي، وأنشأت العديد من المجموعات عبر مختلف التطبيقات الإعلامية (واتساب، فايبر...).

(2) وبعد نشر هذا المقال اتصل بي العشراتُ من الأحبَّة، وذكروا لي أنهم عاشوا ذات التجرِبة التي عشتُها؛ ومنهم ولله الحمد الكثيرُ ممن استأنس بما كُتب، ونضى ثوب الخوف عنه، فتعلَّق بالشافي والكافي والمعافي سبحانه؛ فكان ذلك من أسباب شفائه وبُرئه.

ومن ثم، بدا أنَّ الوباء قد خفَّ، وأنَّ فكرة «النسب المئوية: 10، 15، 25، 50...%» (بأنواع التشخيص: السكانير أو الدم...) تدفعُ إلى القول إنَّ الوباء سيعمُّ تقريبا كلَّ الناس، وأنه سيتحوَّل إلى ما يُشبه «الحمَّى الموسمية»[1]؛ بخاصَّة أنَّ من أصيبَ، له بعضُ المناعةِ (وليس مناعةً مطلقةً) تجعلُه في منأى عن الوباء، وتجعلُه كذلك لا يُصيب الآخرين ولا يصاب بهم، حسب تقريرِ بعض الخبراء...

ولكن، لا ينبغي أن يكون ذلك حجة للاستهتار والتسيب...

۞ ۞ ۞

5. حذار من الوسواس، هو الموت قبل الموت:

بعضُ الناس، بخاصَّة الجيلُ الشاب منهم، لِكثرة سماعِه لكل ناعقٍ، ولكثرة تعلُّقه بوسائل التواصلِ، وبتتبعه للأخبار السيئة بلا رقيبٍ، ومشاهدته للصور المرعِبة بلا ضابطٍ... تراه قد «أصيبَ بالوسواس»؛ وصار يرَى في كلّ ما حوله الوباءَ؛ ثم تغلَّبت عليه «الكوابيس الشديدةُ»، فتراه يهرف ويقول كلاما لا أصل له ولا فصلَ؛ ثم يربط بين أمورٍ لا رابط بينها... فهو بذلك قد مات

(1) تسمَّى هذه النظرية علميًّا بـ: «**مناعة القطيع**». وتقوم استراتيجية «مناعة القطيع» على فكرة أنه عند إصابة أكبر عدد من الناس بمرض معين مثل كُرونا، فإنَّ معظمهم سيتماثلون للشفاء ـ رغم الوفيات الكبيرة المحتملة ـ ومن ثم ستكون لديهم مناعةٌ ضدَّ الفيروس، وهو الأمر الذي سيساعد على تحجيم المرض في النهاية. ومن الدول التي طبقت هذه الاستراتيجية السويد.

قبلَ الموت؛ وهو لأجل ذلك يزرع بين أهله الخبالَ والبلبالَ؛ ويكونُ سببا من أسباب شقائهم وعذابهم...

والحال أنَّ نسبة الشباب ممن يلقاه الموتُ بالوباء منخفضةٌ جدًّا، ولكن قد يسبب هذا الوسواس النحيس ـ لا قدَّر الله ـ مَا لا تُحمد عُقباهُ... ثم هو يُنقص من عمرِ الشاب فيرى النهاية قبل أوانها، وذلك أيم الله دليل اهتزازٍ في الإيمان، وعنوان ضعفٍ في اليقين...

وبالعكس، كثيرٌ من كبارِ السنّ، تجده موقِنا، صبُورا، مطمئنًّا، يُضيف إلى أيامه أيامًا جميلةً، حُلوةً؛ يزرع الأمل، ويزيل الألم... حتى إنه من بيننا مَن عُمرُه يتجاوز المائة أو يقرُب، وهو حين تراه تولُد من رحمِ الحياة: تَرى ملَكا من الملائكة، كاملَ الثقة في الله تعالى، لا شيءَ عنده من خوفٍ، لا من المرض ولا من الموت... إلَّا من الله الواحد القهَّار، اللطيف الستَّار...

فشتَّان إذن...

۞ ۞ ۞

6. الفقر قتَّال، والوباءُ قاتل...

أوان الوباء قد نغفل عن ناسٍ كثيرين، ممن توقَّف مددُهم من المال، إمَّا لموت العائل وغيابه عن الدار، أو لتوقُّفٍ عن العمل وتعطُّل في الوظيف، أو لديونٍ مثقِلة مذلَّة، أو لكراء بيتٍ شديدِ المحال، فذاك والله الداءُ العضال...

كثيرٌ من الناس يُعاني الأمرَّين لتوفير لُقمة العيش اليوميَّة؛ وبذلك يكون الفقرُ بالنسبة له قتَّالا، أمَّا الوباء فمجرَّد احتمال للقتل...ولقد عرفتُ عائلات قلَّصت طعامَها في اليوم إلى وجبةٍ واحدة، ولا مال لها لتوفِّر وجبة ثانية وثالثة... وهي مع ذلك حامدة لله تعالى شاكرة...

ولذا، مِن أعظم أسباب الفرج والانفراج أن نتفقَّد هؤلاءِ، وأن لا نغفَل عنهم، وأن نفكّر فيهم ليلًا ونهارًا، ونقتسم معهم قليلَنا وكثيرَنا؛ وهم بالنسبة لعامَّة الناس «بابُ الفرج»... فإنَّ الصدقة كما ورد في أحاديث كثيرة: «تصون العبد وتحفظه، وتقي الإنسان من مصارع السوءِ، وتدفع البلاءَ، وتطفئ غضب الله تعالى على العبدِ، وتملأ القلب انشراحًا...».

۞ ۞ ۞

7. دعائي الذي لا يغادِر: ربّ إنا عبيدك...

ليس أروعَ معنًى، ولا أحسنَ أجرًا، أوانَ الوباء، من التقرُّب إلى الله سبحانه[1]، بالإقلاعِ عن المعاصي، وكثرة الذّكر، وإيتاء الصدقات، وفعل الخيرات، والإكثار من الصَّلاةِ بخشوع (أطيلوا السجود فهو شفاءٌ من الأسقام)...

(1) أنصح بتغيير عاداتنا في الدعاء، فليكن ابتهالا وتذلّلا لله في كلّ وقت، ولتكن لنا حصصٌ للتلاوة الخاشعة، والدعاء الخاضع، فرديا وعائليا، في كل يوم؛ ولْنُكثر من تلاوة «الفاتحة» ثم «ألم نشرح» ثم نثفل على يدينا ونمسح بهما صدورنا وجوارحنا في كل حين..

وبالإحساس العميق بالحاجة إليه سبحانه وتعالى؛ ولقد فهمتُ على التحقيق قوله تعالى في سورة الانفطار: «**يوم لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئا، والامرُ يومئذ لله**».

قال لي فلانٌ: هل تحتاج إليَّ؟

قلتُ: لا حاجة إلَّا إلى الله وحده...

قال: هل ثمة من يُشفيك؟

قلت: الله وحدَه هو الشافي، وهو الكافي، وهو المعافي، وهو الوافي...

قال: إذن، «**لا تملك نفس لنفسٍ شيئا**»

قلت: نعم، «والأمر كلُّه لله»، الحكم له وحده سبحانه...

وإلَّا فما الذي يفسِّر أن يُشفى فلانٌ، وأن يهلك فلان؟ وأن تثقُل على علان، وتخفَّ على خلان؟ لولا أنَّ الأمر كلَّه بيد الله؛ ولا فرقَ في ذلك بين عالم وغيره، غنيٍّ وغيره، طبيب ومطبوب، امرأة ورجل... الجميع أمامَ الوباء على خطٍّ واحدٍ، ولذا كان دعائي المفضَّل هذه الأيام:

«**ربّ إنا عبيدك، بنو عبيدك، بنو إمائك، نواصينا بيدك، ماضٍ فينا حُكمك، عدلٌ فينا قضاؤك، افعل بنا من الخير ما أنت أهلُه، ولا تفعل بنا من الشر ما نحن أهله... ربّ نجّنا من فتكِ الوباء، كما نجّيت عبدك يونس من بطن الحوت إذ دعاك: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين**».

ربّ قلتَ وقولك الحقُّ: «**فلولا أنه كان من المسبّحين، للبث**

في بطنه إلى يوم يبعثون»...

وها نحن نسبّحك، ونذكرك، ونحمدك، ونشكرك...

فنجّنا يا حليم... يا حليم... يا حليم....

ويا ربّ لا تحوِجنا إلى أنفسنا، ولا إلى أحدٍ من خلقك طرفةَ عينٍ، ولا تفتنّا بأن تجعل أمرَ حياتنا ومماتنا بيد الكفار والمشركين والمنافقين، فيُفتن عبادُك؛ واجعل مصيرنا كلَّه بيدك، وعجّل لنا بالفرج..

«إلهي أذهب البأس ربّ النّاس، اشفنا وأنت الشّافي، لا شفاء إلَّا شفاؤك، شفاءً لا يغادِر سقمًا، أذهِب البأس ربَّ النَّاس، بيدك الشّفاء، لا كاشف له إلَّا أنت يا رب العالمين... اللهم إنّي أسألك من عظيم لطفك وكرمك وسترك الجميلِ، أن تشفينا وتمدّنا بالصحّة والعافيةِ، وأن ترحم المتوفّين من أعزتنا وأحبَّتنا، وتكتبهم في عليين عندك...

لا ملجأ ولا منجا منك إلّا إليك، إنّك على كلّ شيءٍ قدير

«... الفاتحة...

«ألم نشرح لك صدرك... فإنَّ مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا... فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب...».

ثم نمسح صدورنا مرَّات ومرَّات[1]...

(1) ثمّة نصائح مَلَكية أخرى، لعلَّ مقالات لاحقة بحول الله تعالى تسعفني، أو يتولى غيري أمرها... ولقد توقفتُ ولم أنشرها كاملة: مراعاة للاختصار، وطلبا لنفع الناس، والأجرِ عند رب الناس...

مقالات السَّحَر

الفصل الأول

أيا (كرونا) أتحدّاك...

أيا (كُرونا) أتحدَّاك...

(مُهداة إلى عمَّال النظافة الأبطال)[1]

كتبتُ هذه الكلمات في جوف الليل، وقد كنتُ أغطُّ ـ مثل غيري مِن بني البشر ـ في نومٍ عميقٍ؛ ثم أيقظني صوتُ محرّكٍ لشاحنةٍ في الشارع، كانت تُغازل الزمان مِن عمارةٍ إلى عمارةٍ، وتغزِل المكان من زُقاقٍ لزقاقٍ؛ ومِن حولها رجالٌ وأيُّ رجال... رجالٌ من طينة الملائكة ربَّما، أو لعلَّ الملائكة ساعةَ السحَر هذه، ترافِقهم لتُبارك خطواتكم، وتقف إلى جوارهم؛ ثمَّ لتُمدَّهم بأنفاس من الجنَّة خفيفةٍ...

الكلُّ في بلدي بين خوفٍ ورجاءٍ، بين ألمٍ وأملٍ، بين حقيقةٍ ووهمٍ؛ يتقدَّم تارةً ويتأخَّر تارةً، يقدّم رِجلًا ويؤخّر أخرى؛ إلَّا هؤلاء الأبطالُ الكرامُ، فِداهم أمّي وأبي... كلُّهم ثقةٌ لا يتردَّدون، دَومًا يتقدَّمون ولا يتأخَّرون، أبدًا يقدّمون ولا يؤخّرون...

هم لم يعتادوا على كثرة الحسابات، ولا على عدِّ المصالح، شأن خِفاف العقول من الناس...

وهم لم يخرجوا في هذا الوقت العصيب ابتغاءَ مكاسبَ، أو

(1) برج البحري، الجزائر العاصمة، سَحَر يوم الاثنين 28 رجب 1441هـ / 23 مارس 2020م.

تصيُّدا لمناصب... إنَّما ملئوا الشوارع، ببدلاتهم الخضراءَ، على وجوههم الرضية كمَّامات زرقاءُ، وعلى أيديهم السخية قفَّازات شهباء؛ وفي أرجلهم «صبابيط[1] جلدية خشنة صفراء...»

من مزبلةٍ إلى مزبلةٍ،

من قمامةٍ إلى قمامةٍ،

من ركنٍ شارع إلى ركنٍ شارع،

من حديقةٍ إلى حديقةٍ...

يحملون بيدٍ كيسًا أسودَ متقطّع، وبأخرى قارورة مشروبٍ مرميَّة في غير مَرماها، أو علبة دخان هشَّمتها الأرجل...

ولا يعنيهم أن تكون أيها الشيطان المارد (كُرونا) هنا أو لا تكون؛

فإنك إن تكن قد زرعت الرعب في أفئدة العالَمين، حتى دخل رؤساءُ دولٍ حَجرهم الصحي، واختفى جنرالات وأربابُ أموال في بيوتهم خوفا منك وذعرا...

غير أنك (يا كُرونا) لن تخيف هؤلاء الحواريين الربَّانيين؛

ولن تُرهبَ إخوةً لهم ما بين ممرات المستشفيات يسَّارعون، أطباءُ وممرّضون؛

ولن تُفزع إخوة لهم آخَرين في الطرقات، وفي مخارج المدن

(1) صبَّاط أو سباط بالتشديد هو الحذاء، في الدارجة بالمغرب العربي، مأخوذٌ من الإسبانية **zapato**.

والقرى، وعلى الحدود، وفي كلِّ مكان يزرعون النظام، وينظّمون فوضى الناس، شُرطةً، أو دركًا، أو جيشًا...

ثم إنك (يا كُرونا) لن تهزمَ كلَّ «فاعلِ خيرٍ» بلا مقابلٍ، يبغي به وجه الله الكريمِ ولا يبالي؛ وهو يطوي الساعات الصعبة بعقلٍ عاقلٍ، ويكسر الأوقات الوعرة بقلبٍ وجلٍ مُخبتٍ... ومن هؤلاء علماءُ ومعلّمون، أيمة وإعلاميون، تجار وصناعيون...

أيا (كُرونا)، أتحداك بقلوب هؤلاء وهي تنبض بالحياة،

أيا (كُرونا)، أجعلُ بيني وبينك حاجزا من إيمان يهشّمك قريبًا، فيحطّم غرورك، ويُبعدك عنا إلى الأبد...

أيا (كُرونا)، أنهي قصَّتك بدعاء هؤلاء لله الواحد القهار؛ معزَّزا بدعاء «شيوخ ركَّع، وصبية رضَّع، وبهائم رتَّع...».

قريبا بحول الله تعالى تعود الأسودُ إلى عَرينها، مُعلنة نهاية الاختبار...

قريبًا يلتقي الأحبُّة على صعيدٍ واحدٍ، ولقد بعُدت بينهم الشقَّة، وطال الشوق، وامتدَّ الحنينُ فيما بينهم؛ حتى صار الهاتف بديلًا عن الجوار، وأمسى التذكار بديلًا عن اللقيا في الديار...

قريبًا... قريبًا... قريبًا...

«ويومئذ يفرح المومنون بنصر الله...»

«ألا إنَّ نصر الله قريب»..

من حِجْر الأم إلى الحَجْر الصحي

من حِجْر الأم إلى الحَجْر الصحي

(مُهداة إلى غزة زمن الكُرونا)[1]

في جوف الليل ـ مرَّة أخرى ـ أيقظَني بكاءُ طفلٍ اخترق الآفاقَ، فقطَّع حجُب الزمانِ والمكانِ؛ ولقد ظننتُه صوتا لرضيعِ جارتِنا السفليَّة؛ غير أنه بدا بَعد التحقُّق صوتًا على غير العادةِ: ملائكيَّ النغمات، سماويَّ النبرات، ربانيَّ النفحات...

أصختُ أذني اليسرى، وأنا نائم على جنبي الأيمن...

ثم استويتُ قاعدا، فألقيت أذني اليمنى...

فإذا هو صوتٌ جاءَ من بعيدٍ... مِن آلاف الأميالِ هنالِك...

صوتٌ لطفلٍ جميلٍ موسَّدٍ حِجْر أمّه، وهي تهدهدُه بصبرٍ وأناةٍ، وترافقه بنشيدٍ حزينٍ؛ لكنه أبيٌّ، تُردِّدُ فيه قصيدتها الأبدية:

نم يا بني... فإنَّ عُلبة الحليب قد نفذت قبلَ أيام، وعلبةَ الدواء لم نرها حتى في الأحلام، وحدودَ بلادك قد غلّقت قبل أعوام، والعالَمون (والعالِمون) يحاصروننا هنا مثل الهوام...

نم يا بني... وأرسِل شكواك إلى ربّ السماء، فإنَّ «ربَّ الأرض»

(1) برج البحري، سَحَر يوم الثلاثاء 29 رجب 1441هـ / 24 مارس 2020م. نشر المقال في عدد من الجرائد والمجلات، منها: «رأي اليوم»، وصحف فلسطينية وعربية.

أصمُّ أبكمُ، جائرٌ فاجرٌ؛ ليس من عادته أن يستمع للضعفاء، هو فقط رهنُ إشارة الأقوياء...

نم يا بني... ولقد جفانا أهلُ الدارِ... وخاننا القريب والبعيد، بل وحتى الجار... ولم يُلقِ «بنو البشر» بالًا لصُراخك السرمديَّ: البدار، البدار...

نم يا بني...

فجأةً وبدون سابق إنذارٍ، تغيَّر العالَم وتبدَّل، فصارَ مَن في الأعلى هنالك في الأسفل؛

وصار المحاصِر ـ بقدرة العليم القدير ـ محاصَرا...

وصار المخوِّف ـ بجبروت الواحد القهَّار ـ خائفًا...

صار الكبار صغارًا، والصغارُ كبارًا...

صار الجائع شبعانًا، والشبعانُ جائعا...

فجأةً، أرسل اللهُ ذو الجلال والإكرام عسكريًّا في رتبة «جنديٍّ» صغيرٍ صغيرٍ...

جنديًّا لا تراه العيون، ولا تشمُّ ريحه الألسنُ؛ ولا تسمع خَطوه الآذان، ولا يدخل البيوت بالاستئذان...

فجأةً، تحوَّلت غزَّة التي كانت لزمنٍ طويلٍ تحت الحصارِ... صارت آمَن أرض الله تحت سماء الله...

وصارت تلُّ أبيب وواشنطن، وباريسُ ولندن، وموسكو وبيكين... بل والدوحة وعمَّان، والرياض والقاهرة، والجزائر والدار البيضاء... صارت جميعُها عُرضة لقصفٍ جوّيٍّ أرضيٍّ بحريٍّ؛ فاختفَى أهلُها في ديارهم، وآوى ملُوكها ورؤساؤها إلى قصورهم، وفُرِض الحَجْر الصحيُّ على الملايين من ساكنيها، فزُرِع الخوف في أفئدتهم كاشفًا أبلغ معاني الجبنِ والهوان...

فجأةً، ولقد سمع الله صوتَ ذلك الرضيع، وهو في حِجر أمّه، ففرَض على الناس حِصارا بنفس الحروف، فسُمِّي «حَجْرا»...

«من حِجر الأم إلى الحَجر الصحي»: هي قصَّة هذا الزمن الصعب، زمن الكُرونا...

فهل نحن واعون، وهل نحن تائبون نادمون؟

أم أنَّ طغياننا لا يزال قائمًا، وكبرياءنا لا يزال قيِّمًا... وحينها لن يكسِر غرور البشرية إلَّا مَقدمُ عسكريّ أعلى رتبةً يُرسله ربُّ السماء، ويومها لا ضمان ولا أمان، ولا مهرب ولا مفرَّ...

كلُّ أملي أن نستفيق وأن نُفيق...

أن نتذكَّر وأن نتذاكر...

أن نعتبر وأن نعبّر...

أن نراجع أنفسنا ونرجع إلى ربنا...

وحينها فقط، سيستدعي القادرُ الجبَّار جنديه، ويخْلي منه أحياءَنا؛ فنغادرَ منازلنا؛ ونعود إلى التجوال والتزوار، والتجمُّع

والتبضُّع، والتحلُّق والتسوُّق، بل وإلى الصلاة جماعة في مساجدنا، والسفر بأمان بين مدننا... والحجِّ في اطمئنان إلى بيت ربنا...

مرَّة أخرى، ينبعث أنينٌ وبكاءٌ، من صبيّ في حِجر أمّه وهي تهدهده... ثم يقول ووالله إني لأسمعه:

«اللهمَّ اهد قومي فإنهم لا يعلمون،

اللهمَّ ارحم البشرية فإنها لا تُطيق ما أطيق، ولا تصبر على ما أصبر عليه...

اللهم إني قد سامحتُ البعيدَ والقريب، وعفوتُ عن الصديق والغريب...

فارفع عنهم الكُرونا يا رب العالمين... آمين آمين آمين».

يا من أسهرته الكُرونا...

يا من أسهرته الكُرونا... لا تكن عن ذِكر ربك حَرُونا[1]

قبل أعوام كتبتُ مقالًا بعنوان «يا ساهر الليل... قم الليل»، وكان الواحدُ منَّا يومها «في رخاءٍ ظاهرٍ»، و«في مأمنٍ مُفاخِر»؛ يتراوح بين طاعةٍ ومعصيةٍ، بين ذكرٍ وغفلةٍ؛ ثم يغرُّه بربه الكريم فيضُ النعم وهو يتمرَّغ فيها؛ فينسى أنَّه سبحانه يراهُ ويستُره، وأنَّ على رأسه ملائكة «**حافظين... كِراما كاتبين**» يعلمون ما يفعلُ، فيكتبون...

ثم تطوي الليالي الليالِيَ، وتلهتم الأيامُ الأيامَ؛ فلا يرجع إلى ربه إلَّا حين الشدَّة، وحين يمسُّه الضرُّ إليه فيَجأر؛ ثم إذا كُشف الضرُّ عنه «**مرَّ كأن لم يدعُنا إلى ضرٍّ مسَّه**»...

مرَّ مرور اللئام، واختلط في حلّه وترحاله بالهوام...

ومع ذلك، ورغم ذلك، وبعد كلّ ذلك...

يجد ربًّا لطيفًا رحيمًا، كريمًا حليمًا...

يأويه ويحميه، يُطعمه ويَسقيه، يمرضه ثم يَشفيه...

ويهمس إليه جَلَّجَلَالُهُ في هدأةِ الليل، فيقول:

(1) جوف الليل والسكون أنيس الحائرين، ليلة 1 شعبان 1441هـ / 25 مارس 2020م. برج البحري، الجزائر العاصمة.

«عبدي، عُد إليَّ تجدني إلى جوارك، تُب إليَّ ترني في عجَلتك وبِدارك...

عبدي، لقد عفوتُ عمَّن كان أبلغ منك فجورا، وسامحتُ من كان أشدَّ منك جورا...

عبدي، وعفوي عنك أحبُّ إليَّ، وأقربُ إلى رحمتي... فكيف أسخط عليك؟!...

عبدي، هلَّا استغفرتَ وأقلعتَ،

وهلَّا جأرتَ وبكيت،

وهلَّا سجدتَ وركعت،

وهلَّا ذكرتني في جوف الليل فأذكركَ يومَ أذيق الغافلين شرَّ الويل...

عبدي... عبدي... عبدي...».

۞ ۞ ۞

اليومَ أعيد نشرَ تلك الكلماتِ، ولكنَّها والله تكتسي حُلَّة جديدةً، إذ القلَّة منَّا... وهو مرغَما يُقيم في بيته، في حِجر صحيٍّ لا يعلم أجلَه ولا مداه...

قلَّة منَّا تواتيه الجرأةُ فيعصي؛

بل الكلُّ - إلَّا من سفِه نفسَه - يلهج إلى الله خاشعة أبصارُه، وجلةً قلوبُه،

باكيًا ضارعًا، خائفًا راجيًا؛

ولقد حلَّت (الكُرونا) ضيفًا عزيزا على من آمن وشكر، وسيفا أزيزا على من جحد وكفر؛

وشتان بين من له ربٌّ يخفف عنه ويمده بالصون والعون،

ومن نسي أنَّ له ربًّا فتمادى في غيّه، فطلَّقته السكينة، وجفاه الهوْن...

أخي، أختي... في جوف الليل ريحٌ من الجنة تغمُرك، ورَوْحٌ من العالَم العلوي يبسطك ثم ينشُرك...

أختي أخي... في هذا الزمن الحلو الجميل، ولا أملك مالًا ولا خيلًا فأهديها لك؛ ولكني أهديك حبًّا ونُصحا، ـ والنصح أغلى ما يباع ويوهب ـ...

أيا حبيبي وقرَّة عيني، هذا قلبي ويدي... وهاذي نصيحتي وهديتي:

الليل ليلٌ، والويل ويلٌ... إمَّا ظلمةٌ وكفى، أو ظلمات وصدٌّ عن سبيل المصطفى...

الليل ليلٌ، والسيل سيلٌ... إمَّا يَسقيك ماء عذبا زلالًا، أو يجرفك فتهلك دنيًا وأخرى...

فيا ساهرَ الليل، وبين عينيك شاشةٌ عريضةٌ (التلفزيون، أو

الكمبيوتر)...

ويا ساهرَ الليل، وأمام ناظريك شاشة صغيرةٌ (المحمول، أو الهاتف، أو لعبة إلكترونية)...

وحول كلِّ ذلك اتصالٌ مباشر أو غير مباشرٍ، بعفاريت الأرض وشياطينها؛ وقد سهروا في طبخ ما تأكل، وفي تزويق ما تلبس، وفي تجميل ما تشاهد، وفي زرع أشواك من فلسفات اللذة، والعبثية، والانحلال... مصيَدةً لك، نُصبت ـ بخبث واحتراف ـ شِباكُها لجوف الليل، أو حتى لحين ترمُض الفصال وقت الضحى...

مثلَ ذبابٍ يحوم حول النار فتُحرقه، أو ينجو من لظاها فتكون بردا وسلاما عليه...

مثلَ مربوطٍ بعنقه إلى مشنقةٍ، إمَّا أن يُقطع رأسُه، أو يَقطع الحبلَ بعزم، فيحيا حياة طيبة لا غبار عليه...

فيا ساهرَ الليل تفكَّر، وتروَّ، وأعمِل قلبك وعقلك وضميرك؛ لتنجوَ وينجو من معك... ولا تكن خفيفَ العقل، ميِّتَ القلب، بليدَ الضمير... فتهلَك وتُهلك مَن دونك ومن خلفك...

إنَّ نصرة الحق والدين تبدأ من ساعةٍ تخلو فيها بنفسك، فإن أنت انتصرتَ على هواك ترشَّحت للمهامِّ الكبرى، وإن أنت انهزمت وتردَّيت وتلطَّخت... فلم تُسارع إلى والوقوف والكرّ، والرجوع والتطهُّر... إن أنت كنت كذلك، فالرجاء في قطع

المسافات يتضاءل وينطفئ... رويدا رويدا...

فيا ساهرَ الليل، لا تستسلم، ولا تُلق بالمنشفة البيضاء على حلبة صراع القيَم؛ واعلم أنَّ ربَّك يَغار عليك، وهو بك رحيمٌ، وقد عافاك وسترك، فلم يفضحك أمام الخلائق، ولقد نهاك عن فضح نفسك... ففي الحديث الصحيح: «**إنَّ الله تعالى يغار، وغيرة الله تعالى أن يأتي المؤمنُ ما حرم الله عليه**»(رواه الترمذي).

ويا ساهرَ الليل، لك ربٌّ رحيم بك، عفوٌّ عليك، عطوفٌ... بسَط يديه لك فقال: «**سارعوا إلى مغفرة من ربكم**»، «**وتوبوا إلى الله جميعا**»...لك ربٌّ يقول للسماوات والأرض، وللجبال والبحار، وقد ضجرت من معاصيك فاستأذنت ربها أن تهلكك، يقول لها:

«**دعوني وعبادي .. لو خلقتموهم لرحِمتموهم .. إن تابوا إليَّ فأنا حبيبهم .. وإن لم يتوبوا فأنا طبيبُهم**»...

فيا ساهرَ الليل، لا تشكُ ليلَك لأحدٍ من الخلقِ... اقصِد بابَه سبحانه... واسأله موقنًا، وجِلا، مستسلما...:

«يا غفَّارُ، يا توَّابُ، يا حبيبُ، ويا طبيبُ...قوِّني بالطاعة، وأبعِد عني أسباب المعصية، وكن معي، واحفَظني، واملأ قلبي صفاءً ويقينًا وإيمانًا... فأنا عبدُك وأنت ربي... أنا المحتاج وأنت الكافي... أنا المريض وأنت الشافي... أنا الضالُّ وأنت

الهادي... أنت المستجيبُ وأنا الداعي...اللهم أنت ربي وأنا عبدك».

يا ساهرَ الليل، تأمَّل معي هذا الحديث الجميل، الرائع، البديع... ففيه جرعات من الأمل، يستتبع العمل:

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني عالجت امرأةً في أقصى المدينة، وإني أصبتُ منها ما دون أن أمسَّها (آتيها)، وأنا هذا فاقضِ فيّ ما شئت، قال: فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لقد سترك الله لو سترت نفسك**»...

فلم يردَّ عليه النبيء ﷺ شيئا، فانطلق الرجل فأتبعه رجلًا ودعاه، فتلا عليه الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾.

فقال رجلٌ: **يا رسول الله، هذا له خاصَّة؟**

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**لا، بل للناس كافة**»...

فيا ساهر الليل أبشِر، واستغفر، وتيقَّن أنَّ الآية تصدُق فيك وفي غيرك...:

فاستُر ولا تفضح،

واكتُم ولا تشهِّر،

واندَم ولا تيأس،

وتُب ولا تسوِّف،

وأحسِن الظنَّ في الله ولا تقنط،

ويا ساهرَ الليل «قم الليل»... فإن فعلت فقد محا الله صفحتَك، وفتح لك أبواب الجنان ترتع منها كما تشاء، وجنَّد لك أهلَ السماء يستغفرون لك، ويسبِّحون معك... ولقد صار ليلُك مولودًا جديدًا، وبستانا يزهو بالزهر وبالورد والياسمين... فارتع فيه كما تشاء...

فيا ساهر الليل: «**أليس اللهُ بكافٍ عبدَه؟!**»

قل: بلى... يا ربّ... بلى...

فرجعناك إلى أمّك ...

فرجعناك إلى أمّك كي تقرَّ عينُها ولا تحزن

(مُهداة لكل أمٍّ، فرَّق الكُرونا بينها وبين فِلْذاتِ أكبادها)[1]

قبل أعوامٍ قليلة... كان لي صديقٌ حميمٌ...كانت له أمٌّ صارعت مرضَ السرطان أعوامًا... ولقد كانت ـ يشهد الله ـ مؤمنةً محتسبةً، صابرةً حامدةً؛ وكنا نعُدُّ الأيام التي بقيت لها من عمرٍ بدا قصيرًا، رغم طولِ الأملِ؛ حتى تفاقم الوجعُ، وبلغ مَداه؛ فجاء اليوم الذي دعاها فيه ربُّ العزَّة إلى جواره، فاستجابت لنِداه...

بكاها زوجُها بكاءً مُبرحًا...

نحَب على فراقها أبناؤها نحيبَ الثكالى...

وتركت في قلبي ـ أنا، صديقُ ابنها ـ جُرحا غائرا لا يندملُ...

وإني والله اليومَ، كلَّما رأيتُ صديقي الحبيب تذكَّرت أمَّه قبل أن أحيِّيَه، وقبل أن أردَّ تحيته...

ثم إني أترقَّب ـ إذا أنسأ الله في أجلي ـ أن أعيشَ ساعةَ فراقِ أمّي كما عاشَها هو؛ وأن أبكيها كما بكاها هو؛ وأن أفتقدها فأكون يتيم الأمّ، حتى ولو بلغتُ الثمانين أو يزيد...

(1) برج البحري؛ فجر يوم الخميس 2 شعبان 1441هـ / 26 مارس 2020م.

ذلك أنَّ ندائي لكِ «أمّي» مرَّة واحدة، بـ: «يا أمّي (أيا مَّا)» لا أستبدلُ به الدنيا وما فيها؛ فكيف بتكراره كلَّ صباح وكلَّ مساء، وأنا إلى جوارِكِ أو غائبا عنكِ، بصوتي القريب، أو عبر الهاتف الرتيب: أمّي... أمّي...

لا أزال ـ ولن أزال ـ أترقَّب تلك الساعة الصعبَة، وأنا على يقين أنَّها «**آتيةٌ لا ريب فيها**»...

وإني لأسأل الله ـ دبُر كلّ صلاة ـ «أن يرفع رُوحي إليه وهي قيدَ الحياةِ»؛ ولكني أعودُ وأسأله «أن تحظى هي بجواره سبحانه قبلي، كي لا تبكي عليَّ، وكي لا تتألَّم من فراقي».

فأنا بين بين...

أخاف فراقها، وأتألَّم لألمها...

وما كنتُ يوما أتخيَّل أنِّي سأكون بعيدًا عنها، وأني لا أملك السفرَ إليها قهرًا وجبرًا، لا رضًا واختيارًا...

نعم، احتملتُ السجنَ[1]، وسألتُ الله أن يُكرمني به وأنا على الحقّ المبين؛ فأنالَ حظوة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأذوق طعم «مجمَرة الرجالِ»، ثم أعاينَ بعضًا مما عاين أستاذي وقدوتي «علي عزت بيجوفيتش»... ولعلي أنسج على منواله، فأكتب «هروبي إلى

(1) ينظر- مقال «**أشتاق إلى السجن لأدرك معنى الحياة**»، فيبكوس محرم 1440هـ / 2018م.

الحرية» أو ما شابَهَ...

غير أني لم أحتمل شكلًا آخرَ من البِعاد؛ حتى جاء الوباءُ على قدَرٍ، ونزلت الجائحة بقدرٍ...

ثم تعلَّمت اسما عجيبا جديدًا، لمخلوق غريب فريدٍ، سمَّوه «الكُرونا»، فردَّدت على إثرهم: «كُرونا»...

قلتُ في نفسي: «ما أقصر مدارك البشر، وما أعجز بني البشر، وما أجهل هؤلاء البشر...».

الكُرونا ـ رغما عني، ورغمًا عن كبريائي ـ أبعدَتني عن أمّي...

وإني اليوم لا أملك السفر إليها ـ وهي في أغلان، وادي مزاب ـ كما اعتدتُ، ولا أن أضع رأسي على حِجرها الرطب الوديع، كما ألفتُ، ولا أن أزمَّ حقائبي، وأحمل أولادي على متن سيارتي، فأطوي المسافات من هنا إلى هنالك... حيث ينظرني أبي، وتتشوق إليَّ وإلى أحفادها أمّي...

البارحة ليلًا، في سمرٍ عائلي «بالعاصمة»، وردت إليَّ وإلى إخوتي ـ وهم في ديارهم، وبين أبنائهم ـ... وردت إلينا رسالةٌ قصيرةٌ، عبر «الواتساب»، مِن أمّي، وإني أنقلها حرفيًّا، وهي تقول فيها بلغتها المزابية البليغة، وأنشرها مترجمة إلى عربيتنا البديعة... تقول:

«الله يبارك... أنتم في نشاطٍ...

أسأل الله أن يوسّع خاطركم مع أبنائكم، وأن تصبروا فتجلسوا إليهم وتعلّموهم... تعلّموهم العلم، وكذلك الصَّنعة...

أمدُّوهم بالإبر والخيط، حتى يرقّعوا اللباس، ويخيطوا الفساتين...

أمدُّوهم بالكتب (ثم علقت هي: إنهم مُتعَبون من الكتب، فضحك والدي ومن معها من هذا التعليق، وضحكنا)...

حفّظوهم أناشيد من التراث (إزلوان)...».

ثم صمتَتْ، ودعت الله لنا بالحفظ والصون، ما شاء الله لها أن تدعو.

ثم أنشدت، بصوتها العذب الجميل، الزلال الجليل:

«**إلَّى ربي يدَّبَّر... غير العبد أولي صَبَّر...**» (كاملة)[1].

لملمتُ دمُوعي وكفكفتها، وتذكَّرت بيتا لأستاذي الدكتور ناصر، جاء فيه عن ابنه: «وما صبرتُ فما قولي له اصطبِرِ!»[2]...

(1) قصيدة من عيون الأدب المزابي، كلُّها معان في التوحيد والإيمان، وفي حب الله تعالى، والدعوة إلى فعل الخير، والصبر على المصائب؛ ليتها تُرجمت إلى العربية، وليت كلَّ والدٍ ووالدة يحفّظها لأبنائه، وينشّئهم على أمثال هذه القيم الرفيعة، عوض الأدب الرخيص، المستورَد والمستهلَك عبر القنوات التلفزيونية للأطفال.

(2) أُنظر ديوان الدكتور محمد ناصر «**الأعمال الشعرية الكاملة**» قصيدة «**عزوبة الخمسين**». نشر دار الريام، الجزائر؛ 1431هـ / 2010م؛ ص226.

ثم غادرتُ الصالون مُرغَما، حتى لا أرِيَ أبنائي مني ضعفًا؛ وجلست على حافَّة سريري وأنا أردد مثل طفل وديعٍ: أمّي... أمّي... أمّي...

ثم شغَّلت الجهاز المحمولَ، واخترتُ قارئا برواية ورشٍ، هو أعزُّ قارئ وأحبُّه إلى قلبي، أعني عبد الرشيد صوفي؛ وضغطت الزرَّ على «سورة طه»...

وإذا بالقارئ يتلو بعدَ مسافةٍ قوله تعالى، مخاطبا نبيه موسى: «**فرجعناك إلى أمك كي تقرَّ عينها ولا تحزن**»...

لم أتمالك، بل أطفأت الجهازَ وبكيتُ ما شاء الله لي أن أبكي...

بكيتُ شوقا إلى أمّي، أملًا في قُبلة على جبين أمّي...

رجاءً أن تربُت على رأسي... أمّي...

وأن أطعم «مغلوثة أو أُشُّوأُبْرن» بيد أمّي...

وأن أرتشف رشفةً من شايٍ أخضر منعنعا، مُعَدًّا بأنامل أمّي...

ثم رحتُ أحلم وأحلم...

ثم دعوت الله لصديقي الحبيب بالأجر والمثوبة، ولأمّه «زُهرة» بالمغفرة والرحمة...

ثم سألت الله وجأرتُ إليه أن يردَّني إلى أمّي كما ردَّ موسى إلى أمِّه، وأن يكتبَ لكلّ غائبٍ عن أمّه أوبةً جميلة إليها، على جناحِ السرعة... حتى تسمع منه نداء أزليا: أمّي... أمّي..

ثم لزمتُ بابَ الله سبحانه، ودعوته دعاء العبد الآبق لسيده

الكريم «أن يغفر لي ما قصَّرت في حقّها ـ ولقد والله قصرت ـ فتسامحني... ويغفر هو جَلَّجَلَالُهُ... لي».

ونمتُ نوما هنيًّا، بعد تعبِ يومٍ شديدِ المحال، على وقع أخبار «الكُرونا»، وعلى نغمات الخالِدين وهم يغنُّون في كل مكان، وينشدون في كل زمان: أمّي... أمّي.. أمّي...

النعمة والمنعِم

(مقال ليس للنشر، فقط للكبار!)[1]

تردَّدت طويلًا قبل أن أكتب هذه الكلمات، قلبي يدقُّ متسارِع النبضات، أناملي تتراقص وهي تخطُّ الحرف تلو الحرف مرتجفات؛ لأني سأبوح لكَ ـ أخي، أختي ـ وحدَك سرًّا من أسراري، وسأُفضي إليكَ بما اعتبرتُه «خاصًّا بي» طولَ عمري؛ وأنا على يقينٍ أنك مثلي تمامًا، دائمَ التلاوُم في قرارة نفسك في شأنِه؛ ولكنَّك لم تصارح به ضميرك ـ ولا الناس من حولك ـ إلَّا لَمامًا...

أنا الآن أكتبُ مقالي، في خلوةٍ خاليةٍ، وأنسجُ دقَّات قلبي في سكونٍ سكينٍ؛ وحدي في الصالون...

نعم وحدي...

حريصٌ على أن لا ينتبه إليَّ مَن بالدار...

ألتفتُ يُمنة ويُسرة مخافة عفريتٍ من العفاريت يربُض إلى جنبي...

ألقي السمعَ بعيدًا... متوجّسا خيفةً من شياطينِ الليل، أن تتخافت على أثري؛ ذلك أنَّ أسفل الشاشة أمامي مكتوب عليه

(1) ليلة الجمعة 2 شعبان 1441هـ / 27 مارس 2020م.

«فقط للكبار»، أو لعلَّه كتب فيه «لمن فوق الثامنة عشر»...

هو سرٌّ إذن، وهو لا يعني الصغارَ في شيءٍ؛ ولقد يعنيهم يومَ يكبُرون، أو يهمُّهم حين يشتدُّ عودُهم فيتصلَّبون... يَعنيهم ساعةَ يكونون أحرارًا طُلقاءَ، يَختارون ولا يُختار لهم، يقرّرون ولا يقرّر أحدٌ بديلًا عنهم؛ ساعةَ يفعلون ما يشاؤون، ويريدون ما يفعلون... يومَها فقط، يليق بهم الاطلاعُ على سرِّي المكنون...

رجاءً... ثم رجاءً... لا تخالفوا التعليمة الصارمةَ، ولا تتجاوزوا الشرط الذي بيني وبينكم: «فقط للكبار، وليس للصغار!».

۞ ۞ ۞

ذلكم السرُّ الذي أبوحُ به لأوَّل مرَّة، أنقلُه بأمانةٍ إلى قلبك وقرارة نفسك ـ أختي، أخي ـ، ولا يعني عقلَك في شيءٍ... إنه من مقاماتِ القلوبِ والعواطفِ فقط، وليس موجَّها للتحليل والتركيب، ولا للمناقشة والتوضيب... ذلك أنه لا ينتظر الحجَّة والدليل، يكفيه أن يجد مِن الوجدان المرهَف التصديقَ والتحقيقَ...

سِرّي أنا، أني يومَ كنتُ صغيرًا، كنتُ أحلم بالكثير... كانت أحلامي لا يحدُّها حدٌّ، ولا يوقفها سدٌّ...

كنتُ أحلمُ بمالٍ وفيرٍ لم يؤتَه أحدٌ من العالَمين...

وبامرأة جميلةٍ لم تر مثلها عينٌ قطُّ...

وبـ«فيلا» فيها مكتبةٌ وحديقةٌ، ومسبحٌ وقاعةُ رياضةٍ، ، وصالوناتٌ كثيرة...

وبسيارة فارهةٍ لا يملكها إلَّا خاصَّة الخاصَّة من الأثرياء...

وبشُهرة يبلغ مداها أقاصي الدنيا وأدانيها...

وبعلمٍ يشهد له الأوَّلون والآخِرون، ويعترف به السابقون واللاحقون...

كنت أحلُم بصحَّةٍ لا يعتريها سقمٌ، وجسدٍ لا يحتاج إلى دواءٍ...

وبأطفالٍ على المقاس، قدًّا وقامةً، بياضًا وصفاءً، ذكاءً ونباهةً؛ باختصارٍ: أطفالٌ أفصِّلهم بعنايةٍ من غلاف مجلَّتَيْ «Parents» و«Enfant»...

كنتُ أحلم بتجارةٍ لا تبور، وبصناعة دوما آلاتها تدور...

وبضيَعٍ ومزارع منها الغلالُ لا تبيد أبدًا، وفيها من الخيرات ما لا يُحصى عدًّا ولا عددًا...

وبأملاكٍ وممتلكات هنا وهنالك، في البلاد «بأغلان» اثنان (واحدٌ للشتاء وآخر للصيف)؛ وبالتل اثنان (واحدٌ للعائلة وآخر للراحة)؛ وفي فرنسا شقَّة، وفي إسطانبول شقَّة، ولمَا لا تكون لي في المدينة المنوَّرة أو مكَّة المكرَّمة شقَّة لِحين الحج والعمرة...

كنتُ أحلمُ بوطنٍ أحسنَ من الجزائر، وأخطّط للهجرة إلى بلدٍ أهنأ من بلدي الجزائر؛ بلدٍ كلُّه حسناتٌ وليس فيه سيئةٌ واحدةٌ... وطنٍ يجمع محاسن أمريكا وألمانيا، ومباهج باريس وجنيف، وشعائر مكة والمدينة...

كنتُ أحلم... وأحلم... وأحلم...

ولقد قالوا لي وأنا على مقاعد الدراسة: «ليس للحلم حدٌّ ولا سدٌّ... فلا توقف خيالك عند نقطةٍ، ولا تقصُر أحلامك على مجالٍ».

وبما أني كنتُ وديعًا سميعًا، فقد قلت لهم: «سمعا وطاعة...!».

واستمرَّ الحلم إلى ما شاء الله له أن يستمرَّ...

استمرَّ الحلمُ الجميل إلى أن انتقلتُ من غرفة الصغار إلى غرفة الكبار...

فجأةً... تسارعت الليالي والأيام... مثل برقٍ خاطفٍ، أو وميضٍ هادفٍ، أو نبرةٍ أو هاتفٍ...

فجأةً... سريعًا... في أقلَّ من لمح البصر... لا أتذكَّر كيف مرَّت الساعةُ التي مرَّت، ولا كيف حلَّت الساعةُ التي حلَّت...

فجأةً... صرتُ كبيرًا، وعلامة ذلك أني أنهيتُ دراستي... فتزوَّجتُ... فتوظَّفتُ... فتملَّكتُ... فولَدتُ... ثم شربتُ وأكلتُ، وتنعَّمتُ وتمتَّعتُ، وأقمتُ وسافرتُ...

فجأةً... حلَّت الحقيقةُ محلَّ الحلم، فتبدَّدت تلك الصورةُ الوردية من خاطري رويدًا رويدًا، وحلَّت مكانها صورةٌ ليست قاتمةً عابسةً، ولكنَّها ليست بألوان الطيف سابغةً...

صورةٌ هي بين بين... هي «ساعةٌ بساعةٍ»...

صورةٌ... فيها صحَّةٌ وعافيةٌ مع بعض الأسقامِ أحيانًا... أمرُض ثم أُشفى، أضعُف ثم أقوى...

صورةٌ... فيها زوجةٌ طيّبة صالحة، لها جمالها الخاصُّ بها... وهي لا تنافس الممثلات ولا عارضات الأزياء... ولكنها، تسرُّني وتملأ قلبي سكونا وسكينة، جمالًا وبهاءً...

صورةٌ... بها بيتٌ من حَجرٍ، ليس ضيّقا ولا واسعًا... فيه مُسحةٌ من جمالٍ، وفيه زوايا تحتاج إلى معالجةٍ وترميمٍ؛ به محاسنُ لا تخلو من عيوبٍ، وعيوبٌ لا تخفيها المحاسن... بيت كباقي بيوت الناس، وكفى...

صورةٌ... ترسُم أولادا فيهم الذكرُ والأنثى، الطويلُ والقصيرُ، المجتهدُ والأقلُّ اجتهادا، الصحيحُ والسقيمُ؛ لكنهم أولادٌ أستطيع أن أنسبهم إليَّ باعتزازٍ، وأفخر أنهم بعضٌ مني، وأنهم مددٌ لي بلا احترازٍ...

صورةٌ... لوطنٍ... لبلدٍ... لجزائرَ... ليست أفضل البلدان على الإطلاق، ولا هي أسوأها على الإطلاق... هي بِضعٌ مني وأنا بعضٌ منها... بلدٍ كلُّ ما فيه جميلٌ ما لم تمسَّه يد إنسانٍ، بل وحتى إنسانُه جميلٌ ما لم تُفسده الماديةُ والعبثيةُ، ودركُ الشقاءِ والهوان؛ جزائرَ رائعة ما لم تشوّهها الفهوم الخاطئة للدين، وللحضارة والثقافة والتمدين...

صورةٌ ... صورةٌ... صورةٌ...

غير أني، وهذا هو السرُّ الذي أفصح به إليك ـ عزيزي عزيزتي ـ، وهو السرُّ الذي أهمس به في أذنيك دون غيرك؛ فلا تنسَ الشرط يا رعاك الله...: «فقط للكبار!»...

غير أني، صرتُ دائمَ النظر إلى النعمة: مِكثارًا مِهدارًا؛ لا أرضى بالدون ولا بالقليل...

غير أني، لا أجد أبدًا حلاوةَ ما وُهِبتُ؛ ولكني دوما أشكو من مرارة ما مُنعتُ...

فكنتُ كلَّما حلمتُ بشيء، بأمرٍ، بمرتبةٍ، بمكسبٍ... يأتيني، وحين يأتي أمرُّ عليه كأن لم يأتِ...

ولا أجد الوقت الكافي لتمام الإحساسِ بالنعمة، ولا لكمال النظر إليها والتمتع بها...

بعضُ منازلي وقصوري، لا أسكنها إلَّا لأيام...

وزوجتي وأولادي، لا أجد الوقت الكافي للجلوس إليهم...

ودراهمي ومالي، مكدَّس هنا في بنكٍ ومصرفٍ، وهنالك في حركةٍ ومتجرٍ ومقصفٍ...

جسدي وصحَّتي، لا ألقي لها بالًا، وهي تُتعبني حينًا وأرهقها حينًا...

كنتُ أنا «المنعَم عليه» شديدَ التعلُّق «بالنعمة»... يا للحسرة...

حتى طوت الأيامُ الأيامَ، والتهمت الأحلامُ الأحلامَ...

كبُرت سنًّا، وشِخت عُمرا، مثلما أرى أحيانا في الأفلام...

ولم تزد «النعمةُ المنعَم عليه» سعادةً، بل أحيانًا زادته رهَقًا، وأعيته وهقًا، ولم تُرحه بتاتًا... بتاتًا... بتاتًا...

الراحةُ! تلك كلمةٌ زالت من قاموسي؛ حتى صرتُ أردّد مع المرددين: «لا راحة في الدنيا»، و«لا راحة إلَّا في القبر» (وِي اخسَنْ ارَّاحَت أتياف أنِيل)...

انتقلتُ إذن من زمن الصغار إلى زمن الكبار، من عالم الأحلام إلى عوالم الآلام... فكنتُ وأنا في الأربعين، ثم الخمسين، ثم الستين، فالسبعين... كنتُ كلَّ يومٍ أرمي حلُما إلى وراءٍ، وأستقبل ألمًا من أمامٍ...

رجاءً لا تفهموني خطأً، فأنا ـ ولله الحمد والمنَّة ـ أصلّي وأصومُ، ولقد حججتُ واعتمرتُ، وليست لي مشاقُّ من مثلِ الخمر والدخان، ولا أنا ممن عقَّ والديه، أو أتى الموبقات...

غير أني كنت دائمَ الشكوى، وكان في عينيَّ حَوَلٌ بهما أرى الذي ينقُصني وأعمى عن الذي يغمُرني، كان حمدي لله لفظيًّا ووعظيًّا، ولم يكن البتَّة قلبيًّا ولا يقينيًّا...

فكنتُ دائم الشكوى من الجزائر، ومن البيئة، ومن الواقع، ومن الوقت، ومن المرض، ومن الزوجة، ومن الأبناء، ومن الناس... لا يتوقَّف وابلُ الشكوى عندي أبدًا... ولا أرى في كلّ ذلك إلَّا ما يخالف حُلمي الورديَّ القديم، فلا شيء منه حقَّق

لي ما تمنيت...

نسيتُ «المنعِم» في قرارة نفسي، حتى وإن كنتُ قد ذكرته باللسان؛ وأحيانا حين الصلاة وحين الصوم أذكرُه لزمن قصير، ثم لا ألبث أن أنساه...

نعم، نسيتُه، فلم أعرفه حقَّ المعرفةِ، ولم أقدره حق القدْر... نسيتُه فلم أقابله بالشكر لكن بالضَّجر...

نسيتُه، صِدقًا أقولُها، وليس هذا أوان التعلات والأوهام: «فالكذب مهلكةٌ، والصدق منجاةٌ»...

نسيته يا للهول... نسيته يا للخسارة... نسيته يا للندم...

نسيتُه حتى نزلتْ بداري، وبدارك، نازلةٌ (الكُرونا)؛ فغلَّقت أبوابَ بيتي، وجلستُ إلى جوار زوجي، وأطلت المكث مع بُني وبُنيتي...

وتفقَّدت السميد والزيت، والشاي والسكر، في مخابئ منزلي...

ووجدتُ الوقتَ الكافي الشافيَ للنظر إلى ما حولي ومن حولي؛

أحصيتُ النعم التي تغمرني فألفيتها لا تُحصى...

لا أخفي سرًّا إن قلت لك حِبّي: «تحوَّل مركزُ الاهتمام عندي من «النعمة» إلى «المنعم»؛ فلهجت إليه بالدعاء[1]، وجأرت

(1) وممّا درجتُ عليه في دعائي أن أقول: «سبحانك يا ربّ، حمدي لك يستوجب حمدًا،

إليه بالنداء...

شكرتُه حمدته[1]،

ثم بكيت بكاءً لذيذًا، وسهرتُ سهرا مديدًا...».

وأنا الحين ـ وأنا في حجري الصحي ـ أتفكَّر وأعمِل قلبي في جلال رحموته سبحانه، ثم أستنجد بعقلي في جمال رحمانيته جَلَّجَلَالُهُ...

وإني والله قد علمتُ من كتابه الحكيم، وكلام رسوله الكريم، أنَّ كثرة الإنعام ليست في ذاتها قذارةً، وأنَّ عمارة الدنيا أمرٌ من أوامر ربّي...

علمتُ أنَّ الاقتصار على «النعمة» والغفلة عن «المنعم» هي الحالقةُ، وهي الطامَّة، وهي الصاخَّة...

ثم قرَّرتُ أن أخرج من صمتي، وأفشي سري... لأنه سرُّ كلّ إنسان ناطقٍ عَقُول... وهو سرُّ كلّ مسلم قؤول ثم فَعول...

۞ ۞ ۞

برهةً، وإلى جواري مشغّل التلاوة، فتحت التطبيق في قارئ

وشكري لك يستوجب شكرًا» ذلك أنَّ بلوغك مقام الحمد، وعلوَّك إلى مقام الشكر؛ يجعلك أقرب إلى المنعم منك إلى النعمة.

(1) كلُّ صحيحٍ، غنيٍّ... هو قريبٌ إلى النعمة، حتى يحمد ويشكر فيرتفع إلى جوار المنعِم. وكل مريضٍ فقيرٍ... هو إلى جوار المنعِم بالحال لا بمجرد المقال، شريطة أن يصبر.

أحببتُه، هو عبد الرشيد صوفي، واخترت منه «سورة عبس»، برواية السوسي عن أبي عمرو... ثم هزني قوله سبحان وتعالى:

«قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ،

مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ؟

مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ،

ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ،

ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ،

ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ،

كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ،

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ...».

إلى هنا انقطعتُ عن عالم الوعي واليقظة، إلى عالم المنام والأحلام...

إلى هنا حانَ وقتُ البسط والنشر، وارتفع الحجر العلميُّ عن مقالي، إلى حين يرتفع الحجر الصحي عنا جميعا، وعني...

وكلّي أملٌ أن لا يفضح سرَّنا ربُّ الظِّراب والآكام، وأن يتلقانا إلهنا جَلَّجَلَالُهُ يوم القيامة.. بالتحية والسلام[1]؛ وتحية أهل الجنة السلام.

(1) ورد على لسان بعض الأولياء دعاءٌ جاء فيه: «سبحانك ما عبدناك حقَّ عبادتك يا معبود، سبحانك ما عرفناك حقَّ معرفتك يا معروف، سبحانك ما ذكرناك حقَّ ذكرك يا مذكور، سبحانك ما شكرناك حقَّ شكرك يا مشكور».

«مغلوقَة»* زوجتي...

مغلوقة[1] زوجتي

(كمال العلم: أنك حين لا تفهم، تفهم أنك لم تفهم)[2]

هي قصَّة قصيرةٌ مُبتسَرة، من واقعٍ جميلٍ مُعتصَرةٌ؛

«تتشابه فيها الأسماء والأحداث والأعيانُ»: كما يقولون في مقدّمات الروايات وشارات الأفلام؛

هي قصَّةٌ لا تخصُّ أحدًا بذاته وعينه؛ وهي ـ مع ذلك ـ تعني كلَّ واحدٍ باسمه ووسمه؛ فتفضح الجميع بلا استثناء، وتكشف عن الكلِّ مستورَه والغِطاء؛ فلنُصغ إلى أحداث قصَّتنا، بلا حائلٍ ولا واسطةٍ تحجبُنا:

(1) المغلوقة (بقاف مثلثة) هي وجبة لذيذة جدا، أحسن من البيتزا، وأروع من الهمبروغر؛ غالبا ما تعدُّ بالسميد، والفلفل الحار مع الخضار، والشحم، وكثير من التوابل؛ وأحيانا يضاف إليها اللحم؛ وتستهلِك من زيت الزيتون الكثير؛ ولها أنواع وأشكال، وأوصاف وأسماء، منها: المختومة، والمحجوبة، والمقفولة... وتختلف من مدينة إلى مدينة، ومن بلاد إلى أخرى.

(2) ليلة الأحد 4 شعبان 1441هـ / 29 مارس 2020م. برج البحري.

* **ملحوظة**: هي مقامةٌ وليست مقالةً، أتعبتني مثلما تتعب المرأة حين إعداد «المغلوقة»، وأحرقت أناملي كمَا تحرقها، وإني أهديها لكم راجيا أن تأكلوها هنيًّا مريًّا قبل أن تبرُد، وندعو الله لكلِّ امرأة عفيفة طاهرة، ولي ولنا جميعا... بالقبول والمغفرة، وبالفرج من الوباء...

(عُمَار) موظَّف في شركة، وهو من أصحاب الدخل المحدود ـ كما يسمُّونه في بلدي الجزائر ـ.

يسكُن بيتا اكتراه بشقِّ النفس؛ فيه غرفةُ نومٍ واحدةٍ؛ ومطبخٌ مطلٌّ على وسط الدار، بلا نافذة؛

ولقد تزوَّج قبل ثلاثة أعوامٍ، ورُزق ولدا سماه (فَريد)؛ هو اليوم في العامين من عُمره بالتحديد؛

وزوجه الطيبة (فوزية) حاملٌ في شهرها السادس، أملُها أن تلد طفلة وفيَّة مثل القنادس[1].

ولأنَّ (عُمار) حسنُ المَعشر، فقد اجتمع حوله أصدقاءُ كثر؛

وهو لا يتعب من خِدمتهم، ولو بأقلّ القليل يرفُدهم؛

كلُّهم يحبُّه ويتودَّد إليه ويقدِّره، وجميعُهم يكنُّ له أبلغ معاني التبجيل ويحترمه...

وهم منذ شهور، يطالبونه بضيافةٍ في بيته، وبوجبة من طبخ عِرسه؛

أحيانا بـ«البعِّ» والتصريح، وأخرى بالتعريض والتلميح...

(1) تعرف أنثى القنادس بالوفاء الشديد، وهي تستقبل زوجها حين عودته من صيدِ الطعام بالتقبيل الشديد، وبالاحتفاء العجيب؛ ولذا يقول المثلُ السائر على شاكلة دعاء: «اللهم قندس نساءنا». ومعلومٌ أنَّ ذكر الثعلب يتزوَّج أنثى واحدة، وإذا ماتت قبله ظلَّ طول حياته أعزب؛ ولذا قد تدعو نساؤنا بدعاء رتيب: «اللهم ثعلب أزواجنا»، مقتصرات في الدعاء على خُلَّة الوفاء، لا على غيرها من صفات الثعلب.

لأجل ذلك، بادر المسكينُ إلى التقشُّف في مدخوله، وحرم نفسه من بعض ضرورات حياته وحياة زوجه ووُلْده؛

منع نفسه من «الذهاب إلى طبيب الأسنان»، رغم شدَّة الأوجاع والآلام...

ومن شراء الفاكهة واللحم الأحمر؛ مكتفيا حين يشتهي بلحم الدجاج المحمَّر...

قصرَ أهله على مصباحٍ واحدٍ، في ظُلمة من الليل خافتٍ...

وهو يستحمُّ بالإبريق، عوض الحنفية، في حرّ الصيف، وجفاف الريق...

وجاء اليوم الموعودُ، فصرف (عُمار) نصف أجرته الشهرية لشراء مستلزمات «العَرْضَة»، أو «الزرْدة»، أو «الوَعْدة» كلٌّ حسب تقديره وتحبيره؛

أمَّا (فوزية) الحامل، فقد استغرق إعداد «المغلوثة» لضيوفها الأعزَّة، وقتا طويلا: من ما بعد الفجر إلى قبيل الظهر...

ولقد كانت الصُّحبةُ والأصدقاءُ، والحقُّ يُقال، في الموعد المحدَّد إلَّا اثنان منهم؛

ولقد انصرفت (فوزية) وابنُها إلى غرفةِ النومِ، بعد أن أبدعت في تعطير وسط الدار بـ«البخور المحلي الزكي»،

ولقد آسر الضيوفَ الكرامَ منظرُ صينيَّة الشاي مُعدَّة بعنايةٍ فائقة، وصحونَ الفواكه ـ تفاحا وموزا، وبرتقالا من نوع التومسون ـ

منضوضة بطريقة رائقة...

ثم تفرقوا ثلاث «ثعْدات» (خمسة خمسة)، ووُضعت قصعاتُ «المغلوقة» بفنٍّ أخَّاذ، وترتيب نفَّاذ؛

فهمَّ البعض من الضيوف بالأكلِ، بعد ذكر اسم الله: «بسم الله»...

غير أنَّ أحدهم نطقَ فقال:

«هذه «الحَطَّة» لا يمكن أن نُفسِدها قبل أن نأخذ لها صورةً؛

فأخرج أغلبُهم من جيبِ مِعطفه، أو من حقيبته الصغيرة، هاتفه المحمول؛

وراحوا يلتقطون الصورة تلو الصورة: «سِيلفي» أحيانا، و«صورة جماعية» أخرى، و«فيديو» غالبا...

ثم مرَّ وقتٌ ليسَ باليسير، حتى تذكَّر الضيوف الخفاف، أنَّ «المغلوقة» تنتظر، وأنها لا تؤكل إلَّا سخينة بالنار حارة بالفلفل؛ لكن حين وضعوا أيديهم عليها، كانت قد فقدت سخونتها و«تَرجَّفَت»، فأكلوها على مضضٍ لكأنها «بُوضَةٌ» قد توجَّفت؛

ولم يستحِ أحدُ الحضور، فقال بصوته العالي الجهور: «ما ألذَّ "المغلوقة"، لو أنها كانت ساخنة مُحرِقة».

وبينما هم دائرون على قِصاع الطعام:

كانت صورُ وسْط الدار المفروش،

وصورُ المطبخ المرتب غير المنفوش،

وصورُ الولد الوديع (فريد)،

وصورُ «المغلوقة» المبسوطة،

وصور البخور المتطاير،

وفيديوهات الأفواه وهي تلتهم القطع من «المغلوقة» الواحدة تلو الأخرى...

ولقطات الضحك، والعناق الأخوي، و كشر الوجوه (grimaces)...

وصورٌ... ولقطاتٌ... و«سِلْفَاتٌ»...

كانت جميعُها قد طافت العالَم عبر وسائل التواصل الاجتماعي،

وأرسِلت إلى أطراف ولايات الجزائر الأربع؛ وإلى زوايا قارات العالَم الخمس:

من وهران إلى عمان،

ومن بومرداس إلى فاس؛

من قسنطينة إلى القسنطينية،

ومن بونة إلى بون...».

إلى هنا، انتهت القصَّة، وكان الحضور الكريمُ في وقتِ شُرب الشاي يستعرض بعضُهم على بعضٍ ما حمله جهازُه من بدائع الصنائع، ومن قدرات على التحوير والتزوير...

ثم في اليوم الموالي، كانت الصورُ تُتداول بين الموظَّفين في الشركة، وبين باقي الأصدقاء ممن دُعي إلى الوليمة ومن لم يُدعَ...

فانتقل الحدث من عالم حلوٍ حقيقٍ، إلى مِرآةٍ مشوَّهةٍ تتأبى على التصديق...

ثم ضاع كلُّ شيء بين ثنايا السخافة وسوء التقدير:

ضاعت النية، وضاع المال، وضاعت الصُّحبة، وضاع الحياء، وضاعت «المغلوقة»، وضاع الحديثُ، وضاع الوقت، وضاع الأملُ، وضاعت حُرمة البيت، وضاع وجه الطفل، وضاع الحبُّ...

باختصار شديد، ضاع كلُّ شيء... ولا أزِيد...

فحلَّ اليأسُ محلَّ الأمل،

وانقبض قلبُ المُضيف من حماقات الضيف،

فحرم (عُمار) وزوجه (فوزية) بيتهما من مثل هذه المناسبات لأعوامٍ،

ثم مرَّت الشهور تتلوها السنون، و(فريد) يكبر ويكبر، ولقد رُزق بأخت سميت على إثره (فريدة)...

ولقد استغنت العائلة، ورزقها الله المال الوفير، والمقام الأثير...

صارت ثريةً، لها بيتُها الواسعُ الجميل، ولها ضيعتُها الزهية البهية...

ورغم أنَّ قصَّة «المغلوثة» تكرَّرت أحيانًا، غير أنها لم تكن بنفس القسوة والشدَّة؛

ذلك أنَّ الوَفرة تُغري صاحبَها فيُعرض عن الحسرة... حين تحلُّ به الحسرة...

وأنَّ الفقدَ يُظهر الأشياء على حقيقتها، ويحمل صاحبه على الصرامة في اتخاذ المواقف حيالها...

وكان (فريد) دائما يسمع قصَّة «المغلوثة» تتردَّد على آذانه، حتى شكَّلت إحدى أرسخ «نماذجه» وقناعاته...

فكبُر (فريد) على خلُق والده (عُمار)، وكان ينغّص عليه أنَّ له أصحابا، وأنهم مولعون بأحدث التقليعات في الهواتف؛ وهم ينتقلون بسرعة من جيل إلى جيل: الرابع، ثم الخامس، ثم السادس... وفي كلّ مناسبة يلتقي بهم يؤلِمه أنهم يصوّرون، ويتصوَّرون... لا يحترمون الغير ولا يستحُون...

وكان صَحْبُ (فريد) على شاكلة صحب والده (عُمار)؛ يُلحُّون عليه أن يستضيفهم إلى «الفيلا» التي يسكُنها، وهي تطلُّ على البحر الجميل؛ بها مسبح كبير وحديقة خضراء زاهية...

كانوا يلحُّون، ويلوّحون... يطالبون، ويتملَّقون...

وكانت العائلة تسوّف، وتؤسّس موقفها على قانون «المؤمن لا يُلدغ من جحر مرَّتين»... .

وعلى قاعدة «اللي عضَّاتُو الحيَّة يَخاف من لَحْبل»؛

غير أنَّ (فريد) كان من النباهة والذكاء، وكان من المعرفة بصحبه وبطبائعهم، أنه قرَّر أخيرا أن يستضيفهم إلى بيته لُطفًا، وأن يدعوهم إلى وجبة عشاء تحت ضوء القمر صيفا...

أعدَّ (فريد) عُدَّته، وكان الموعد بعد صلاة العشاء، على العاشرة ليلًا؛

طرق البابَ الضيوفُ، ودخلوا الواحدَ تلو الآخر، وكان أغلبهم متأخرا عن الموعد المحدَّد...

دخلوا، وسلَّموا، وجلسوا...

وكان بين يدي كلّ واحد منهم «شاشة مفتوحة»، وجهاز من الطراز العالي، وهاتف من النوع الغالي...

جلسوا، وتحلَّقوا، وانتظروا...

فإذا (فريد) يشرع في إحضار الطعام والشراب، والفاكهة والكعك...

لا أحد من صحبه أكلَ، كلُّهم بقي مشدوها، لم يفهم حقيقة ما حصل...

كان كلُّ شيءٍ تحفةً مزوَّرة... شبيهة بالحقيقة محوَّرة،

أي كان كلُّ شيء من «نيلون وبلاستيك» مُتقن الصُّنع، بديع المنظر؛ بهي الطلعة، جميل المظهر...

غير أنه لا يؤكل، ولا يُشرب... فقط، يجمُل للنظر والتصوير...

ولما رأى من العيون الحيرةَ والحسرة، قال لهم:

ما دمنا سنصوّر كلَّ شيءٍ،

وما دمنا نحرص على «السِّلْفي» في كلِّ أمر،

وما دُمنا نريد أن ننشر عبر العالم حركاتنا وسكناتنا،

ظواهرَنا وبواطننا،

أسرارَنا وحرماتنا،

موائدَنا وصحوننا،

ما دمنا نهرب من عالم الحقيقة إلى عالم الوهم،

ما دمنا نحنّط ساعة السعادة، لنعود إليها كالعادة،

ما دمنا لا نلقي بالًا للمشاعر والعواطف، حرِصين على أخذ صورٍ بلا مشاعر ولا عواطف...

ما دامت عقولُنا قد حُفَّت، وأيدينا قد خفَّت، وأفئدتنا وأخلاقنا قد جفَّت...

ما دام كلُّ شيء فينا صارَ وهمًا، وكلُّ موقف منَّا صارَ سهمًا، وكلُّ مناسبة صارت همًّا...

فلنُصارح أنفسنا، ولننتقل من عالم الحقيقة والتحقيق، إلى عوالم الأوهام والأحلام،

ولنعِش بين الصور تمامًا مثل الصور...

ولنترك الحياة الطيبة لذوي القلوب والعقول، ولأصحاب الأخلاق والنُّهى، ممن له منطق مقبول...

أنهي القصَّة هكذا بلا نهاية محدَّدة؛ ذلك أنَّ فيها بعضٌ منَّا، وفينا بعضٌ منها...

كلٌّ يقرأها من زاويته، حسب ما تمليه عليه تجربته...

فإن يكن قد شُفي من داء التصوير والتزوير فهو السعيد المحظوظ،

وإن يكن أبناؤه قد أعِدُّوا كما أعدَّ (عُمار) (فريدًا)، فهو النادر المثال وهو الـ(فريد)...

أمَّا إذا كان ـ لا سمح الله ـ هو أو أهله وذريته، من أهل اللقطات، ومن أصحاب «السِّيلفَاتْ»... فإني لا أملك أن أعظه إذا لم تعِظه القصَّة، ولكن أحذّره وأقول:

«صاحِ، لم تفهم، وتمام العلم أن تفهم أنك لم تفهم»...

وإذا حصل له ذلك، فهو على السكَّة، وهو على الطريق... إن شاء الله...

لم يبق له إلَّا أن يحوّل العلم عملًا، والقناعة فعلًا...

وليبدأ المشوار، عاقدا العزم على تصحيح اعوجاج المسار،

وليقُل إثر ذلك وهو يركب سفينة حياته: «باسم الله مجراها ومرساها، إنَّ ربي لغفور رحيم».

إلّا أموال الناس ... بُني!

(إلى روح العلّامة عمر بومعقل الوارجلاني، في ذكرى ميلاده المائة)[1]

«أن تحفظَ» شيءٌ، و«أن تعلم» شيءٌ آخر...

«أن تعلمَ» شيءٌ، و«أن تعملَ بما تعلمُ» شيءٌ آخر...

«أن تكونَ فقيها» شيءٌ، و«أن تكون فقيهًا ورعًا» شيءٌ آخر...

كيمَا تدَّعيَ أمام الناس أنك «على حقٍّ»، لا يتطلَّب منك إلَّا تزويقُ خُطبٍ وكلماتٍ، أمَّا أن تكون عند الله سبحانه «على الحق المبين»، فذلك يستغرق منك طول العمر براهينَ وبيّناتٍ،

ولقد والله، تبخَّر الدينُ على عتبة الشهواتِ والشبُهات،

ومُحقت بركة العلم، فلم يعد له أثرٌ، بـ«اللاتي واللتيات»[2].

وخفَّ الخلق، فارتفع الحياءُ من العبادِ، وانتفى الاستحياء من ربّ العباد؛ يوم هانت عندنا الآخرةُ، فلم نعُد نحتمل في الله موتًا، ولا نرجو من الله رحمةً، ولا نخاف عند الله عذابًا...

ودليل هذه المقدّمات موازنةٌ بين «رجلٍ» قلَّ من الناس من

(1) ليلة الاثنين 6 شعبان 1441هـ / 30 مارس 2020م. برج البحري.

(2) في أمثال اللغة العربية يقال «بعد اللتيا والتي» أي بعد «الخصام والجدال».

عَرفه باسمه، و«شبهِ رجلٍ» لا تكاد تخطئ العين رسمه[1]:

أمَّا الأوَّل فهو «رجلٌ» والله، ولا نزكّي على الله أحدًا... وهو «رجلٌ» فيما نحسبُ «لو أقسم على الله لأبرَّه»، و«لو استنزل الملائكة من السماء، لأمدَّه الله تعالى بآلاف منها منزَلين ومسوَّمين»...

وأمَّا الثاني فهو «شبهُ رجلٍ»، ليس له من صفات الرجال إلَّا الجسدية منها...وهو فيما نعتقد لو ولج نهرا لتنجَّس، ولو مسَّ جبلًا لترجَّس...

الأوَّل أعرفه باسمه، وأصفه بوسمه؛ أمَّا الثاني ـ أعاذنا الله منه ـ فلا أعرفه باسمه، ولكني فقط «أشمُّه» بنتْن قوله وعفْن فعله؛ ذلك أنَّ الأوَّل «أمّةٌ في واحدٍ»؛ وأنَّ الثاني «غاشي وراشي[2]»...

اسم الأوَّل «عمر بومعقل»، وبما أنَّ الثاني لا اسمَ له، وهو بالعشرات أو بالمئات يعدُّ، فإني أنحت له اسمًا من الأوَّل مقلوبًا، وأقترح عليه، مع شيء من التلاعب بالألفاظ والتحوير للمعاني، اسمَ: «فارغ بومغفل»...

والآن يا من أدركه الصباح، ونام على الأمرِ المباح، إليك قصَّتي...

(1) في الموازنة بين «الرجل» و«شبه الرجل»، قال الأديب الشهيد عمرو خليفة النامي، في قصيدته العصماء «أماه»؛ قال مغرّدًا: «نحن الرجال، وهم يا أمُّ أشباه»...

(2) بالدارجة «الغاشي» أي «الرعاع»، و«الراشي» أي السقيم غير المستقيم، وصاحب الجسم الضعيف والعقل الخفيف.

الحاج عمر بومعقل: أتذكَّر أني زرته مع رفقةٍ طيّبة، ونحن نعِدُّ «معجم الأعلام»، أوائل التسعينيات، ودخلنا صالونه المتواضع جدًّا، ثم جلسنا على حافَّة «مطرحٍ مغطًّى بقماش جميل بسيطٍ»، فأحضر لنا الشاي وكعكًا معه، وقصَّ علينا من سيَر الأعلام ما شاء الله له أن يقصَّ، وهو صاحب «ملاحظات على غصن البان في تاريخ وارجلان، للشيخ إبراهيم أعزام»... وكان تركيزه في قصّه كله على «كمال العلم، وتمام العمل، وجمال الخلق»....

لكنَّ الذي أعلى مقام الحاج عمر في أعيننا، هو دماثة خلقه، وصفاء طويته، ودوام ذكره، وطول فكره...

ثم إنَّه عُرف بين الخاصَّة والعامَّة بتحرّيه للمال الحلال، وفراره من المال الحرام فرار الناس من صاحب الجذام (الكُرونا اليوم)، وخشيته لله سرًّا وعلانيةً، قولًا وفعلًا، حين الإقامة وحين الظعن...

ومما حُكي لنا عنه، وهذا بيت القصيد في مقالنا هذا، ما يلي[1]:

أنه في يوم من أيام الله، ذهبَ إلى السوق بقفَّته ليشتري بعضَ التمر الجافّ، وحين ساوم صاحب الدكان، ودفع مبلغ كيلو أو أكثر؛ وكان بيته بعيدا عن السوق، وهو شيخ في السبعين أو يزيدُ؛ رجع قافلا بخطوات وئيدة، إلى أن بلغ دارَه، وأمدَّ بالقفَّة زوجه...

فلمَّا تسلَّمت منه القفَّة، وأفرغتها من محتواها، لاحظت أنَّ

(1) ذكر أحد المعلّقين على المقال، في صفحتي الخاصَّة، أنه يتذكَّر القصَّة جيدا، ويعرف التاجر الذي حدثت له هذه القصَّة مع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أسفل القفَّة قد لصقَ بها «تُميرات عُجِنت عَجنًا»؛ فأخبرت بذلك زوجَها، فما كان منه إلَّا أن طلب «ورقًا كاغطًا»، ولفَّ «التميْرات فيه»، فعاد إلى السوق توأدةً، وأعادها إلى صاحبها قائلا:

«هذه لك، ولقد التصقت بقفَّتي من أسفل، فتسلَّمها بارك الله فيك»

تعجَّب صاحب الدكان وشدَه، حارَ صاحب الحانوت وارتجف... كيف لشيخِ البلد، وعالِم المدينة، وكبيرِ القوم، ومرجعِ الجميع، وأبِ الصغير والكبير... كيف له أن يعيد لي «تُميرات» حقيراتٍ لا قيمة لها، ثم يُرهق نفسه كلَّ هذا الرهق فيرجعها؟

أمَا كان حريا به أن يعتبرها من «الخطأ الذي يُغتفر»، ومما يسميه العلماء والفقهاء «عفوًا»؟

قال التاجر:

«شيخَنا الكبير، هلَّا أرحت نفسك، والله يغفر لك؟»

أجاب الشيخ الوقور:

«إني والله لا راحةَ لي إذا دخل بيتي مالٌ حرامٌ، وهذا من المال الحرام، أمَا وإني لو لم أرها فإنها عند الله تعالى عَفوٌ، ولكن حين رأيتُها صارت عندي مالًا بغير حقٍّ، وأنت لم تضعها في الميزان، وإنما التصقت بقفَّتي من أسفل بعد الوزن وتمام الوزان... أمَا والله لو تركتُها في بيتي لأحرقتْ جميع مالي، ولو سكتتُ عنها فإنها ستحرق قبري، وستردِيني النار يوم التغابن، ويوم أحاسَب وحدِي... وإنك يومها ستكون شحيحا بها، ضنينا بأجرها، وستطالبُني لأرجعها

لك، ويومها لن يكون لي درهم ولا دينار، ولن أملك لك صرفا ولا عدلا، إلا أن أطرح من حسناتي وآخذ من سيئاتك...».

ثم سكت برهة، وأطرق فقال:

«أليس أسلم لي، دنيًا وآخرةً، أن أصفّي ما بيني وبينك حاضرًا، وأن أنجو بديني وآخرتي، وأكون لعرضي محصنا؟»

هذا عن «الحاج عمر بومعقل»[1]، رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأسكنه فسيح الجنان...

وماذا عن الآخَر؟

هذا عن الأوَّل، وماذا عن الثاني؟

۞ ۞ ۞

أمَّا الثاني، أي «فارغ بومغفل»، فقد درج في مقاعد الدراسة، ثم شبَّ وترجَّل، وشابَ بعضَ الشيب فتعجَّل...

مارس التجارة ومارس الصناعة، تفرَّس في الأحلام وعانق الأوهام... فانتقل من «صفقة إلى صفقة»، من «مقترح إلى مقترح»، من «مشروع إلى مشروع»، من «علامة تجارية إلى أخرى»...

وفي كل مرَّة كان يستدرُّ المالَ من الناس، تحت عنوان

(1) أُنظر ترجمة الحاج عمر بن داود بومعقل في «**معجم أعلام الإباضية**»، رقم: 653، وهو قد توفي عام 1416هـ، 1996م. ولقد ولد عام 1341هـ، بهذا نحن نهدي له هذه الخاطرة في ذكرى ميلاده المائة. وأعتقد أنَّ الواجب على الشباب المثقف في وارجلان بخاصَّة أن يعدُّوا ترجمة وافية شافية عن الشيخ، وينشروها في كتابٍ، يجمع بين الترجمة والعبرة، بمنهج «السِّيَر».

«الاستثمار المربح المدرار»، ويأخذ عنوة مالَ الناس تحت مسمى «صفقة القرن»، وهي بالتعريف: «الصفقة التي تُضاعف حصَّتك من الشركة عشرات المرات، بل مئات المرات...وهذا ما لم يشهده في غناه من سماه رب العزة قارون»...

فجمع المليون إلى المليون، وأردف المئة إلى المئة، ورصَّع المليار بالمليار... حتى بلغ ما حصل عليه نقدًا من الناس، من أفقر الناس إلى أغنى الناس... بلغ ما حصل عليه العشرات من الملايير، أو تزيد...

بلا استحياء، بلا سابق إنذار...

بدا أنَّ المال يمنة ويسرة يُبدَّد، وأنَّ الصفقة ضربٌ من الطلاسم مجرَّد...

بدا أن «صاحبَنا» يستغفل الناس[1]، وأنه ورَّط شركات كبرى، وشركات صغرى، وتجارا وصنَّاعا ومُلاكا ممن قلَّ مَن استغفلهم... وورط شبابا وشابات، وأرامل وأيتاما، ممن يسهل على الواحد أن يستغفلهم...

انتهت القصَّة... وانتهى بطلُها إلى سجن دائمٍ، وحزنٍ قاتم، ومصير دنيوي غير سالم، وخطرٍ أخروي لا بدَّ ـ إن كان ممن لم يتب ـ قادم...

(1) نحن لا نبرئ من استُغفِل، خاصَّة إذا كان ذلك بأرقام كبيرة، أو تكرَّر مرات عديدة، ذلك أنَّ الطمع هو الذي أودى به، والمؤمن لا يلدغ من جحرٍ مرتين.

انتهت القصَّة، ولقد مات صاحبها قبل أعوامٍ، لقي ربه على قدرٍ، ولا ندري هل تاب، أم أنه مات على غير توبة؟

هل ردَّ المظالم وخلَّص نفسه من أموال الناس؟

أم أنه «شبَّكها» (بالعامية) ثم راح إلى الضفة الأخرى غير مغفورٍ له (لا قدَّر الله)؟

نحن لا نتألَّى على الله، والله غفور رحيم؛ غير أننا نذكّر بأمر ـ على بساطته ـ إلَّا أنَّ له الأثر الكبير في زرع الخشية والخوف من أموال الناس في النفوس؛

أمرٍ هو الذي خرَّج لنا أبطالا من مثل «الحاج عمر بومعقل»،

أمرٍ لغيابه تشوَّه لنا رجال فتبطلوا واستهتروا، وفرغوا وأفرغوا... ضاعت عقولهم، وذهبت ريحهم، ورقَّ دينهم، وحقَّ لنا أن نسمي الواحد منهم «فارغ بومغفل»...

نذكّر بفعلٍ بسيطٍ كانت تأتيه أمَّهاتنا، حين يسافر الواحد منا إلى التل؛ ذلك أنها ترافق ابنها إلى عتبة الدار، ثم تدعو الله له، ويكون آخر كلامها له نصيحتان:

الأولى: صلاتك ثم صلاتك... بُني!

الثانية: ... إلَّا أموال الناس... بُني!

ثم تقول له:

«أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه»...[1].

وتفرغ على إثره ماءً فيه بيضٌ مسلوق ملوَّن، قصد الصدقة، وقصد أن يتسابق أطفالُ الحي فيلتقطوها صونًا وحصنًا للمسافر إلى أن يعود[2]...

(1) إذا لم تكن الموازنة بين «الرجل» و«شبه الرجل» درسا لنا وعبرة، - وإذا لم يكن تحذير الله تعالى لنا بقوله: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَاكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ... وَمَنْ يَّفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا﴾ - وإذا لم يكن قول رسول الرحمة ﷺ: «**القليل من أموال الناس يورث النار**»، - وإذا لم يكن قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة**، فقال له رجل: وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله؟ قال: **وإن قضيبا من أراك**» - إذا لم يكن ذلك رادعا للواحد منا أن يتقيَ الله في أموال الناس، فلا مذكر له من بعده... عافانا الله من الغفلة... والسلام.

(2) لا نرى المسارعة في تبديع أفعال الناس حين يكون لها مقاصد مشروعة، ومثل هذا الفعل عَدَّه البعض بدعة، ولقد يكون فيه خطأ في التصوّر وجب تصحيحه، لا تبديعُه...

ملحمة جزائريٍّ...

ملحمة جزائريٍّ قايضَ جميع مالِه مقابل سماع الأذان

(مواساة لمن حين يسمع
«صلُّوا في بيوتكم» تذرف عيناه دمعًا)[1]

إعادة تعريف الجزائري:

الجزائريُّ إنسانٌ بسيطٌ إلى حدّ السذاجة أحيانًا، طيّبٌ إلى حدّ السَّفهِ أحيانًا، مِعطاءٌ إلى حدّ الإسراف أحيانًا،

مِقدامٌ إلى حدّ التهوُّر أحيانًا، غيورٌ إلى حدّ الانتقام أحيانًا...

الجزائريُّ إنسان بكل ما تعنيه كلمة «إنسان»؛

لا يوجد إنسانٌ ولا شعبٌ ولا بلدٌ في العالَم المعاصر ابتُلي أكثر منه ومن شعبه وبلده؛ فهو قد عانى الأمرَّين ولا يزال؛

ولقد والله تنقَّل بين شِقوة وشقاءٍ، بين فتنة وفتونٍ، بين استعمار واستدمارٍ، بين فقر وقفرٍ... ولا يزال...

مثلَ طفلٍ صغيرٍ يحاول رسمَ خطواته الأولى، لكنَّ المظالم ترميه بكلّ ثقلٍ وداءٍ، فتُعيده إلى الأرض ليحبوَ، وتحرمُه من

(1) ليلة السابع من شعبان 1441هـ / 31 مارس 2020م. ومسجدي المجاور أنا، هو جامع السّنَّة، برج البحري، الجزائر العاصمة؛ وأنا بعد نصف ساعة سأسمع نداء السَّحَر منه.

الخطو كي لا ينفلتَ من القيد، ولا يستمرئ الصيد...

هكذا حال الجزائريّ في سنواته الخفاف العجاف...

ومع ذلك، تجده يحمل بين جنبيه أملًا، ويخفي في قرارة نفسه ألمًا؛ ليواصل السير والمسير، وليَغيض العدوَّ الحقير؛ ولا يعنيه بعد ذلك أبَلَغَ النهاية على التحقيق، أم انقطعت أنفاسه على قارعة الطريق... إنما يعنيه شيء واحدٌ وكفى: أن يرفع شأن بلده الجزائر، ويهزم شانئ وطنه الجزائر...

ونغماتُ شيخه المفدَّى لا تزال ترنُّ في أذنيه:

«أتمثَّله متساميًا إلى معالي الحياة،

عربيدَ الشباب في طلبها،

طاغيًا عن القيود العائقة دونها،

جامحًا عن الأعنَّة الكابحة في ميدانها،

متَّقدَ العزمات،

تكاد تحتدم جوانبه من ذكاء القلب، وشهامة الفؤاد، ونشاط الجوارح».

وهذه القصَّة التي أهديها لكلّ مقيمٍ في بيته، في حِجرٍ صحي بسبب الكرونا؛ أو متنقلا بين أسرَّة المرضى يقيس نبضات قلوبهم صونا من الكرونا... هذه القصَّة الواقعية خيرُ دليلٍ وأدلُّ حجَّةٍ؛ وهي أبلغُ عنوان وأفضلُ بيانٍ؛ على ما ذكرتُ من صفاتٍ للجزائري، لو وعى هو ووعى من يَسُوسُه؛ ذلك أنَّ الجزائري لا ينتظر إلَّا

قيادةً رشيدة راشدة:

قيادةً، تُصارحه ولا تكذب عليه؛

قيادةً، تحمّله مسوؤليته ولا تحجر عليه حريته؛

قيادةً، تشاركه الحَرَّ والمرَّ من الأمور، ولا تزوّر له الحقائق حين شدائد الأمور؛

قيادةً، إذا ما انفرجَت لم تستأثر بالخيرات والنعمات، وإذا ما فاض الرزق لم تحرمه من البركات والرحمات...

مجريات الحادثة الواقعية، من تاريخنا المعاصر المجيد؛ في فرنسا عام 1947م، رواها «توفيق الشاوي» في كتابه «مذكرات نصف قرن من العمل الإسلامي»، هي بمثابة قصَّة قصيرة، بل ملحمة كبيرة؛ في حقِّ المهاجرين الجزائريين في فرنسا ... وهي قصَّة دراميةٌ إنسانيةٌ؛ هي ملحمةٌ قمَّة في البطولةِ والشهامةِ؛ ليس المشاهيرُ والأسماءُ الكبرى هم من يقودون زمامَها، ولكنَّهم مواطنون من العمَّال البُسطاء؛ إنهم يرفُضون أن يُكتب التاريخ تحت ظلّ السيوف، أو في بلاط الأمراء؛ أو حتى بين أروقة المشاهير...

وحقَّ لنا أن نعلن في مستهل قصَّتنا أنَّ «التاريخَ ملك للذي يصنعُه؛ وأنَّ الحضارة رهنٌ للذي ينحتُها»...

ومجريات القصَّة كالآتي:

«حين نشبت الحرب في فلسطين عام 1947م، وأوان التحامِ الجيوش العربية مع العصابات الصهيونية، أصدرت هيئةُ الأمم بالتواطؤ مع أمريكا وحلفائها الغربيين، قرارًا بوقف القتال؛ وكان الهدفُ من وقف القتال إعطاء اليهود فرصةً لترتيب شؤونهم، وبرهة لاحتلالِ أكبر قدرٍ ممكن من فلسطين، بإمداد الإنجليز وقتًا كافيًا للضغط على الحكومات العربية، بدفعها إلى الانسحاب...

وأوَّل ما تضمَّنه قرارُ وقف إطلاق النار فرضُ حظرٍ على توريد الأسلحة إلى دول المنطقةِ، ابتداءً من موعدٍ وتاريخٍ محدَّدٍ؛ في ذلك الوقت كانوا على علمٍ أنَّ الدول العربية لم يكن لديها أسلحةٌ كافيةٌ، وسارعت بريطانيا التي كانت المورِّد الرئيس لها إلى وقف شحن الأسلحة للبلاد العربية؛ أمَّا اليهود فقد رتَّبوا لتخزين الأسلحة والحصول عليها بطرقٍ غير رسمية ظاهرًا؛ لأنهم كانوا عصاباتٍ قبل أن يكونوا دولةً معترَفا بها عالميًّا... اليهودُ إذن، لم يتأثروا من الحظر، بل كانوا المستفيدَ منه.

وكان للحكومة اللبنانية علاقةٌ وثيقة بفرنسا، التي باعت لها شحنةً من الأسلحةِ، كانت مُعدَّة لشحنها إلى لبنان؛ وقد اتصل بي (الكلام لتوفيق الشاوي) السفيرُ اللبناني الشيخ «أحمد الداعوق»، وكان من اللبنانيين المسلمين المعروفين، وهو من أسرة مرموقة. وقال:

«إنني أريدك في أمرٍ عاجل جدًّا... أريد مساعدتك في أمرٍ هامٍّ.. هو أنَّ شحنةَ أسلحةٍ اشتريناها من فرنسا، موجودةٌ الآن في الميناء بمرسيليا، ويجب شحنُها قبل اليوم المحدَّد من قِبل

هيئة الأمم، لمنع تزويد الدول العربية بالسلاح. وحكومة فرنسا باعت لنا سلاحا قبل هذا التاريخ؛ ولكنَّ الصهاينة لهم نفوذ في النقابات؛ فحرَّضوا العمَّال على الامتناع عن شحن هذه الأسلحة، وأصدرت النقاباتُ قرارا يُلزم العمَّال بالامتناع عن شحنها. والبضاعةُ ملقاةٌ الآن في ميناء مرسيليا، وليس أمامنا إلَّا ثمان وأربعون ساعة (48) لوضعها في السُّفن؛ فإذا لم يتمَّ الوضع فإنَّ الحكومة الفرنسية ملزمة بأن تستردَّها ولا ترسلها».

- يقول «توفيق الشاوي»: قلت للسفير:

«وماذا تريد أن أفعل؟!»

- السفير «أحمد الداعوق»، قال:

«إنَّ هناك عمَّالا كثيرين من الجزائريين والمغاربة في مرسيليا، وإذا استطعت أن تحضُر معي لأقنِعهم بأنَّ هذه القضية قضية عربية/ إسلامية (هكذا)، وتطلبَ منهم أن يتصدَّوا للنقابات، ويخالفوا قرارها الذي يُلزمهم بالإضراب عن شحن هذه الصناديق، تكونُ قد أدَّيتَ لنا خدمة كبيرةً، ولبنان ستعترف لك بهذا الفضل».

- الشاوي، يقول مسترسلا:

«اتصلتُ فورا بمندوب «حزب الشعب» الجزائري بباريس في ذلك الوقت، وطلبتُ منه أن يتكفَّل بهذه المهمَّة مع السفير، ورحَّب بالأمر، واتَّصل بأصحابه هاتفيًّا في مرسيليا فورًا، وذهب مع السفير بسيارته ليلًا؛ حتى وصلوا إلى مرسيليا في الصباح. وفي الساعة الثامنة صباحًا، قبل أن يفيق أيُّ أحدٍ، كان العمَّال

الجزائريون محتشِدين في الميناء، يحملون الصناديق إلى السفينة، مخالِفين قرار النقابات، متَحَدِّين المسؤولين عن النقابة.

وتصدَّوا لمن أراد أن يعارضهم بالسكاكين والأسلحة الخفيفةِ، وكانوا حاذقين في المواجهات مع مَن يبغي ظلمَهم. وبذلك طَرَدوا من الميناء العمَّالَ الذين كانوا يمثِّلون النقابات ممن أراد تنفيد قرارِ النقابة. وتم الشحن قبل الموعد المحدَّد له».

- وعاد السفير اللبناني إلى باريس سعيدا، وقال لِلشاوي:

«إنني أريد أن أكافئ إخواننا الجزائريين، فماذا تقترح لهذا؟»

- فقلتُ له:

«إنَّ الجزائريين قاموا بهذا العمل البطوليّ، بسبب حماسهم لقضية فلسطين، فالمكافأة التي ينتظرونها هي معاونتكم للفلسطينيين في جهادهم المشروع».

۞ ۞ ۞

ثم يواصل توفيقٌ الشاوي، في سردِ وقائع الملحمة، بتعليق يقول فيه:

«ولكي تعرف (أيها القارئ) الفرقَ بين موقف الأفراد والشعوب، وسياسة بعض الدول، أذكُر أنه بعد هذه الحادثة التي وقف فيها هؤلاء الجزائريون هذا الموقف الرجوليَّ المشهود، حضر إلى غرفتي بالمدينة الجامعية أحدُ العمَّال الجزائريين، وقال لي:

«إنني أعمل في فرنسا منذُ بضع سنوات، وقد سئمتُ الحياة مع هؤلاء الفرنسيين، وفكَّرتُ في أن أبحث عن بلد عربيٍّ أعيش فيه بين المسلمين، وكلُّ ما ادَّخرته من مالٍ دفعته إلى مكتبٍ من مكاتب الأسفار، الذي ينظِّم رحلات الحج إلى الأراضي المقدَّسة، فهل تستطيع أن تجد بلدًا عربيا يسمح لي بالإقامة فيه بعد الحج؛ وأنا على أتم الاستعداد لكي أقوم بأيِّ عملٍ من الأعمال، فقد مارستُ مِهنًا كثيرة، وما زلتُ مستعدًّا لأتعلَّم مهنة أخرى، أو أؤدي أيَّ عمل ممكن، أيَّ عمل شريف يضمن لي لقمة العيش الحلال...»

- يقول توفيق الشاوي، مسترسلا:

«عندها تذكَّرتُ ما قاله السفير اللبنانيُّ عن رغبته في مكافأة الجزائريين، لِما أظهروه من حماسٍ لتحدّي النقابات الفرنسية، التي يتحكَّم فيها الصهاينة؛ تذكَّرتُ ما قدَّمه العمَّال الجزائريُّون الأحرارُ لحكومة بلاده لبنان، من خدمةٍ لا تُنسى، وتوجَّهتُ إليه فورًا، وعرضتُ عليه مطلبَ هذا الشاب، فردَّ عليَّ بالأسفِ الشديد؛ معلّلا ذلك بأنَّ مسألة الإقامة في لبنان ليست في يده، ولا يستطيع أن يساعد فيها، ولكن كلُّ ما يمكنه عملُه هو أن يعطيه خطابًا إلى رئيس شرطة الميناء في بيروت، لكي يسهِّل له التوجُّه إلى سوريا؛ حيث يكون أمامَه فرصة أكبر للإقامة هناك».

- يواصل الشاوي سرد الوقائع الأليمة، متأسّفا حزينا، ويقول:

«أخذتُ الخطاب، وسلَّمته لصديقنا الشابِّ الجزائريّ، الذي وعد بالذهاب إلى مرسيليا، حيث يستقلُّ سفينة تحمله إلى بيروت،

وهناك سيأخذ سفينة تركية للحجاج، قادمة من الأناضول، متَّجهة إلى جدة، وفي العودة بعد الحج سينزل في بيروت، ويذهب إلى سوريا إذا شاء الله تعالى».

- يقول الشاوي راوي القصَّة المثيرة:

«بعد أسبوعين فقط من سفر هذا الصديق، وقبل أن ينتهي موسمُ الحج، فوجئتُ به يدقُّ عليَّ باب الغرفة، ودهشتُ لسرعة عودته، وقال لي:

«إنَّ الحج ضاع عليَّ؛ لأنَّ السفينة التي حملتني من مرسيليا إلى بيروت، مرَّت بالإسكندرية وتوقَّفت في مينائها مدَّة، ولمَّا وصلنا إلى بيروت لم يسمحوا لنا بالنزول إلى اليابسة؛ لأنَّ السفينة التركية التي كنَّا على موعد لركوبها إلى جدة قد غادرت الميناء قبل وصولنا؛ ثم أمرونا بالعودة مع السفينة التي جئنا فيها إلى حيث جئنا، أي إلى مرسيليا».

- قال الشاوي:

«لمَّا سألته: لماذا لم توجّه بالخطاب إلى رئيس الشرطة في ميناء بيروت؟»

- قال الشابُّ الجزائري المحترق الفائر:

«إنَّ البوليس منعنا من النزول إلى الميناء حتى بقصد السياحة والنزهة؛ وذلك لأنَّه كان على متن السفينة جثمانُ الأمير شكيب

أرسلان، وكان يُحيط به عددٌ كبيرٌ من الحرس على متن السفينة، وعددٌ أكبر على الشاطئ ينتظرونه، وإنَّ ضابط الشرطة منع من نزول ركاب الترنزيت، دون سببٍ مفهومٍ، رغم الإلحاح الشديد من الركاب... فضاع منا الحجُّ، وعُدنا إلى مرسيليا في نفس السفينة التي جئنا على متنها».

- قال الشاوي باللفظ الصريح:

«لقد تألَّمتُ كثيرا لمغامرة هذا العامل الجزائري الشابِّ الفحل؛ وما أصابه من إحباطٍ، رغم أنه كان على أملٍ كبيرٍ أن أسهِّل له مشروعَ الاستقرار في بلد عربيٍّ مسلم، وكان عندي أملٌ في أنَّ سفير الدولة ـ التي قدَّم لها هذا العاملُ وأصحابُه خدمةً كبرى ـ من اليسير عليه تذليلُ الصعاب، وتوفير الإمكانية والتأشيرة... وقد بدا لي أنَّ السفير كان صادقا في بحثه عن مكافأةٍ لهؤلاء العمال الأبطال... إلَّا أنَّ التوقُّع كان خلاف الواقع».

- يقول الشاوي، وهنا عقدة الملحمة، وذروة القصَّة، وبيتُ القصيد:

«ولمَّا رآني الشاب وقد أصابني من الألم ما أصابني، قال لي:

«إنني غيرُ نادمٍ على قيامي بهذه الرحلة التي كلَّفتني جميعَ مالي، يكفي أنَّني عندما رَسَت السفينةُ في ميناء الإسكندرية سمعتُ أذان الفجر في السَّحَر، مِن مآذن البلد المسلم، وهذا هو

الشيءُ الوحيدُ الذي استفدتُه من الرحلة؛ لقد كنتُ أمنِّي نفسي بأن أعيش في بلدٍ إسلاميٍّ حرٍّ مستقلٍّ أسمعُ فيه الأذان، بعد أن سئمت المعيشةَ في فرنسا، وما زال عندي أملٌ أن يتمَّ ذلك في يومٍ من الأيام».

- أجابه الشاوي، ناصحًا واعظًا مسليًّا:

«يا أخي، إنَّ الطريق إلى بلاد الإسلام وإلى الإسلام ذاتِه، وإلى الحرية وإلى الاستقلال، يمرُّ عبر ميدان الجهاد ضدَّ الاستعمار في الجزائر؛ وإنَّ هذا المؤذِّن لم يكن يدعوك بـ«حيَّ على الفلاح» للإقامة في بلدٍ معيَّن، ولكنَّه كان يدعوك إلى الجهاد في سبيل الله، وفي سبيل شعبك واستقلال بلادك».

وتنتهي القصة بهذه الخاتمة الملحمية، على لسان الشاوي:

«بقي هذا الشاب يتردَّد عليَّ إلى أن عادَ إلى الجزائر، وعُدتُ إلى مصر، وبعد ذلك علمتُ أنه كان من أوائل الذين استُشهدوا في ميدان الجهاد أثناء الثورة الجزائرية المباركة».

- ثم واصل الشاوي سرده وقال:

«ليس هذا الشهيد إلَّا نموذجا لآلاف المجاهدين من المؤمنين، الذي بذلوا أرواحهم في مقاومة الاحتلال الأجنبي، إنهم كانوا مجاهدين في سبيل الله، مدافعين عن الإسلام، وعن كرامة

المسلمين»[1].اهـ.

إلى هنا تنقطع أنفاسنا عن واقعة من تاريخنا المعاصِر، تتقطَّع لسماعها الأفئدة المخبِتة، وتهتزُّ لسردها القلوبُ الخاشعة الوجلة؛ ولا أملك تعليقًا إلَّا أن أتمثَّلها زهرةً فوَّاحة معطَّرة، جميلة المنظر زاهية الألوان؛ ثم أهديها لكلّ من يسمع من المسجد المجاور النداءَ: «صلوا في بيوتكم، صلوا في بيوتكم»[2].

يسمعه وهو يحنُّ إلى عرصاتِ مسجده، ويشتاقُ إلى محراب مسجده، ويهفو إلى كلّ شيء في مسجده: الميضأة، وأرفف الأحذية، والفرش، والمصاحف، والصف الأول، وحامل المصحف...

ثم لا يلبث أن يطلق زفراتٍ وحسراتٍ، ويقوم ليصلّي مفردا في بيته، استجابةً لأمر ربه، وهو مع ذلك يبكي... ويبكي... ويبكي...

فيغرِق في دموعٍ تكون له جسرا ـ بفضل الله ـ إلى الجنة، وتستحيل دموعُه ـ وعدًا من الله، بعد أمدٍ ـ نهرا في الجنة، وتسيح

(1) القصَّة نشرتها في كتاب «**المخانق والمضايق**»، ولكني حيّنتُها اليومَ، حسب سياق الحَجْر الصّحّي، بسبب وباء الكُرونا، نسأل الله منه العافية والستر، وأن يرفع عنا الغلاء والوباء والفتن، ما ظهر منها وما بطن.

(2) أرجو ممّن قرأ الخاطرة أن يستمعَ إلى هذا الفيديو، من مساجد الجزائر، مؤذن بالعاصمة يبكي وهو ينادي صلوا في بيوتكم.. لأول مرة في الجزائر، الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=yAfcUsKnfso

ـ بحول الله ـ تلكم الدموع الغالية فوق كأسٍ يحمله على يديه، ولقد كان تسلَّمه قبل قليل من بين يدي رسول الله الحبيب ﷺ، من الكوثر، ومن ماءٍ من شربه لا يظمأ بعده أبدًا[1]...

(1) قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾، وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بينما نحن عند النبي ﷺ إذ غفا إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسما فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال: **نزلت عليَّ سورة**، فقرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم، إنا أعطيناك الكوثر إلى آخرها». ثم قال: **أتدرون ما الكوثر؟** قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: **فإنه نهرٌ وعدَنيه ربي عليه خير كثير، وهو حوض تَرِدُ عليه أمتي يوم القيامة**»... **الحديث**. وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «**الكوثر نهر في الجنة، حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج**»... اللهم لا تحرمنا رشفةً منه على يد رسولك الحبيب، يا رب العالمين.

هذا أوان الوصل...

هذا أوان الوصل، لا حظَّ فيه للفصل

(أي الفريقين أحقُّ بالأمن إن كنتم تعلمون؟!)[1]

هذه هديتي الليلةَ للقراء الأعزة، وإني والله متفائلٌ جدًّا، مع وجوبِ الحذر؛ وإني لأرى بوارق الأمل تلوحُ من بعيد، ونورَ الانفراج ينبعث من هنالك، مِن آخر النفق، لمن ألقى البصرَ وهو حديد، أو ألقى السمع وهو شهيد...

انبسطوا وانضبطوا فإنَّ الله رحيم بنا... حليم بنا..

واعلموا أنه لو أغلِقت حدودُ الجزائر لأعوامٍ فإنَّ الله يُطعمنا، الله يَسقينا، الله يَشفينا، الله معنا، الله ربُّنا...

ونحن نجتهد في اتخاذ الأسباب ثقةً في الله تعالى، وتوكُّلا على الله جَلَّجَلَالُهُ...

ولقد كان «السفهاءُ من الناس» من قبلُ يهدّدوننا أنه إذا أغلِقت حدودُ الجزائر لأسبوعٍ فإننا سنجوع، وسنموت...

كذَبوا وربِّ الكعبة...

(1) ليلة الثامن من شعبان 1441هـ / غرة أفريل 2020م. ولقد كان الناس في فاتح أفريل يتعلَّقون بـ«سمكة أفريل»، ويذهبون في ذلك مذاهب شتى؛ ولقد أنساهم وباء الكُرونا هذه العادة غير الحميدة، لعلَّ زمن الجِدّ قد حلَّ، وطوبى لنا الابتلاء إذا كان يرشّح نفوسَنا للمعالي...

ولا تعارض في ملَّتنا ومعتقدنا بين التوكُّل على الله، والائتمار بأوامر الله: فهذا أوان الوصلِ، لا حظَّ فيه للفصل...

ولنتيقَّن أنَّ الأسبابَ يدُ الله في قدَره، فليس من الإيمان في شيء أن نردَّ يده ونطلب ذاته سبحانه؛

وهذا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ جمع بين الأسباب «وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت» والتوجُّه إلى ربّ الأسباب بالدعاء «ربَّنا تقبل منَّا إنَّك أنت السميع العليم، ربَّنا واجعلنا مسلميْن لك...» الآية.

ولو أنَّ أحدا كان حريًّا به أن تُرفع عنه الأسباب لكان خير الخلق محمدا ﷺ؛ غير أنَّ الله تعالى كلَّفه باتخاذ الأسباب في كلّ شيء، ولم ترتفع عنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلَّا في مناسباتٍ معدودة، كانت تلك معجزةً من المعجزات، من مثل الإسراء والمعراج؛ أمَّا فيما سوى ذلك فقد عمِل بيده، وأسال عرَق جبينه، وهاجَر في ظروف صعبة، واختفى في الغار مع أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ جامعًا بين السبب والدعاء ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾...

إنما فسُد العالَم اليوم وأضاع البوصلةَ؛ أنَّه انشطر بين قومٍ أتوا الأسباب المادية القريبة، وأعرضوا عن ربّ الأسباب وكفروا به؛ وقومٍ آخرين عبدوا ربَّ الأسباب وآمنوا به، ولكنهم فرَّطوا في الأسباب المباشرة وأضاعوها...

ولن يستقيم للبشرية أمرٌ إلَّا إذا انتقلت من مقام الفصل إلى مقام الوصل...

من مقام المنع إلى مقام الجمع...

من مقام «هذا أو ذاك» إلى مقام «هذا وذاك»...

لا تعارُض ولا تناقُض، لا تنافُر ولا تدابر، إلَّا في أوهام الناس...

أمَّا في درجات حقيقة الحقيقة، وعند سماوات حقّ الحقّ، فإنَّ بسْطك اليدَ إلى الماء لتشرب سببٌ، وقولَك «بسم الله» تعلُّق بربّ الأسباب؛

وإنَّ ممارستك للعلم سببٌ، وقراءتك «باسم الله»، «كما أمر الله»، «لوجه الله»... طاعة لربّ الأسباب...

ولقد أمرك ربُّك وأمرني، وأمر محمدا ﷺ من قَبلنا، وأمر خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في الصالحين، وأمر الصغير والكبير، والجاهل والعالِم النحرير.. أمر الجميع بقوله جَلَّ جَلَالُهُ، في أول ما أنزل على نبيه محمد علا عند الله شأنُه:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١
خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢
ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣
ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤
عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾...

وحين يتمكَّن الطغيان في قلب إنسانٍ، تجده مُعرضا عن ربّ الأسباب، متعلّقا بالأسبابِ؛ واجما حيال الحقِّ، واهما أنه هوَ على الحقُّ، ولذا قال تعالى عنه: ﴿كَلَّآ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰٓ (6) أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَىٰٓ﴾...

شفاءُ أسقام الفصل، ودواءُ أمراض العضل، يكمن في الإيمان بالغيبِ، والإيمانِ بالآخرة، واليقين بحقيقة ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾، و﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾... ولذلك كان أبلغُ وصف للمؤمنين أنهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾، ثم تأتي علامة ذلك وبرهانه أنهم ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ...﴾.

ما أحوجنا اليومَ إلى رجال كُمَّل، وإلى نساء جُمَّل[1]...

وإلى شباب وشابات قُوَّل وفُعَّل...

ما أحوجنا إلى هممٍ عليَّة، وإلى نفوس أبيَّة؛

ما أحوجنا إلى عقولٍ حريَّة، وإلى قلوبٍ سَنيَّة، وإلى سواعد سخيَّة...

فوالله ثم والله، وتالله ثم تالله... إني لأرى الفجر الصادق «قابَ قوسين أو أَدنى»، وإني أبصر النصر المبين على بُعد فرسخين؛ شريطة أن نصبر ونثبت «على الحقّ المبين»، ونتوجه بجميعِنا (بقلوبنا، وعقولنا، وجوارحنا، وأرواحنا، وأذواقنا...) إلى ربّ العالَمين، مردّدين نداء الخالدين، ثابتين على ما جاء عن خليل الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79) وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَآجُّونِي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّآ أَنْ يَّشَآءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا اَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ

(1) يقال في وصف الرجل أو المرأة جمُل فلان أو فلانة، إذا حسن خُلُقه.

بِالاَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الاَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[الأنعام: 79- 82].

رسالة سلام وأمان

رسالة سلام وأمان، رسالة استدعاء واستنفار

(لإخواننا المهاجرين الجزائريين ... عبر عوالم الزمان والمكان)[1]

الهجرة حركةٌ خلال الزمان، وحركةٌ عبر المكان؛

الهجرة حركةٌ تمارسها الكثير من الطيور والأسماك، والحشرات والحيوان... بانتظام بالغٍ، وبلا مَلال ولا كَلال.

أمَّا الإنسان فهو مهاجرٌ بالفطرة، مسافرٌ بالخِلقة؛ وإقامته في مكانٍ واحدٍ دون انتقالٍ هو استثناءٌ عن القاعدة، وشرود عن أصل الوجود.

أوَّل هجرةٍ في التاريخ كانت لمسافاتٍ كبيرة جدًّا، وكانت مرهقةً وشديدةً ومتعبةً جدًّا؛ ذلك أنَّ صاحبها (بل صاحباها) كانا في نعيمٍ مقيمٍ، وفي جناتٍ وعيونٍ، وزروعٍ وظلالٍ؛ ثم تسارعت الأحداث، فجاءَ الأمر من الربِّ الحكيم: «اهبطا منها جميعًا»! وفي آية أخرى: «اهبطوا منها جميعًا»!.

ولسائل أن يَسأل: ألم يكن أبونا آدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وزوجُه حواء عليها السلام؛ ألم يكونا اثنين لا ثالثَ معهما؛ فلِم إذن جاءَ الأمر بالجمع لا بالتثنية؟

(1) سَحَر الخميس 9 شعبان 1441هـ / سَحَر الخميس 2 أفريل 2020م.

الجوابُ واضحٌ وصريحٌ من سياق الآياتِ، وهو أنَّ الشيطان كذلك جاءه الأمرُ بالهبوط إلى الأرض، بعد أن كان مع الملائكة في المقام العُلويِّ؛ وهذا في فلسفة المعنى دليلٌ على أنَّ الذين هاجروا من الجنة إلى الأرض هم:

- آدم وزوجُه، وذريتهما من صلبهما، إلى يوم القيامة؛
- الشيطان وذريته مِن بعده، إلى يوم يُبعثون؛
- الجنُّ ومن على صورتهم من العفاريت، إلى يوم الدين؛

أمَّا الملائكةُ فلم يهاجروا مكانًا، غير أنهم يهاجرون زمانًا بلا حدٍّ ولا سدٍّ، ولا حاجزَ ولا حائل، وهم في مهامّهم التي فطرهم الله تعالى عليها: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (26) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: 26-27].

وأمَّا ما سوى ذلك، مما ليس مكلَّفا، من الجماد، والشجر، والحيوانات جميعها (البرية والبحرية والجوية)؛ وكذا ما دقَّ في الصغر (من مثل الحشرات والمكروبات)، وما جلَّ في الكبر (من الأفلاك والمجرات والسماوات)؛ جميعُ ذلك خلَقه الله تعالى «خادمًا» لبني البشر، ممن من الجنَّةِ هاجَر؛ ولا علمَ لنا بحقيقة الأكوان التي ترتع فيها الجنُّ، أمرها عند ربي لو تعلمون...

ثم حين وضَع الإنسانُ رِجله على متن الأرض، من يومها، لم يهنأ له بالٌ، ولم يستقرَّ له حالٌ؛ فهو أبدًا في سفرٍ، ودوما في هجرةٍ؛ وعنوان ذلك:

- سفرُ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد الطوفان على متن سفينته،

- وسفرُ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ عبر البحار والمحيطات وهو في بطن الحوت،

- وسفرُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من مصر هروبا من طغيان فرعون،

وغيرهم كثير...

إلى أن جاء خيرُ الأنام، وسيُّد البشرية أحمدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فبدأ حياته مسافرا في تجارةٍ، ثم أنهاها مهاجرا في مهمَّة ربانية علوية مقدَّسة...

ثم حُبكت قصَّة أكبرِ هجرةٍ قدَرا، وأعظمها شأنا، في تاريخ العالم أجمع؛ تلك التي قال عنها ربُّ الجلال: ﴿أَلَمْ تَكُنَ اَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٍ فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾[النساء: 79]؛ وقال سبحانه عن أبطالها فداهم روحي: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[الحشر: 8]...

وجاء الفتح، فاستقرَّ الناسُ في مكَّة والمدينة، غير أنهم كانوا دائمي الحركة عبر العالم، حتى بلغ الإسلامُ أداني الدنيا وأقاصيها في أعوام قليلة؛ بلغ المغرب والمشرق؛ بلغ القطبَ الشمالي الآهل، وقريبا من القطب الجنوبي هنالك في أدغال إفريقيا... وكان الفضلُ في ذلك للمهاجرين المجاهدين، الذين لم يخلدوا إلى الأرض، ولم يتبعوا هواهم، ولم يركنوا إلى الراحة والمتعة، والسرف والتبذير...

وكان الناس على ذلك لقرونٍ، إلى أن حدث في العالم حدثان غيّرا وجه التاريخ:

أولهما ـ الاستعمارُ، والذهنية الكولونية، التي أحرقت الأخضر واليابس في العالم؛

ثانيهما ـ الدولة الحديثة، التي قسَّمت الأرض «سجونًا صغيرة»، و«علبَ كبريتٍ حقيرة» سمَّتها «دولا، وبلدانا، وأوطانا...»؛ ثم فصلتها بحواجز حقيقية وأخرى وهمية، سمتها «حدودا»، و«لوائح وقوانين دولية»...

ومع ذلك، ورغمًا عن أولئك؛ استمرَّت الهجرةُ بكلّ السبلِ والوسائل؛ واليومَ أعظمُ حركةٍ يعرفها التاريخ، هجرةٌ من الجنوب إلى الشمال؛ بحثا عن لقمة العيش، أو هروبا من فتنٍ وحروب، أو استدراجا للخدمة العمومية في أمم بلغت من الترف والكبرياء حدا لا يطاق...

لكن، بدا لي، والملاحظةُ تنتظر التحقيقَ والتدقيقَ؛ أنَّ سهم الهجرة بعد «الكُرونا» إذا لم يتغيَّر كلية، إلَّا أنه سيهتزُّ ويتحوَّل يُمنةً أو يُسرةً؛ ذلك أنَّ للهجرةِ أسبابًا ودواعي، كثيرٌ منها سقط مثل أوراق الخريف قبل أسابيع، والجائحة تجتاح العالَم أجمع...

وفي خضمّ ذلك، لنا نحن الجزائريين بخاصَّة، خاصيَّة السفر والتنقُّل، ولولا أنهم حشرونا في سجنٍ، وضيَّقوا علينا الخناق بأحكامٍ للتأشيرة جائرة، لكان كلُّ جزائريٍّ مهاجرًا بمعنى أو بآخر؛ لزمنٍ قصير أو لوقت طويلٍ؛ ولقد عرف العدوُّ هذه الخاصية فينا قبل الصديق، وعلمتها الدوائر العالمية حين جهلتها الإدارات المحليَّة...

الجزائر ليست أرضًا ولا سماء، ليست شجرا ولا ماء؛ ولا

قفرًا يبابا، ولا سهلا وجنات ألفافا...

الجزائر بشرٌ، إنسٌ، لحم ودمٌ، قلبٌ وعقل وروح، معنى وتاريخ، حضارة وفكرة...

الجزائر اليومَ، تقف على عتبات التاريخ، لتلج مصافَّ الكبار بلا استئذان، ولكنها لن تقدر على ذلك إلَّا إذا تحقق ما يشبه «المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين»؛ بين المسافرين خارج الوطن والمقيمين...

لهذا البعد، ومن هذا الأفق، ألقي هذا النداء الأزلي الأبدي، مستدعيا مستنفرا، وليس لي في ذلك من مقصد سوى أن نكون، وإذا كنا نحسن كيف نكون، وإذا أحسننا بلغنا المقامات العُلى بهذا الوطن العزيز علينا (الجزائر)...

ولا بدَّ لنا أن نقرر في آخر مقالنا أنَّ منعرجات التاريخ تحمل بين طياتها الكثير من التهديدات والمخاطر، ولكنَّها في ذات الوقت ترشُح بالكثير من الفرص والمآثر.

ومن أوكد التغيرات التي ترافق الانعراج سقوطُ مفاهيمَ وقيامُ مفاهيم جديدة أخرى،

و«انتهاء صلاحية» قناعاتٍ؛ لتحلَّ محلَّها قناعاتٌ تترى،

أمَّا «زبدُ الحياة» فأوَّلُ ما يتبخَّر،

وأمَّا «ماء الحياة» فيمكث في الأرض،

ويُنقِذ من على ظهر الأرض،

ثم يستعيد مكانه بين «قيم» الأرض...

ثم يستمرُّ سفر الإنسان، وتستمرُّ هجرتُه الأبدية، من الأرض إلى عالَم آخر يحنُّ إليه ولقد نزل يومًا ما منه؛ إلى هنالك في الجنَّة «عند سدرة المنتهى» ولقد هاجر إليها يوما ما رسولُ الرحمة تحقيقًا وعيانًا، يكفي فقط أن ينوي الإنسان «نية وهجرة»؛ وأن يضع رجله في أوَّل السكَّة، ثم البقية على الله سبحانه، وهو القائل وعدا لنا صادقا: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

ثم يستقرُّ هذا الإنسان هنالك إلى الأبد، إمَّا في شقاءٍ مُقيم، أو في جنات ونعيم؛ سائلين الله أن يحشرنا مع المحسنين، المتقين، المؤمنين، الموقنين، المهاجرين...

آمين، آمين، آمين...

مناجاة الحَجْر الصحي...

مناجاة الحَجْر الصحي... وقت السحَر[1]

بسم الله الذي انفرد في الوجود حكمُه، وعزَّ بين العباد ذكْره، وعطَّر القلبَ حمدُه، فذكَّى اللسانَ شكْرُه، وارتفع إلى السماء برُّه...

سبحانه وهو القائل جلَّ في علاه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾...

غُفرانك ربي قلت وقولك الحقُّ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (62) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

رُحماك ربي، وقد ختمتَ الآيتين بتهديدٍ ووعيدٍ، وأمرٍ ونهيٍ: فقلتَ في الأولى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾، وقلت في الثانية: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾.

لا إله إلَّا أنت ربي؛ بلغَ مكرُنا السيئاتِ عنانَ السماءِ، ثم اتخذنا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ولم يزل ذلك يا

(1) سَحَر الجمعة، والجمعة عيد: التاسع من شعبان 1441هـ / الثالث من أفريل 2020م. الحميز، الجزائر العاصمة.

للحسرةِ ديدنُنا؛ فأمهلتَنا ورحِمتنا، وسترتنا فلم تفضحنا؛ ثم لم تعجّل لنا بالهلاك والبوار، ولم تطرُدنا من باب رحمتك يا جبَّار؛ وكان أصدقُ وصفٍ لنا يا قهَّار قولُك المزلزِل للنفوس، وأنت بفضلك نهيتنا أن نكون من عبادك اليُؤوس؛ فقلت فينا يا حكيم، وقلت لنا يا حليم، وقلت عنا يا سميع يا عليم: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

إلهي، كلَّما أخرسَتني غفلتي أنطقني فضلُك وكرمُك،

إلهي، كلمَّا أيأستني ذنوبي أطمعني جودُك ومِنَّتك..

● ربِّ كم من نعمة أنعمتَ بها عليَّ، قَلّ لك عندها شُكري، وكم من بلية ابتليتني بها، قَلّ لها عندك صبري،

فيا من قَلّ عند نعمته شكري فلم يحرمني، ويا من قَلّ عند بليَّته صبري فلم يخذُلني، ويا من رآني على المعاصي فلم يفضحني...

يا ذا المنِّ والفضل عافِني، ويا ذا الكرم والجود اشفِني، ويا رحيمًا بعباده أطعمني، ويا عطوفا بخلقه اسقِني، ويا عزيزا لا تكِلني طرفةَ عينٍ إلى أحدٍ من خلقك ولا إلى نفسي...

ويا من تُريد وأريدُ، ولا يكون إلَّا ما تريد؛ وتشاء وأشاء، ولا ينفُذ إلَّا ما تشاءُ؛ هرعتُ إلى بابك أوانَ الجائحة والوباء، وقد قلَّت حيالهما حيلةُ البشر، وعجزت عن تطبيبهما فهومُ البشر، فوجم المؤمن والكافر، وحار في أمر «الكُرونا» المنافقُ السافر، والمشرك والملحد والجائر...

● يا ذا الجلال والإكرام، لم يبق لبني البشر إلَّا ربٌّ رحيم

يجأرون إلى جَنابه، وإله كريمٌ يأوون خاشعين نادمين إلى بابه، ولقد انقطعت بالإنسان السبل، ولكم ردَّد قولة فرعون ولم يقرأ العواقب: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾، ولكم اغترَّ بنفسه وعِلمِه ورأيه، فرفع عقيرته وتفرعن فقال: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾.

واليومَ، ربَّنا وقد حلَّت الجائحةُ بالعالَم أجمع، اليومَ سقطَت الأوهام، وتبخَّرت الأحلام، فجفَّت الأقلام، وارتجفت الأقدام؛ وعلم الكلُّ أنَّ فرعون وذريته لم يبق لهم حظٌّ في الدنيا، وأنهم أدعياء أغبياء، سفهاء جبناء، ظالمون غافلون، مغرورون مدَّعون...

● يا الله يا رحيم يا رحمن؛ لم نسجُن قلوبنا عن الشهوات، ولم نحبِس عقولنا عن الشُّبهات، ولم نحمل أنفسنا على الطاعات والمبرَّات؛ فأرغمنا جنديٌّ من جندك الطيِّعين أن نسجن أنفسنا في ديارنا، ونحبس أهلينا بين جدران بيوتنا؛

يا ربّ يا كريم يا منَّان؛ وعَينا الدرسَ، وحفظنا العبرة، ونفعتنا الذكرى؛ فتُب علينا توبةً تغمُر طائعنا وعاصينا، واشف من الوباء أدانينا وأقاصينا، وطهّر من الخبائث قلوبنا وأجسادنا، وأرجلَنا وأيدينا؛ واكتُب لنا فرجًا قريبًا، وشفاءً عاجلًا، وأوبة إليك دائمةً، وحوبة إلى جوارك دائبةً...

يا الله، يا الله، يا الله... عظُم في قلوبنا رسولُك، وجلَّ في أفئدتنا بيتك،

أحببناهما واشتقنا إلى لقياهما، ولقد حُرمنا زورة إلى بيتك المكرَّم، وصلاةً في روضة المصطفى في رمضان ومحرَّم؛ ولكَم

تغافلنا عن أذان إبراهيم بالحج، ولكم تناسينا قول المصطفى: «**حُجُّوا قبل أن لا تحُجُّوا**»؛ وها نحن نسمع النداء ولا نقدر أن نلبي النداء، ونعي معنى الحديث ولا نقدر أن نمتثل لأمر الحديث...

يا ربَّ المساجدِ والجوامع؛ ويا من قلت ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾، ويا من اصطفيت لبيوتك رجالا ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾، ويا من اخترت لمساجدك رجالا ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾، ويا من جعلت الإيمان شرطا في عمارة بيوتك، فقلت: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾...

يا الله، كنا نسمع النداء ولا نريدُ أن نجيب؛ وها اليوم نسمع النداء ولا نقدر أن نجيب... يا ربِّ آلمنا «صلُّوا في بيوتكم»، وهفَتْ أرواحنا إلى عرصات مساجدِ حيّنا، وإلى المصلين المخبِتين، وإلى الأئمة المهتدين، والمؤذّنين المكرَّمين؛ وإلى كلِّ شيء في بيوتك... حتى الحصائر، والسجاجيد، والمصاحف، والساعات، و«الرياشات»، وأرفف الأحذية... كلُّ شيء في دورك يا ربّ ينادينا، ويدعونا، وعند ذكره تتفطَّر أفئدتنا حسرةً، وتدمي قلوبنا أسًى، وتسيح عيوننا دمعًا...

فاكتب لنا يا الله أوبة وحوبة إلى مساجدنا، وارفع بها قدرنا، وارفع بنا شأنَها؛ واجعلها معراجا لنا إلى رضاك، وسببا لنوال حماك... يا ذا المن والإكرام...

● يا رحيم يا رحمن، آباؤنا وأمَّهاتنا، أرحامنا وجيراننا، وأطفال حيّنا، وتجَّار سُوقنا، ومعلّمونا، وأصدقاؤنا... جميعُهم باتوا في منأًى عنَّا؛ ولقد يا ربّ عظُم شوقُنا إليهم، فاغفِر لنا

ما قصَّرنا في حقّهم، وامحُ عنَّا ما فرَّطنا في وصلهم؛ واكتُب لنا عِناقًا وصُحبةً، ومصافحةً وابتسامةً، وعفوًا وسكينةً...

يا الله يا الله...

● يا ربَّ الأرباب، يا مسبّب الأسباب، دعاك عبدُك محمدٌ ﷺ فأجبت دعاه، قال ونقول على إثره:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوَّتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، أرحمَ الراحمين، أنت أرحمُ الراحمين، إلى من تكِلُني، إلى عدوٍّ يتجهَّمُني، أو إلى قريب ملَّكته أمري... إن لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسعُ لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلُح عليه أمرُ الدنيا والآخرة، أن تُنزل بي غضبَك، أو تحلَّ عليَّ سخطك، لك العُتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلَّا بك»...

«لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوَّة إلا بك»،

«لك العتبى حتى ترضى...».

۞ ۞ ۞

يا إلهنا وإلهَ الخلق أجمعين، يا ربنا وربَّ الأولين والآخرين؛ سمعنا قولَك ولا نزال، ولن نزال، حائرين:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (132) إِنْ يَّشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾،

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾،

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (28) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾.

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾،

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ...﴾»،

كفى بالله وكيلا،

وكان الله على كلّ شيء قديرا،

أرحمَ الرحمن استجب لنا،

كاشفَ الضرّ اكشف عنَّا ضرًّا مسَّنا؛

يا حفيظ آتنا أهلَنا ومثلهم معهم، رحمةً منك وذكرى،

واكتبنا مع العابدين...

آمين... آمين... آمين... والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير المرسلين، وسيد الداعين والخاشعين، محمد ﷺ تسليما كثيرا، والله أكبر، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العلي العظيم.

من جدار برلين إلى أذان برلين

من جدار برلين إلى أذان برلين

(تحية إجلال إلى مراد هوفمان، وهو يبتسم من قبره)[1]

لم أتمالك وأنا أشاهِد وأسمع الأذان يرتفع فوق سماء برلين، وقت صلاة الجمعة المنصرم[2]:

«الله أكبر... الله أكبر...أشهد أن لا إله إلا الله... أشهد أنَّ محمدا رسول الله... حي على الصلاة... حي على الفلاح... الله أكبر... الله أكبر... لا إله إلا الله».

اهتزَّ قلبي طربًا، ذرفتْ عيناي دمعًا؛ ولقد تيقَّنت أني أعيش لحظةً، حدثًا، مناسبةً، واقعةً من التاريخ... قلَّ لها نظيرٌ، وأنَّ انتظارها بعُد وطال، وأنَّ الحنوَّ إليها كان شديدَ المحال؛

لم أتمالك، حتى أرسلتُ الحمد يسابق الزمان، وصدحت بمعاني الشكر آنا بعد آن...

لم أتمالك، وأنا أعود بالذاكرة إلى سنواتٍ عجافٍ خفافٍ[3]،

(1) الاثنين 13 شعبان 1441هـ / 6 أفريل 2020م. برج البحري، الجزائر العاصمة.

(2) للتاريخ كان يوم الجمعة، يوم ارتفاع الأذان هو: التاسع من شعبان 1441هـ / الثالث من أفريل 2020م. ولقد ارتفع صوت الأذان لأول مرة، في هذا اليوم المشهود، في كثير من المدن الأوروبية، ولله الحمد.

(3) يقال خفيف اليد لمن كان ماهرا في السرقة لصًّا، ويقال خفيفَ العقل للأحمق والطائش؛ وفي خفَّة الزمن بعضُ من هذه المعاني.

سنوات للجمرِ ولكلٍّ بلبالٍ[1] من الأمر... ولقد كانت «صورٌ إدراكية» لا أعادها الله تعالى، هي التي تصنع المشهد العالمي، فلا تنفكُّ قناةٌ، ولا جريدةٌ، ولا مؤتمرٌ... من عرض مشاهد «للإسلام المخيف»، و«الإرهابي المقيت»، و«القنابل الحقيقة والمصطَنعة هنا في برلين وهنالك في باريس، وبروكسل، ومدريد، ونيويورك...».

تدافعت الصور إلى خيالي مستعرضةً شريط التاريخ القريب والبعيد؛ من يومِ صعد بلالٌ بن رباح (أفديه بروحي وأبي وأمي) فوق سطح الكعبة، وأذَّن فبكى وأبكى... وقالت بعض أهل مكَّة يومها: «أما وجد محمَّد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا؟»، ثم كان رسول الله ﷺ يردّد دائما: «**أرحنا بها يا بلال**» حتى غدت مثلًا؛ ثم بشَّر نبيُّ الله مؤذن الإسلام بالجنة فقال: «**فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة**»[2].

ثم رأيتُ فيما رأيتُ صلاحَ الدين الأيوبي، وهو بين يدي «المسجد الأقصى» يرفع التكبير يتلوه التكبير؛ ويأمر مؤذّنه بأن يصدح بالأذان في أولى القبلتين، والناسُ من حوله يبكون ويُبكون... يحمدون ويشكرون...

ثم أُريتُ محمدا الفاتحَ وهو على صهوةِ حصانه الأشهب؛ ولقد اقتحم صور المدينة العتيد، ودكَّ قلاع الكفر والشرك العنيد؛ وهو

(1) البلبال: أشدَّ الهم والحزن والوسواس.

(2) وفي رواية لمسلم قال رسول الله ﷺ: «**أُريتُ الجنة فرأيتُ امرأة أبي طلحة، ثم سمعت خشخشةً أمامي فإذا بلال**».

في ذلك يصدّق حديث رسول الله ﷺ: «**لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش**»[1]؛ ثم يأمر بتحويل «آيا صوفيا» إلى مسجدٍ، ويأذن لمؤذّنه أن يهزَّ أركان «مدينة الإسلام» بـ«الله أكبر»، فتبقى على الإسلام إلى يوم يبعثون...

۞ ۞ ۞

مراد هوفمان:

قبل شهرين ونصف بالتمام والكمال، انتقل إلى جوار ربه، العالم المسلم «مراد هوفمان»، وهو الذي شغلَ أعلى المراتب في الدبلوماسية الألمانية عبر العالم، وكان سفيرا في الجزائر؛ ولقد أسلم وحسُن إسلامُه، وأعاد الفضل في ذلك إلى شابّ جزائري أنقذ روح امرأته في أحلك الأوقات، يوم كان الموتُ يحصد أرواح الآلاف من الجزائريين على يد «المنظمة السرية الخاصَّة» قبيل الاستقلال؛ وقال يومها:

«ها هو ذا العربيُّ المسلم يتبرَّع بدمه، في أتون الحربِ، ليُنقذ أجنبيةً على غير دينه».

ثم قال:

«لكي أعرف كيفَ يفكّر ويتصرَّف هؤلاء السكَّان الأصليون المثيرون للدهشة، بدأتُ أقرأ كتابهم «القرآن» في ترجمته

(1) حديث «**لتفتحن القسطنطينية**...» صححه الحاكم والذهبي، ولا اعتبار لتضعيف غيرهما.

الفرنسية... ولم أتوقَّف عن قراءته منذ ذلك الحين، حتى الآن».

كتَب وألَّف «الإسلام كبديل»، و«الإسلام في الألفية الثالثة، ديانة في صعود»، ثم اشتكى من بطش العدو ووهن الصديق فألَّف كتابه «خواء الذات والعقول المستعمَرة».

غير أنَّ الكثير ممن يُنسب إلى العلم زورا، وممن يحسب على الفكر فجورا، وممن أَلِف التطبيل والتصفيق لكل ما هو غربيٌّ شماليٌّ، وممن عادته التحقير والإذلال لكل ما هو شرقيٌّ جنوبيٌّ... الكثيرُ من هؤلاء كان واقفا في الطابور الخاطئ، وهو يهزأ من هوفمان وأمثاله، ويعلنها صريحة: «إنه يعيش في خيال»؛ ولقد كان هوفمان صريحا واضحا في الرد على هؤلاء يوم قال:

«سوف تتمتَّع الدول الإسلامية بالحرية الحقيقية، فقط عندما يتمكَّن قادة الفكر لديها من فكّ رقابهم من الانبهار غير القابل للنقد بكلّ شيء غربيٍّ، وأن يعودوا للاغتراف من المصادر الثرية للثقافة الإسلامية الخاصة بهم».

ثم أعلنها بحرقة لا نظير لها أنَّ الواجب قد تعيَّن على كلّ مسلم غيور، فقال:

«ولقد حان الوقت لفعل ذلك».

انتقل العالم الرباني، الصادح الصادق، إلى جوار ربه[1]، ولم يُكتب له أن يبصر هذا الفجر الجديد، وأن يشهد بعض ما كان

(1) نشرتُ مقالا بمناسبة وفاة العلامة مراد هوفمان، بعنوان: «**شرارةُ الإيمان: الجزائر وقصة إسلام مراد هوفمان**».

يتمنَّاه ويعمل لأجله لعهد طويلٍ؛ مات والأذان يعلو فوق سماء برلين؛ ولا ريب أنَّ رحمات الله تغمره، وهو يبتسم من قبره، وأنَّ الملائكة تزف إليه البشرى وهو إلى جوار ربه...

«الله أكبر... الله أكبر... لا إله إلا الله»

برلين:

تشكَّلت برلين وأسِّست حوالي 1278م / 676هـ، ولقد أصبحت عاصمة لبروسيا عام 1871م؛ وحين انقسم العالم إلى شرق وغربٍ، انقسمت برلين إلى شطرين، وبني جدار برلين عام 1961م؛ ثم بقيت على ذلك إلى أن سقط جدار برلين يوم التاسع من نوفمبر 1989م؛ فكان ذلك إعلان عصرٍ جديد، وتشكُّل صورة مختلفة في العالم، انتقلت يومها من عالم ثنائي الأقطاب، إلى عالم أُحادي القطب... واستمرَّ ذلك إلى حين...

وها اليوم تعيش برلين، ونحن على إثرها، أعظم حدث في تاريخها الحديث، بعد سقوطِ الجدار، حدثِ سقوط الوهم من النفوس، واندحار الصورة القاتمة التي شكَّلها الساسة والإعلاميُّون عن الإسلام والمسلمين...

برلين التي يربو عدد سكانها على الأربعة ملايين، بلغت نسبة المسلمين فيها حوالي العشرة في المائة، ولقد ذكرت المصادر «أنَّ تعداد مسلمي العاصمة الألمانية سجل نموا كبيرا، بسبب

معدلات المواليد المرتفعة لدى هذه الفئة، واستقبال برلين عددا كبيرا من اللاجئين الذين توافدوا على ألمانيا في الأعوام الماضية».

أغلب مسلمي برلين من الأتراك، أمَّا الوافدون الجدد فهم من سورية أساسًا، ومن دول أخرى، جاؤوا في إطار حملات الهجرة والتهجير، التي نظمتها أوروبا، وألمانيا، و«مركل» على رأسهما؛ للحاجة الماسَّة إلى اليدِ العاملة؛ ولم يكن يعنيهم يومها، أن تشتعل الحروب، وأن يموت الملايين من البشر...

المهمُّ والأهم أن لا تتوقف عجلة الاقتصاد، حتى ولو مرَّت على أرواح البشر...

ها هي اليوم برلين، لا بفعل بشرٍ، ولكن بقدرة القادر ربّ البشر؛ يرتفع فيها الأذان، من جامع اختار الله تعالى له اسم «مسجد دار السلام»؛ ويكون في الوباء (الكُرونا) للعالَم نعمةٌ ورحمةٌ، ولقد أعاد العقولَ إلى نصابها، ولو إلى حين؛ وإلى جوار الأذان، أطلقت الكنائس أجراسها؛ فلا حجْر على أحد فيما سمي «عاصمة الإلحاد برلين»؛ ولا مكان بعد اليوم فوق الأرض للزعانيف «المخلوعين» (دارجة) بكلّ ما هو مادي، غربي، دارويني، إلحادي، كفري، شهواني...

علماء ألمان لهم علاقة بالإسلام:

لا بدَّ أن نذكر بالمناسبة العلماء الآتية أسماؤهم ممن له علاقة بالإسلام، من ألمانيا:

1. زغريت هونكه (1913-1999م)، صاحبة كتاب «**شمس الإسلام تشرق على الغرب**».

2. محمد أسد (1900-1992م)، هو هنجاري من النمسا، ولكن البلدان لحمة واحدة؛ صاحب «**الطريق إلى مكة**»، و«**رسالة القرآن**»، وله «**ترجمة لمعاني القرآن**» إلى الإنجليزية.

3. إجناتس جولد تسيهر (1850-1921م) وهو صاحب كتاب «**العقيدة والشريعة في الإسلام**»، وكتاب «**التفسير المذهبي للقرآن**» وهو متمكن في التراث الإسلامي، غير أنه كما قال الشيخ محمد الغزالي عن كتابه الأول: «والحقُّ أنَّ الكتاب من شرّ ما أُلِّف عن الإسلام، وأسوء ما وجه إليه من طعنات».

4. يوليوس فيلهوزن (1844-1918م) له كتاب «**المملكة العربية وسقوطها**»، وكتاب «**الخوارج والشيعة**» ترجمة عبد الرحمن بدوي، ولي تعليق عليه في مقال علميٍّ.

5. كارل بروكلمان (1868-1956م) له كتب كثيرة، وأكبر مشروع علمي له هو «**تاريخ الآداب العربية**» (تاريخ التراث العربي) أكبر موسوعة في التراث العربي الإسلامي، قبل أن تصدر موسوعة فؤاد سزكين «**تاريخ التراث العربي**» لتكون هي المرجع الأشمل.

7. وأروع ما يمكن قراءته عن العلاقة بين الألمان والجزائر كتاب الأديب الكبير أبو العيد دودو (1934-2004م) بعنوان: «**الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان**» وله ترجمة رائعة لكتاب مالتسن «**ثلاث سنوات في شمال غربي أفريقيا**».

عودٌ على بدءٍ:

نعود إلى ابن الألمان، مراد هوفمان، وهو يعلنها فوق الأشهاد:

«حيث تغيب الآلهة، تسود الأشباح وتسيطِر».

ها قد غابت الأشباح، وحضر الإله... سائلين الله أن يدوم حضوره في قلوبنا، وعقولنا، وجوارحنا.. ومدننا... إلى يوم يبعثون...

مجاهد وشهيد معتبر...

مُجاهِد وشهيد معتبَر، لا مجرَّد رقم وخبر

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ (1)

الأممُ العظيمة لا تستعير قاموسها من جيرانها، بلْه أن تستعير قاموسَ عدوها ومستعمِرها...

الجزائر اليومَ باتت عظيمةً، رغمَ الأعاصير وحماقات ذوي النظر القصير؛ ذلك أنها تملك سيادتها بيدِها، وتصنع موقفها بنفسها، وتحدِّد مصيرها بعقول أبنائها، وتبني مستقبلها بمُهج نسائها ورجالها...

وهذا المقال السخين، ليس مجرَّد كلمات تُكال أو ألفاظ تُقال؛ إنما هو رسالة إلى «كلّ من يعنيه الأمر»:

رسالةٌ إلى «كل جزائري أبيٍّ غيور، حرٍّ»،

رسالةٌ إلى «رئيس الجمهورية، ورئيس الحكومة، ووزير الصحة، ووزير الشؤون الدينية، ووزير التربية، ووزير الإعلام، ووزير المجاهدين»،

رسالةٌ إلى «الإعلام الخفيف والثقيل»،

رسالةٌ إلى «من له صوت مسموع وقلم مرفوع»،

(1) سَحَر يوم الثلاثاء 14 شعبان 1441هـ / 7 أفريل 2020م. برج البحري، الجزائر العاصمة.

رسالةٌ إلى «علماء العقيدة والفقهاء والمشرّعين القانونيين...»

بل هي فتوى شرعية عقديَّة توحيدية، وهي كلمةٌ قبل أن أنطق بها جمدت أوصالي، وتوقَّف حيالها نبضُ قلبي، ثم سرَّعتُ شريط التاريخ من أوَّل شهيد في الإسلام، إلى أوَّل شهيد في الثورة التحريرية، إلى أوَّل شهيد في مواجهة وباء (**كوفيد 19**).

من السَّفه ومن سوءِ التقدير، بل من الجهل وسوءِ التدبير، أن نسمّي من مات بداء الكُرونا «ميتا»، وأن نعُدَّ من يعرّض حياته للخطر مجرَّد «موظَّف»؛ وأن تكون طريقة نشر الخبر: «اليوم ارتفع عدد الوفيات إلى كذا، وعدد المصابين إلى كذا».

فلنُفق من سباتنا،

ولنستعِد قاموسنا،

ولنضبط حركات ألسنتنا،

ولنطهّر من الجهالة عقولَنا،

ولنغسل من الغفلة قلوبَنا،

ولنزكّ باليقين ضمائرنا،

ولنسمّ الأمور بمسمياتها؛

ذلك أنَّ مِن أكثر الحروب شراسةً حربُ المصطلحات والمفاهيم؛ فشتَّان بين «موظف ومجاهد»، وشتان بين «ميت وشهيد»...

سادتي، سيداتي...

كلٌّ باسمه وجميل وسمه، من الآن فصاعدا، ابتداءً من اللغة الشخصية الفردية لكلِّ واحد منَّا، وتثنية بالأخبار الإعلاميَّة التي نرصّع بها جرائدنا وقنواتنا، وانتهاءً بالقرارات الجريئة التي نتخذها في دوائرنا الرسمية... وما بين ذلك، وما قبل ذلك، وما بعد أولئك...

من الآن فصاعدا، لا يجوز شرعا ولا عقلا أن نسمي الذي يلتحق بربه بسبب الوباء «متوفًّى أو ميتا»، والحال أنَّ رسول الله ﷺ ـ بأمر من ربه ـ عدَّه شهيدًا.

ولقد أصدرت دارُ الإفتاء المصرية فتوى جاء فيها: «إنَّ موت المسلم بسبب فيروس كُرونا يدخل تحت أسباب الشهادة الواردة في الشرع الشريف...».

وإني أوافقها فيما ذهبت إليه، والدليل الصريح حديثٌ رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «ما تعدُّون الشهيد فيكم؟»

قالوا: «يا رسول الله، من قُتِلَ في سبيل الله فهو شهيد»،

قال: «إنَّ شُهَدَاءَ أمتي إذًا لَقَلِيلٌ».

قالوا: «فمن هم يا رسول الله؟».

قال: «من قُتِلَ في سَبيلِ الله فهو شَهِيدٌ، ومن ماتَ في سَبِيلِ الله فهو شَهِيدٌ، ومن ماتَ في الطَّاعُونِ فهو شَهِيدٌ، ومن مَاتَ في البَطنِ فهو شَهِيدٌ».

الدليل قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**ومن مات في الطاعون فهو شهيد**» والنصوص في ذلك عديدة، لا يسمح المقام بسردها كاملة.

۞ ۞ ۞

لو عُدنا إلى التاريخ البعيد، إلى السيرة العطرة للنبي المصطفى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وإلى أخبار صحابته الكرام؛ لوجدنا أنَّ الذاكرة حفظت لنا أوَّل شهداء الإسلام:

من الرجال «الحارث بن أبي هالة»، وهو أخو هند بن أبي هالة ربيب النبي ﷺ، استُشهد تحت الركن اليماني بالكعبة الشريفة.

وأوَّل امرأة شهيدة في الإسلام هي «سمية بنت الخياط»، زوجة ياسر وأمّ الصحابي عمّار بن ياسر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ جميعًا؛ ذلك أنَّ آل ياسر هم أوَّل أسرة (عائلة) كرَّمها الله تعالى بالعذاب على يد الكفار.

أمَّا لو عدنا إلى التاريخ القريب، تاريخ الثورة التحريرية المباركة، في وجه الاستعمار الفرنسي البغيض؛ فإننا نقرأ بعض الاختلاف في أوَّل شهيد بُعيد غرَّة نوفمبر 1954م؛ وهو اختلاف مشروعٌ، ذلك أنَّ البلد شاسعٌ، وأنَّ الأخبار لم تكن سريعة الانتقال مثل اليوم؛ ولقد ذكرت المصادر أنَّ:

أوَّل شهيد من الرجال هو «عبد المالك رمضان»؛ وهو أوَّل شهيد في الثورة التحريرية: ولقد سقط في ميدان الشرف يوم 4 نوفمبر 1954م، بعد اشتباك مع جيش المستعمر الفرنسي بغابة «أولاد سي العربي» الواقعة بين منطقتي سيدي علي وسيدي

لخضر بولاية مستغانم.

وذكرت مصادر أخرى أنَّ «أحمد مزوج» (المدعو أعمر أوقرور) هو أوَّل مجاهد يفتح قافلة الشهداء بمنطقة الأوراس، بعد 3 أيام عن اندلاع الثورة التحريرية، وهذا ما ذكره الرائد عمار ملاح في الجزء الأوَّل من كتابه «**قادة جيش التحرير الوطني (الولاية 1)**»، وذلك يوم 3 نوفمبر 1954م.

أمَّا أوَّل شهيدة من النساء في الثورة التحريرية المباركة فهي «شايب الدزاير»، التي استشهدت في 19 نوفمبر 1954م رفقة الشهيد «باجي مختار» في منطقة تقع بين قالمة وسوق أهراس.

ولا حرج من الاختلاف، وإنما هي أسماء للتأسي بها، ولجعلها مشعلا أمام الأجيال يستضيئون من نورها، ويعلون هممهم على إثرها.

هذا عن شهداء البارحة، وماذا عن شهداء اليوم؟

ضمن قائمة الأسماء التي تعلَّق كلَّ يوم وتنشَر، ممن يتوفاه أجله بسبب وباء الكُرونا، لا يرد الاسمُ والوصفُ كاملا؛ وفي ذلك من الحكمة ما لا يخفى على لبيب؛ لكن من جهة المرابطين والمجاهدين في الصفوف الأمامية:

من أطبَّاء وممرضين،

ومن عمَّال الحماية المدنية وعمَّال النظافة،

ومن مسؤولين إداريين ورجال أمنٍ،

وممن تحمَّل مهمَّة الإغاثة من جمعيات الهلال الأحمر وغيرها...

لكنَّ هؤلاء، لا يخفى علينا اسم من قلَّده الله تعالى وسام الشهادة منهم، وهو في هذا السبيل؛ ولقد ارتفعت به الملائكة عاليا نحو السماء، في موكب جليل مهيب... لذا، وجب علينا اليوم أن نذكر ما يلي:

- على علماء العقيدة والفقه واجب إصدار فتوى تؤكد شهادة هؤلاء، وكذا كون من يعمل في الصفوف الأمامية معرّضا حياته للخطر المحقق مجاهدا؛ ولعلي أكون واضحا، وأصرح بذلك ـ في مقالي هذا، وفتواي هذه ـ ولا أبالي (وسأستدعي العلماء والجهات العلمية إلى المسارعة في إصدار الفتوى بحول الله تعالى، لتكون جماعية لا فردية).

- على الدوائر الرسمية، ولقد فعلتْ مشكورة بعضًا من ذلك، أن تُصدر قوانين عالية المستوى: من مراسيم رئاسية، إلى تدابير حكومية وبرلمانية وإدارية؛ تؤكد على جهاد من جاهد، وشهادة من استشهد[1].

- على الجميع أن يدافع على وجوب تسلم هؤلاء أوسمة شرف، وإدراج أسمائهم ضمن كتبنا التربوية، وأسماء مؤسساتنا الثقافية، وعلى صفحات أعمالنا الأدبية...

(1) بعد أيام من نشر المقال صدر بيان رئاسيٌّ يعدُّ من مات في جبهة مواجهة الوباء شهيدا، له جميع صفات الشهيد؛ وهو اليوم ساري المفعول.

- على وسائل الإعلام واجب تغيير لغتها، وتعديل مصطلحاتها لتكون كما أمر الله ورسوله، لا كما ألف الناس ورددوه بلا وعي ولا أثارة من علم.

وفي هذا الشأن، يكون أوَّل شهيد من الأطباء، كما ورد في المصادر هو «سيد أحمد مهدي» (أو بلمهدي)، رئيس مصلحة الجراحة العامة بمستشفى فرانز فانون بالبليدة، وهو الذي رفع الله روحه شهيدا، وهو في السابع والستين من عمره، بعد إصابته بفيروس كُرونا يوم 30 مارس 2020م.

وكذا جمال طالحي ابن «الصومعة» سائق سيارة الإسعاف، استشهد وخلَّف أرملة وأيتاما.. استشهد وهو يؤدّي عمله مثل جندي في حرب، استشهد وهو يدرك معنى الخطر جيدا، لكنه صابر في ميدان المعركة، ليلقى الله تعالى وهو في عليين مع النبيين والصديقين والشهداء...

وتأتي القائمة بعد ذلك طويلة، يذكر فيها ممرض، وطبيب آخر، ومسؤول إدرايٌّ... مما وجب على الدوائر الرسمية والعرفية والمدنية رصده، والتعريف باسمه وبصفاته وبطولاته؛ والعمل على أن لا يدخل في دائرة النسيان، أو أن يحوَّل إلى مجرَّد أرقام وأخبار، وإلى أحاديث تدار، وقبور تزار...

۞ ۞ ۞

كان الناس في بدايات الإسلام يسمُّون من قتل في سبيل الله

ميتا، ثم جاء التصحيح من فوق سبع سماوات، ففهم الصحابة الرسالة، ولم يعودوا إلى مثل هذا الخطأ أبدا، وها اليوم نستذكر هذا التصحيح، فلا ينبغي لنا فرادى ومجتمعين أن نعود إلى مثل هذا أبدا... قال تعالى:

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتُۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾

[البقرة: 154].

وقال جلَّ من قائل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[آل عمران: 169].

ولا ينال شرف الحياة هنالك يوم يكون الناس في عداد الأموات إلَّا الشهداء فِداهم روحي ومهجتي، وفداهم أمي وأبي...

رحم الله شهداءنا الأبرار، وأسكنهم فسيح الجنان مع الأخيار...

وإني والله لأسأل الله تعالى شهادة عاجلة أو آجلة، ولقد تعلَّمت مما علَّمني أساتذتي أن أقول: «اللهمَّ أحينا سعداء، وأمتنا شهداء، ولا تخالف بنا عن طريق الهدى، يا أرحم الراحمين».

• لا أحد ممن يملك أثارة من علم، أو درس أبسط أولويات العقيدة، أن يسوي بين من «مات بالوباء» في داره، ومن مات وهو في ثغر من الثغور؛ لكن عدم التفريق بين أنواع الشهادة يحمل البعض على كلام لا دليل يسنده، ويجرئه على كلام رسول الله ﷺ، فيعتبره مناقضا لكلام الله تعالى، وما هو كذلك لو أنصفوا.

مستويات الشهادة ثلاثة:

المستوى الأول: شهيد الدنيا والآخرة: الذي يقتل في قتال الحربيين أو البغاة أو قطاع الطريق، وهو المقصود من قول النبي ﷺ: «**مَنْ قاتلَ لِتَكُونَ كلِمةُ اللهِ هيَ الْعُليا فهوَ في سبيلِ اللهِ**» متفقٌ عليه، وتسمى هذه الشهادة «الشهادة الحقيقية».

أمَّا **القسم الثاني** من الشهداء فهو **شهيد الدنيا**: وهو من قُتل كذلك، ولكنه غلَّ في الغنيمة، أو قُتل مدبرًا، أو قاتل رياءً، ونحو ذلك؛ فهو شهيد في الظاهر وفي أحكام الدنيا.

و**القسم الثالث شهيدُ الآخرة**: وهو من له مرتبة الشهادة وأجر الشهيد في الآخرة، لكنه لا تجري عليه أحكام شهيد الجهاد في الدنيا من تغسيله والصلاة عليه؛ وذلك كالميت بداء البطن، أو بالطاعون، أو بالغرق، ونحو ذلك، وهذه تُسمَّى بالشهادة الحكمية، وقد وسَّعت الشريعة الغراء هذا النوع الثالث؛ فعدَّدت أسباب الشهادة ونوَّعتها؛ تفضلًا من الله تعالى على الأمة المحمدية، وتسليةً للمؤمنين.

ومصير النوع الأول الجنة بلا خلاف بين العلماء، ومصير النوع الثاني النار بلا خلاف لكن الناس لا يملكون حسب الظاهر أن يعتقدوا ذلك بالتعيين إنما يكون بالصفة، وأمره إلى الله.

أمَّا الخلاف فهو في الصنف الثالث، حسب رأي المذاهب في موت المسلم على كبيرة، وأثر الذنب على الذي مات شهيدا أو

غير شهيد[1]...

وهنا ليس مجال البسط فيه؛ وإنما يكفي أنَّ اللفظ ورد عن رسول الله ﷺ، فلا يجرأ من له علم وحياء على نقض كلامه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ والمسألة في هذا المستوى من فروع العقيدة وليست من أصولها[2].

(1) بعد نشر المقال وردت إليَّ رسائل وملاحظات من أساتذة وطلبة، بل وعامَّة الناس أحيانا، تحاول مناقشة المسألة من المدخل العقدي، ولكنَّ الغالب منهم تقبَّل الفكرة، واعتبرها موافقة للشرع الحكيم. ولعلي أترك ما كتب في هذا الشأن لمناسبة أخرى، أنشره فيها إن شاء الله تعالى. وبهذه المناسبة أشكر أخي الدكتور مصطفى وينتن على حواره الجاد، وعلى بحثه العميق في هذه المسألة، ولا أملك أن أنشره إلَّا لاحقا، بحول الله تعالى.

(2) وانظر: وينتن وباباعمي: **أصول الإيمان، التوحيد ووحدة الأمة**، نشر: كتابك.

أبي، حين تغيب الكلمات...

أبي...

(حين تغيب الكلمات... تخلفها الدموع والعَبرات)[1]

كنتُ دوما أسأل نفسي، وها اليوم أسأل مَن حوالي:

لمَ الناس يُنشدون الأمَّ ويغنُّونها بكلّ اللغات، غير أنهم قلَّما قالوا شعرًا عن الأب، وأقلَّ منه ما كتبوا من «ديباجة وتقريظ» في حقّه؟

تصفَّح ديوان العرب، واقرأ في أدب الشرق، وتذكَّر ما تعرفه من فنون الغرب، فستجد المئات من الآثار الأدبية عن الأم، ولكنك لن تجد فيما ألّف عن الأب إلَّا نزرا يسيرا لا يكاد يحصى.

ألِف الناس عبر العالم اليومَ الاحتفال بعيد الأم، وبعيد الطفل؛ إلَّا أنهم لا يولون اهتماما ذا بال بعيد الأب؛ رغم أنَّ فكرة هذه الأعياد لها طابع «نسويٌّ أنثويٌّ غالبا»، و«اقتصاديٌّ تجاريٌّ» دائما.

ولقد ألَّف الأديب علي يحي معمَّر كتابه الشيق «آلهة من الحلوى» وخصَّصه لما سماه «الأقانيم الثلاثة» وهي: الطفل، والمرأة والحاكم؛ عالج فيه جدلية الانفصام في الفكر الغربي، وكيف انتقلت إلى الشرق، وإلى البلاد المتخلّفة بالتبع، حسب قاعدة ابن خلدون: «ولع المغلوب بالغالب».

(1) صبيحة الأربعاء 15 شعبان 1441هـ / 8 أفريل 2020م.

وحتى لا أحوّل مقالي إلى دراسة عن جدلية الأب والأم، أو إلى بحث عن ثنائية الرجل والمرأة؛ أعود وأسأل نفسي:

لم كتبتَ أوَّل ما كتبتَ ضمن «مقالات السحر» عن الأم، فنشرت مقالَك الأوَّل «من حِجر الأم... إلى الحَجر الصحي»، ثم مقالَك الثاني: «فرجعناك إلى أمك كي تقرَّ عينها ولا تحزن»؟

ثم أسأل قرائي الأعزَّة على إثر سؤالي:

ولمَ لمْ يحتجَّ أحدٌ عن هذا التخصيص؛ بل إنَّ أكثر الناس تأثرا وإعجابا، بل وبكاء أحيانا، كانوا هم «الآباء أنفسُهم»، وهم يذكرون فضل أمهاتهم عليهم؟ أليس هذا أمرا عجبا؟

يقول الدكتور بحاز معلقا على مقالة «فرجعناك إلى أمك»، يقول مخاطبا ابنته وهي في الغربة بعيدة عنه:

«أنا بكيتُ قبلكِ ـ يا ابنتي ـ لمَّا قرأت النصَّ، وأمي إلى جانبي والحمد لله، هو بكاءٌ ممتع، وعبرات حرَّى، ودموع حارَّة. طوبى لمن يجد ذلك في مثل هذا النص المؤثر، وأكاد أقول شقيَ من لا يجد ذلك أي (تالَقّيسْ)».

ثم يستدرك، ويتذكَّر والده الحاج بكير بحاز رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، ويقول:

«وأنا إذا تكلمت عن أمي تذكَّرت أبي وقد غادرنا منذ 15 عامًا، ربّ ارحمهما كما ربياني صغيرا».

لا زلت أحوم حول «أبي...» ولا أقعُ؛

وأسأل العالَم، وأسأل نفسي، وأسأل مَن حولي... ولا أحار جوابا، ولا أجد سرًّا لتلك العناية اللامحدودة بالأمّ، وتلك الإشارة المحتشمة غالبا إلى الأب؛ سواء في تاريخنا القريب أم البعيد، المحلي أم العالمي...

وأنا لو عدتُ إلى الأدب القديم، أجد البيتين الشهيرين اللذين يحفظهما أغلب الناس، وهما منسوبان إلى الإمام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيهما يقول:

كن ابن من شئت واكتسب أدبًا
يُغنيك محمودُه عن النَّسَب
إنَّ الفتى من يقول ها أنذا
ليس الفتى من يقول كان أبي

وأحسب أنَّ كثيرا من الناس فهِم الحكمة خطأ، ذلك أنَّ الإمام يُنكر على الفتى أن يكتفي بالفخر بالآباء، ولا يزيد إلى مجدهم مجدًا جديدًا؛ ولا ينكر على أحدٍ أن يفخر بمجد مَن قبلَه، وبمجد أبيه، إذا كان ممن يقول بفعاله بعد ذلك: «ها أنذا»...

وكذلك فُهِم حديث رسول الله ﷺ خطأ في كثير من الأحيان، أعني الحديث الذي يستشهد به الناس جميعا، وهو قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**أمُّك، ثم أمُّك، ثم أمُّك، ثم أبوك**»؛

وكأنَّ طاعة الأب تأتي في الرتبة الرابعة بعد طاعة الأمّ؛ وهو ما صحَّحه الإمام مالك في موقفٍ لطيفٍ، إذ جاءه رجلٌ فسأله قائلا:

«إنَّ أبى في السودان ـ أي في إفريقيا، وليس البلد ـ ويطلب مني أن آتيه، وأمي تمنعني، فماذا أفعل؟».

فقال له الإمام: «أطع أباك، ولا تعص أمَّك».

إلى هنا أنهي المقال ولم أقُل شيئا في شأن الأب...

غير أني أتوجه إلى أبي أنا، فأخاطبه وأقول:

أبي...أبتاه... أيابا...

لولا أنَّ ديننا يحرّم الركوع لأحدٍ من الخلق لركعتُ إجلالًا لك واحترامًا...

وإني كلَّما ذكرتُك وأنت البعيد عني ـ بسبب الجائحة، جائحة الكُرونا ـ ارتعشتُ وانتفضتُ... فغمرني ما يشبه «الوجد الصوفيّ» شوقا إلى مُحياك أبي....

أبي...

كنتَ دوما على سفرٍ ولا تزال...

لا يهنأ لك بال إلَّا إذا غادرت البلد (أغلان)، وركبت سيارة الأجرة، فبِتّ في الطريق، وأصبحت عند أحدٍ من أبنائك هنا في العاصمة؛ وكثيرا ما كان ذلك مرتين إلى ثلاث في الشهر... أو يزيد...

وإنك أبي... وأنت فوق الثمانين... لا «يهنأ لك بال»، نقولها

لك بالميزابية (أُلَتْهِنيد إمَانَش) من ركوب المخاطر لأجلنا؛ حتى إننا كلما احتججنا لك أحرجتنا بقولك:

«راحتي في أن أرى أحفادي، وأعانق فلذات أكبادي، وأجلِس بين يدي أبنائي... فلا تحرموني من الحركة ما دمتُ قادرًا عليها، ويوم أعجز عنها، يكون لكل حادثة حديث»...

أبي...

لم أعرف أبا يذرف الدمع ويبكي مثلَك؛ وإنك كلَّما ذكِر لك أحد من أبنائك، وبخاصَّة أنا (وكلُّ ابنٍ ضنينٌ بأمّه وأبيه، فلا حرج أوان الحَجر)...

أبي...

حين يسألك أحد عني، أو عن أحد إخوتي، ويقول لك: «حفظ الله ابنك فلانا وقد فعل كذا، أو قال كذا...» فإنك دائما تختنق بأنفاسِك، وينحبس صوتُك، ثم تغرورق عيناك دموعا، ولا تقدر على الإجابة... ولا أذكر يومًا أنك كنتَ عصيَّ الدمع، أو تحمَّلت مثل هذا القولِ ببرودة..

أبي...

دوما أنا حائرٌ في ملكاتِك ومواهبك، وفي صِدقك وإخلاصك؛ وأعتقد أني حسنةٌ من حسناتك، وأني «كشفُ نقاطِك»؛ فإن أكن قد بلغتُ مبلغًا، أو أنجزتُ أمرًا، أو بنيت مجدًا... فما هو إلَّا ثمرة من ثمرات تربيتك، لا فضل لي فيها ولا فخر...

غير أني أخفي خوفا دفينا، أبوح لك به اليوم، وأقول:

أبي...

لم أقدر أن أبلُغ مبلغك في تربية أبنائي، وإني أخشى أن يكون كشفُ نقاطي (أي أبنائي) أقلَّ بكثير من كشفِ نقاطك... ولا أزال ولن أزال أحمل هذا الهاجس بين جنبي، وأسأل الله أن ينجيني...

لصعوبة العصر ربَّما،

لضعف شخصيتي أبًا ربَّما،

لانشغالي الكبير ربَّما...

أنا لا أدري، ولكن كلَّما تذكَّرت تضحياتك من أجلي، من أجلِنا، ونظرت إلى تضحياتي أنا من أجل أبنائي... وجدتُ أني أقارن بين جبل أشمَّ، وحجر أصمَّ ...».

أبي...

وبهذا أنهي حديثي، ولا أزيد... ذلك أنَّ قلبي ينبُض بشدَّة، ويكاد الدمع يحاصرني، ولقد غبتَ عنَّا لأكثر من شهرٍ... نعَم شهرٍ كاملٍ... ولا أذكر لسنوات كثيرة مضت أنك غبت عنا كلَّ هذه المدَّة...

أبي...

أنهي مقالي، وأذكّرك بالورقات التي كتبتَها لي، وكتبتها عني،

ولا أزال أحتفظ بها، ولولا أنها هنالك في بناية «معهد المناهج»، وأنا هنا في البيت، ولولا أنَّ الحجْر الصحي يمنعني، لأخذت سيارتي ولأحضرتُها، ثم لنشرتها كما هي... غير أنه يكفي أن أذكّرك بها، وفيها تقول:

«ابني محمد... أنا راض عنك كلَّ الرضا، وأقدّم لك تحياتي وتحيات أمّك، ونحن الاثنين راضون عنكم أنت وإخوتك وأخواتك... وأنا فخورٌ بك، وأحمد الله أن رزقني بك... وإني دائما أدعو الله في ظهر الغيب أن يحفظك...» (رواية بتصرف)

ثم تسترسل أحيانا بالعربية مع بعض العُسر، وأحيانا بفرنسية أنيقة تكتبها بُيسر...

أبي...

لا أخفيك أبي، أني لا أرى لي من فضلٍ، ولكن أحتسب ما تقول عند ربي... وأتركه ليومِ ألقاه سبحانه...

وإني دوما أجعل بين عيني صورة ذهنية وهي: أن آخذ معي رسالتك إلى قَبري، ثم أحملها بين يديَّ حين يقفُ الناس في المحشر، ثم أستعرضها ساعةَ الحساب، وإني لأرجو أن أنجو عند ربي بسببِها.. ثم بسبب رضا أمي عني...

لكن، مهلًا محمد..

اسأل الله أن يثبّتك فلا تتغيَّر،

وأن يديم رضاه عنك، ورضا والديك، فلا يَبيد...

وإلَّا فإنَّ أخوف ما يخافه المرء «تقلُّب القلوب»، و«تغيُّر الأحوال»، و«سوء الخاتمة»...

ولذا أسألك أبي، وأسيح دمعي بين يديك مرَّة أخرى، وأقول:

اسأل الله لي أن يثبتني على الحقّ، وأن يميتني على الحقّ، وأن يبعثني يوم القيامة على الحقّ...

أبي سأظل دوما صغيرا أمامك، وسأضع أصابعي مثل رضيع على يدك... لذا اخترتُ هذه الصورة التي تراها هدية لك... فتقبَّلها مني ومن إخوتي... مع قُبلة على جبينك... وأخرى على جبين أمي... إلى أن نلتقي قريبا وقد فرج الله عنا، وأزال عنا الوباء جميعا...

والسلام.

أبي...

قلَّ من من الناس من يعرف عنك هذا، فهلَّا سمحتَ لي أن أكشف سرَّه، ليكون لي ولعقِبي عبرة وذكرى؟[1]

(1) بعد قراءة المقال أرسل لي الدكتور مصطفى باجو ترجمة مطوّلة عن أبيه الشاعر الشيخ صالح باجو رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، ثم أرسل لي الدكتور قاسم حجاج ترجمة وافية لوالديه رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ تعالى؛ وراح البعض ينشر قصصا وعبرا عن والديهم في تعليقهم

يوم أمّم البترول بتاريخ 24 فبراير 1971م، كنتَ على رأس فريقٍ من التقنيين في شركة البترول، وكنتَ لعشرٍ من السنين متنقلا بين عين أمناس وحاسي مسعود وغيرها؛ ثم إنَّ بعضَ من باع دينه فباع وطنه، دعاك لتكون ضمن «العِصابة»، وطلب منك أن تكون متواطئا معه في «نهب خيرات البلد»؛ فرفضتَ، وعلمتَ أنك لو بقيتَ هنالك مع رفضِك، فستكون لقمةً سائغة لهم ليمسخوا عِرضك؛ ثم لم تتردَّد، وقدَّمت استقالتك؛ وجئت إلى أغلان (بني يسجن، غرداية)، ففتحتَ «مرأبا» صغيرا لتصليح السيارات، في «باب أغربي»، ولقد كنتَ في بحبوحة من العيش، فصرتَ في ضائقة مالية عصيَّة، لزمن غير يسير...

ولكَم حملتُ إليك «غداءك» في «تحلَّابت نلغرا» (إناء، هَيْمان)... وأنت بلباسك الملطَّخ بشحم السيارات، قريرَ العين، مُرتاحَ البال؛ أمَّا أنا فكنت ببراءتي حائرًا قلقًا؛ وكنت تردّد دوما أمام مسامعي: «لأنْ أطعِمكم طعامًا حلالًا، خيرٌ لي من أن أسوق لكم الدنيا من حرامٍ ذهبًا مدرارًا»...

ثم حين بدأتْ قطعُ الغيار المزوَّرة تدخل سوق الجزائر، وكان لك دكان من «قطع الغيار» لمدَّة عشرين عامًا (ساحة الأندلس، غرداية)؛ فضَّلت أبي أن تُغلق المحلَّ على أن تبيع الزائفَ؛ وكنتُ أنا رافضًا ذلك غير مستسيغ، وكان إخوتي مِن بعدي لا يفهمون شيئا مما يقع لصِغَرهم؛ ذلك أنك دخلتَ دوَّامة جديدةً

على المقال. وأحسب أني لو فتحتُ صفحة ليعبر فيها الناس عن آبائهم وأمهاتهم، لكانت مصدر إلهام حفيّ، وواحة من الذكر الشذي.

من البحث عن «تجارة جديدة»، وكنتَ تقول لي حينها، وبين يديك قطعةُ غيار مزيفة الصنع، تقول:

«هذه قد تقتل إنسانا، أو عائلةً أو أكثر... وحين أبيعها فإنَّ ضميري لا يُريحني، وقد أكون سببا لموت الناس، فلَأن أتضوَّر جُوعا خيرٌ لي من أن أواصل المتاجرة في هذا الزيف»..

أبي...

ثم ساقك الله تعالى ـ هبة منه وجزاء ـ إلى «الكتاب» فكنتَ ولا تزال العاشق الولهان به، ففتحتَ مكتبة اخترتُ لك اسما لها، نحتتُه من أعماق حبي ووجدي، فسمَّيتُها «مكتبة النامي»؛ وكانت لك «جمعيةُ التراث» نِعم السند، فكنت لها نعم المدد...

ومن يومها، والأعوام تلتهم الأعوام، وأنت الذي توزّع جميع ما أكتبُ في البلَد، وتنشر جميع ما يصدر من «جمعية التراث»، من تفسير الشيخ بيوض، إلى «مجلة الحياة»، وكذا ما تبدعه أنامل أستاذنا الدكتور ناصر من شعر ونثر... وما تنتجه مؤسسة «كتابك» للنشر، وهلمَّا جرًّا..

ورَزق الله لك صحبةً طيّبة من مشايخ وعلماء، ومن مديري مدارس حرَّةٍ، وطلَّاب علمٍ... لا يزالون يذكرونك بخير، ويدعون الله لك في سرهم وعلانيتهم...

أبي...

أحسب أنَّ الأبناء ـ ومنهم أنا ـ لا فضل لهم في شيءٍ، إذا ما طعموا لقمةً حلالًا، وأسأل الله أن يكون ما طعِمنا حلالًا... أمَّا

إذا طعِموا الحرام، ويا لهول الحرام، فإنهم مهمَا بذلوا، ومهما عملوا، ومهما اجتهدوا... إنهم يكونون في خطر إذا لم يتغمَّدهم الله برحمته، وإذا لم ينظر إليهم جَلَّجَلَالُهُ بعين عطفه، لسبب آخرَ... قد يكون صلاح الأمّ على رأسها...

فخمسةُ أرباع الطريق للواحد منا هو مما يطعمه من حلالٍ أو حرامٍ، والخمُس الأخير فقط هو لاجتهاده، وعمله، ومواهبه...

فهل وعيتُ الدرس منك أبي؟[1]

(1) أرسل لي صديق الصبا المهندس أبي امحمد صالح ـ حفظه الله ـ هذه الفقرة، وذكرني بأمر عزيز عليَّ نسيته، في العلاقة بالتلفزيون؛ وأنشره كما ورد لي بالحرف الواحد: «أنا أتذكّر أخي محمد أن أباك (عمّ موسى) كان دائما فخورًا بك كثيرا، ولما كنا صبيانا كنت دائما معجبا بأبيك لأنه كان يشاركك في كل لقاءاته مع أصدقائه وكنت تروي لي قصصا عن هذه الاجتماعات. وأتذكَّر قصَّةً حول التلفزيون الملون الذي اشتراه أبوك وتفرجتم فيه، فلما جلستم للمشاهدة وكان فيه لقطات للباس شفاف؛ وكان رد أبيك هو إطفاء التلفاز وأرجعه مباشرة واشترى تلفازا بالأبيض والأسود. هذا يدل على التربية الرفيعة. ـ حفظه الله ـ».

عرفتَ فالْزَم

عرفتَ فالزَم

(الصمت أو الكلام... أوان الكُرونا)[1]

لا أعرف خُلقا صعبَ المراس، نادر الوجود في مذهب الناس، مثل خُلق «الصمت» حين يحلو الصمتُ، و«الكلام» حين يتعيَّن الكلامُ؛ ولو أني عرفتُ مدرسةً أو شيخًا لا يعلِّم إلَّا هذا الخلُق، لشددتُ إليه الرحال، ولم أستبدل به ملءَ الدنيا ذهبًا وإبريزًا، ثم لن أزورَّ عنه، أو أغيبَ عن جنابِه، إلى أن ينتصر الحقُّ أو أموت شهيدًا.

قد يكون الصمت في بعض الحالات حرامًا،

وقد يكون الكلام في حالات أخرى حرامًا؛

ومِن عجبٍ أن يصوغ البعض قاعدة من فراغ، وهي «أنَّ من لم يتكلَّم في أمرٍ فهو خائنٌ أو جبانٌ، أو جاهلٌ أو منافقٌ، أو متخلّف عن الركب مخفقٌ»، وما شابه هذا الحكم الجائر من أحكام واهيةٍ، وقواعد لاغيةٍ.

والحال أنَّ المسلم له ضوابطُ وقواعد تؤصِّل كلامَه وصمتَه، له مبادئ ومقاصد تضبط فعله وتركه؛ فهو لم يُخلق في هذه الدنيا سبهللا ولا غُفلا؛

(1) ليلة نصف شعبان 1441هـ / 9 أفريل 2020م.

ومِن أغرب ما نعانيه في هذا العصر الزئبقيِّ، في جميع الدوائر والمستويات، أنَّ المبادئ عندنا تتحوَّل إلى محفوظاتٍ في كثيرٍ من الأحيانِ، وأنَّنا نملأ بها أفواهَنا ما لم تمسَّنا بِدائها، وما لم تلفحنا بنارِها، وما لم تهدّد مصالحنا؛ أمَّا حين يكون في تلك المنطلقات ما يُقلق ضمائرَنا، وما يحاصِر ذواتَنا؛ فإننا نتخلَّى عنها مثلما تستغني الشجرة عن أوراقها في فصل الخريف؛ ونستبدل بها أوراقا من «قُماش أو نيلون» هي شبيهة بالأصل، وهي مجرَّد ألقابٍ مزوَّرة (pseudo)، لكنها ليست الأصلَ، ولا هي من حقائق الأمور.

القاعدة التي تضبط ما يقع اليومَ في جزائرنا وفي العالم، من وباء فتَّاك، ومن جائحة هتَّاكة، ومن تقلُّبات لم تعرف البشرية لها مثيلا منذ قرون؛ ولعلَّها بهذا الشكل، وبهذه الصورة، لم تر لها مثيلا منذ نزل سيدنا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الأرض...

كيف ذلك؟

ذلك أنَّ الأرض كانت مقسَّمة إلى قارات وجزرٍ، وإلى دول وحضاراتٍ؛ منفصلٌ بعضُها عن بعضٍ، منفصمٌ شمالها عن جنوبها، وشرقُها عن غربها؛ والذي يُصيب جهةً من خيرٍ أو شرٍّ، من صحَّةٍ أو سقمٍ، لا يبلُغ خبرُه إلى جهةٍ أخرى إلَّا بعد شهورٍ أو سنواتٍ، وقد لا ينتقل الخبرُ أبدا.

كانت الأمم والمجتمعات مقسَّمة إلى طبقاتٍ من الناس، فيها العالِم والجاهل، الحاكم والمحكوم، الغني والفقير، الكبير والصغير... وكانت الأدوار واضحةَ المعالم، لها ما يُعرف بـ«الحدّ

الفاصل»؛ فأنت تفرّق بين من يعلم ومن لا يعلم بسهولةٍ ويسرٍ، ويمكن لمن يعلم أن يعلّم من لا يعلم دون تكلُّف ولا تردُّد.

أمَّا اليومَ، فكلُّ الناس مرتبطٌ بالمعلومة، مربوطٌ بالخبر؛ وجميعُهم يقدِر أن «يأتيك بالأخبار» من حيث تدري ولا تدري؛ إنما الفارق في الزمن والسبقِ في نقل الخبر، لا في ذات الخبر والقدرة على تحصيله؛ ولذا تجد الناس عبر وسائل التواصل يتسابقون في «القول» مثلَ «حمُرٍ مستنفرة فرَّت من قسورة»، وينقلون الحدثَ غثه وسمينه «كحاطب ليلٍ، أو مستنزل ويلٍ».

وليس أدلَّ على هذا من نقل الأخبار حول «من أصيب بوباء الكُرونا، ومن لم يُصَب»؛ فلا تستغرب إن قرأت لأحد «بوستا من البوستات» (ليس له ترجمة عربية في تقديري)، يخبرك فيه «أنك أنتَ مصابٌ بالفيروس، وأنك في خطرٍ، أو أنك قد دخلت المستشفى، أو متَّ ولقيت حتفك»... وأنت لا تعلم من ذلك شيئًا!.

لا تستغرب ولا تتعجب...

«وإن تعجب فعجبٌ قولهم..».

هنا، أذكر قصَّة واقعية أنقلُها عن صديقي وحبيبي باحمد ارفيس (قبل أن يكون دكتورا وعالمًا معتبرًا)، وقد حكاها لنا في الأيام الجميلة التي جمعتنا ضمن «أيام غار أمجماج»، صباحًا مع العلم والقراءة والتأليف، وليلا مع السمر والأدب الرهيف.

وفحوى القصَّة (مع بعض التصرف يمليه المقام) أنه:

اجتمع فريقٌ من دُهاة الشباب، وقرَّروا أن يُقنعوا صديقًا لهم، به شيء من الوقار ممزوجا بشيء من البساطة و«النية» (دارجة)؛ ففرَّقوا أنفسهم بين الأزقَّة، كأنَّ الأمرَ صدفة؛

فلمَّا لقي الأوَّلَ وصبَّح عليه، قال له: «أراك مريضًا شاحب الوجه»،

أجابه المسكين: «لا غبار عليَّ، أنا بخير وعافية والحمد لله»؛

ثم التقى بالثاني بعد منعرج أو اثنين، فقال له: «مالي أراك مصفرَّ الوجه، وكأنَّك لم تنم من شدَّة الألم»،

فقال: «لا، نمتُ والحمد لله، ولا شيء ألمَّ بي»؛

ثم حين التقى بالثالث، وقال له: «يجب أن تسارع إلى الطبيب، فحالك لا يعجبني»....

ما كان من المسكين (صاحب النية) إلَّا أن كذَّب نفسَه وصدَّقهم، وقرَّر أن يغيّر وجهته، فعوض الذهاب إلى مقرّ عمله، توجَّه إلى عيادة الطبيب القريبِ، ثم عاد إلى بيته بحملٍ من الأدوية مبتغيًا راحة واستشفاء.

إنَّ ما نقوله أو ما نسكت عنه، يجب أن يؤسَّس على قاعدة: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾.

ولا يأخذنا الخيال الجانح إلى «القول عن جهة ما، أو شخصٍ

ما» بغير علمٍ ولا درايةٍ؛ وإنما هي قاعدة كليَّة شاملةٌ؛ فمن قال بغير تحقُّق، وألقى الكلام على علاته بلا رويَّة، أفسَد الأخضرَ واليابسَ؛ ولم ينل إلَّا وزرًا فوق وزرٍ؛ وفي هذه الحال وجب عليه أن يسكت، وأن يلتزم الوقوف...

ولقد يكون عالما بأمرٍ مَا، متحقّقا من مسألةٍ، غير أنه ليس مخوَّلا للقول فيها، ولا ينبغي له أن يقول؛ كأن يكون طبيبا داخل مستشفى، فإنَّ كلَّ ما يخصُّ مرضاه هو من السرِّ المُصان، وأيُّ نقلٍ لخبرٍ عنهم، حتى ولو كان متيقّنا منه صادقًا فيه، إنما هي خيانةٌ للأمانة، وخونٌ للعهد، ومخالفةٌ للشرع وللقانون... أسفًا.

أمَّا إذا كان له علم بأسباب معينة، وكانت له دراية بأمور لها علاقة بما يقع، دون أن يكون حبيس «صفحات الفايسبوك»، و«مونشات الجرائد السوداء»؛ إذا كان له ما يقوله، وما ينفع به ولا يضرُّ أحدًا؛ فالواجبُ عليه أن ينطق، وأن يقول، وأن يتحمَّل تبعات ما يقول، وأن يحتسب لله أجر ما يقول، وأن يصبر على الأذِيَّة التي قد تلحقه جراء قوله.

والضابط الذي يزنُ القول في هذا العصر، وأوان الفتن والمحن، وزمن الأوبئة والأمراض، هو قوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا﴾؛ إذ الواجب الشرعيُّ والعقليُّ يُلزمنا أن نشكَّ في حامل الخبر، هذا حين يكون إنسانا من «لحم وعظم»، وكيف إذا كان برنامجا للتواصل الاجتماعي من «موجات وأسلاك»، مجهول المصدر والمورد؛ خفي الأهداف والأغراض؛ متمرِّسًا في «التلاعب بالعقول»؟

أمَّا المبدأ الذي يحكمنا، فهو أنَّ «من يعمل ويفعل يحقُّ له أن يقول أو يصمُت، أمَّا من يبيع الكلام، ويوزع الشعارات، ويرعى في مستنقع الشهوات» فهذا لا يحقُّ له أن يقول، ولا أن يدَّعي، ولا أن يصوغ الحدود وقواعد اللعبة؛ وهؤلاء للأسف كُثرٌ، وهم إلى السفه أقرب منهم إلى الرشد.

ثمَّ إنَّ المقصد الأعلى لقولنا أو صمتنا، لفعلنا أو تركنا، هو «الصلاح في مواجهة الفساد»، «الخير في حربٍ مع الشرّ»؛ ولقد لخَّصَها رسولنا الكريم ﷺ في عبارة جامعة مانعة: «**فليقُل خيرًا أو ليصمت**»؛ ذلك أنَّ كلَّ قول أو فعل يؤدّي إلى الفساد، أو يُودِي بالبلاد والعباد إلى مواطن الشرّ؛ هو محرَّم شرعًا، منبوذ عقلًا؛ سواء في ذلك رضي صاحبه أم سخط؛ قبِل أم رفض.

في الحديث الشريف، أنَّ مالك بن حارث الأنصاري مرَّ برسول الله ﷺ فقال له: «**يا حارث، كيف أصبحت؟**»

قال: «أصبحت مؤمنًا حقًّا».

فقال: «**انظر ما تقول، إنَّ لكلِّ حقٍّ حقيقة**».

قال: «أصبحت مؤمنا حقًّا».

فقال: «**انظر ما تقول، إنَّ لكلّ حقٍّ حقيقة**».

قال: «ألستُ قد عزفتُ الدنيا عن نفسي، وأظمأتُ نهاري، وأسهرتُ ليلي، وكأني أنظرُ إلى عرش ربي بارزًا، وكأني أنظر إلى

أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها (يصرخون من شدة الألم)».

قال رسول الله ﷺ: «**يا حارث، عَرَفْتَ فَالْزَمْ**» (قالها ثلاث مرات).

ونرددها مائة مرة بل مئات:

أخي العزيز، أختي الكريمة، يا أنا، ويا أنت، ويا جميع من يؤمن بالله واليوم الآخر:

«عرفتَ فالزَم»... «عرفتَ فالزَم»... «عرفتَ فالزَم»... «عرفتَ فالزَم»... «عرفتَ فالزَم»...[1].

(1) حديث «**عَرَفْتَ فَالْزَمْ**» ورد فيه الكثير من القول حول درجة الصحة، ولقد اعتمدت على نظرية العرض على كليات الشريعة، وعلى القرآن الكريم؛ وعلى نظرية «صحة المتن»، التي طوّرها الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: «**السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث**».

توبة الفجر الجديد...

توبة الفجر الجديد، وأوبة الفرج السديد

(تحت ظلال: إنا لله وإنا إليه راجعون)[1]

غدًا ستنقشع الظلمة يا ولدي،

فلكَم أنشدتُ بقلبي، ولكَم غرَّدتُ بعقلي، ولكَم شدوتُ بلساني ولحني:

اشتدي أزمة تنفرجي ... قد آذنَ ليلُكِ بالبلج
وظلامُ الليل له سرُجٌ ... حتى يغشاه أبو السرُج
وسحابُ الخير لها مطرٌ ... فإذا جاءَ الأبَّان تجي

ثم لكَم سهرتُ مع القمر الوضَّاح ليلا، ولكَم غنَّيتُ مع البلبل الصدَّاح فجرا:

ولرُبَّ نازلةٍ يضيق بها الفتى
ذرعًا وعند الله منها المخرَج
ضاقت فلمَّا استحكمت حلقاتُها
فُرِجت، وكنتُ أظنُّها لا تفرج

۞ ۞ ۞

(1) فجر السادس عشر من شعبان 1441هـ / العاشر من أفريل 2020م.

ثم لكَم تعلَّقتُ بسماء الحكمة...

وارتويتُ من معين الحكمة...

وسكبتُ الدمع السخين على عتبات الحكمة...

تلك الحكمة التي وُهبها خيرُ البرية، سيدي وحبيبي...

قرَّة عيني، ومتعلَّق أملي، ومنتهى رجائي...

«محمدٌ الخير» فداه روحي ونفسي، أفديه أمي وأبي...

محمدٌ...

الرحمة المُهداة، والنعمة المُسداة،

محمدٌ...

السراجُ المنير، والقمر الأثير[1]...

قال، ولَنِعم ما قال، مواساة لكلّ مؤمن إلى يوم الدين:

«عجبا لأمر المؤمن إنَّ أمرَه كلَّه له خيرٌ، وليس ذلك لأحدٍ إلَّا للمؤمن: إنْ أصابته سرَّاء شكَر، فكان خيرًا له؛ وإن أصابته ضرَّاء صبرَ، فكان خيرًا له»...

صبرنا يا رسول الحلم والرحمة،

صلَّى عليك الله يا علَم الهدى...

ما هبَّت النسائم...

(1) وصفتُ القمر بالأثير، وأعني به كما في أصول اللغة: حالةً من الخفة، والنشاط، والشفافيّة، والنقاوة... نقول عن الشيء: إنه يتميّز بجمال خلّاب، وأثيريّة شفّافة!.

وما ناحت على الأيك الحمائم...

شكرنا يا نبي الحُسن والهداية،

وأحسنُ منك لم تر قطُّ عيني وأجملُ منك لم تلد النساء
خُلقت مبرأ من كلّ عيب كأنك قد خُلقت كما تشاء

فاللهمَّ اجعل أمر الكُرونا، وعاقبة وباء الكُرونا، لنا خيرا...

ولقد يا ربّ صبرنا ما استطعنا، فما ضجرنا وما كفرنا...

ويا الله اجعل خاتمة الحجْر الصحي، ونهاية المكث في بيوتنا السكينةِ، وإغلاق بيوتك الشريفةِ، والمنع من زيارة مسجدك الحرامِ... يا الله اجعل خاتمة ذلك ونهايته قريبة... يا رب العالمين...

يا ربّ... يا ربّ... يا ربّ...

كلُّ أملنا، ومتعلق رجائنا، أن تغفر لنا ذنوبنا،

وتجعل ما نحن فيه كفَّارة لمعاصينا، وصفحا عن حماقاتنا، وعفوا لسخيف أمانينا...

وإنا يا ربّ قد سمعنا قول حبيبك، وهو يحاور سعدًا السعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

قال سعدٌ: «يا رسول الله أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟»

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**الأنبياءُ، ثم الأمثل فالأمثل، فالأمثل... فيُبتلى**

الرجل على حسب دينه: فإن كان دينُه صلبا اشتدَّ بلاؤُه، وإن كان في دينه رقَّة ابتلي على حسب دينه..».

ثم ماذا يا حبيب الله؟

قال عليه أزكى الصلاة وأبلغها:

«فما يبرح البلاءُ بالعبد، حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة».

أقول يا رسول الله وأعيد... أكرّر على المدى القريب والبعيد:

«فما يبرح البلاءُ بالعبد، حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة».

«حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة».

«ما عليه خطيئة».

ثم مهلا يا صاح، ألم يثبت في كلام ربك الكريم؟

ألم تسمع نداء إلهك الحكيم؟

ألم يقل لكَ بأبلغ عبارة، وأخصر كلام:

﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾.

ثم ألم يشرحه ويبسطه، ويظهره ويبينه، بقوله سبحانه، جَلَّجَلَالُهُ، وعظم شانُه:

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ
وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ
وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾

يا ربّ يا ذا الجلال والإكرام، يا ذا العزَّة التي لا تضام؛ لا أزال ولن أزال أتلو وأكرّر، لا أملُّ ولا أستقيل:

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ...﴾

﴿...وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

ثم يا رحمن يا رحيم، يا بديع السماوات والأرض، ويا إله الجن والإنس والخلق أجمعين...

أليس لنا رجاء لا ينفُد، وأملا لا يبيد؛ في هَداياك الغالية التي أعددتَها لعبادك الصابرين المحتسبين، المخبتين التائبين، المؤمنين الآمنين، المسلمين المسلِّمين؟

ألم تنثر علينا هذه الهدايا واحدةً واحدةً، في قولك الحق، وفي كلامك الصدق:

«وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ،
وَنَقْصٍ مِّنَ الاَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ،

وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ: إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ...

أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ:

صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ (هذه الهدية الأولى)

وَرَحْمَةٌ (وهذه الثانية)

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (وهذه الثالثة)»

صبرنا يا ذا المن والكرم، قلنا ونقول، وإذا غفلنا أو نمنا، وإذا صمتنا أو خرسنا؛

فإنَّ قلوبنا تنبض بـ«إنا لله وإنا إليه راجعون»،

وإنَّ عقولنا تعجُّ بـ«إنا لله وإنا إليه راجعون»،

وإنَّ جوارحنا تضجُّ[1] بـ«إنا لله وإنا إليه راجعون»...

«إنا لله وإنا إليه راجعون»... «إنا لله وإنا إليه راجعون»... «إنا لله وإنا إليه راجعون»... «إنا لله وإنا إليه راجعون»... «إنا لله وإنا إليه راجعون»...

(1) يقال عجَّ بالدعاء إذا ضجَّ به، ورفع صوته به. ويقال ضج فلان بالشكوى، إذا أحدث جلبة وصياحا، بسبب جزعه ومشقّته؛ وضج لله تعالى بشكواه لم يشرك به غيره فيها، وهو من تمام التذلل والإخبات والجأر إليه سبحانه وتعالى.

مَن علَّمني حرفًا...

مَن علَّمني حرفًا صرتُ له سندًا ومددًا!

(معلمي القديم... دعائي المديد...
هاتفي الجديد)[1]

أَلِف الأحبَّة حين يقرأون مقالاتي أو مؤلفاتي بعامَّة، و«مقالات السحَر أوان الكُرونا» بخاصَّة، أن يسجّلوا انطباعاتهم الرافعة، ويدوّنوا ملاحظاتهم النافعة؛ ولعلَّ أبرز الملاحظات على الإطلاق قولهم:

«وما العمل؟»،

أو: «كيف نفعّل هذه المعاني الواردة في المقال؟»،

أو: «ما هو السبيل إلى جعل هذه الأفكار واقعًا ملموسًا؟».

ثم إنَّنا ضمن «نموذج الرشد» أَلِفنا أن ننبّه إلى أنَّ «سؤال الأزمة» في الفكر الإسلامي المعاصر يحوم حول «حركية الفكر والفعل»، أي أنَّ أبرز مشكلٍ حضاريٍّ عندنا يتمثل في عجزٍ وتشوُّه:

العجزُ: عجزنا عن تحويل العلم إلى عملٍ، وعجزنا عن إنزال الفكر إلى أرض الواقع.

والسقمُ أو التشوه: وهو أننا حين نعمل لا نبني عملَنا على

(1) برج البحري، فجر الثامن عشر من شعبان 1441هـ / الثاني عشر من أفريل 2020م.

علم، وأننا لا ننطلق في واقعنا الحضاري من فكرٍ.

ولذا سأبدأ هذا المقال من حيث انتهى قرَّائي الأعزَّة، وأشترط عليهم شرطين لا ثالثَ لهما، فإن هم وعدوا بالوفاء به ما استطاعوا، جازَ لهم مواصلة القراءة؛ وإن وُجِد منهم من يرفض الوفاء بالشرطين، فإني بلطفٍ شديدٍ، وحياء مديد، أرجوه أن يترك المقال، ويغادر المحلَّ، وأنا بدوري: «أودّعه، ثم أستودعه الله الذي لا تضيع ودائعه».

الشرط الأوَّل:

أن يستذكر عشرةً من معلِّميه ممن توفّاه الله تعالى، ثم يخصُّهم بالدعاء دبُر الصلاة، ويُعيِّنهم بالاسم على الأقل مرَّة واحدةً في صلاة واحدةٍ؛ وإذا كان محسنًا، فليتصدَّق صدقةً طيبة، وَلْيَنْوِ صدقته أجرا لمعلِّمه، فإني أفهم أنَّ حديث رسول الله ﷺ: «... **علم نافع، صدقة جارية، ولد صالح يدعو له**» لا يخصُّ البنوَّة بالرحم، بل يشمل البنوَّة بالعلم.

الشرط الثاني:

أن تستذكر ـ أخي أختي ـ عشرةً من معلّميك، ممن هو قيد الحياة، فتهاتفه وتتفقَّد حاله؛ وإذا كنت من المحسنين فلتزُره

في بيته (بعد انتهاء الحجر صحي بحول الله تعالى)، ولتحمل إليه هدية؛ أو إذا كنت بعيدا (في الخارج مثلا) فلتوص أحدَ أصدقائك ليأخذ هديتك إلى أعزّ معلميك؛ ولتكن الهدية عِطرا، أو زهرًا، أو كتابًا، أو فاكهةً... أي من كلِّ ما هو جميلٌ؛ فإنَّ رسول الرحمة ﷺ قال: «**تهادوا تحابوا، فإنَّ الهدية تُذهِب وحَر الصدر** (أي الغيظ والحقد)»(رواه البخاري).

ويقول ﷺ: «**إنَّ الله جميل يحبُّ الجمال**»(رواه مسلم).

هذان هما الشرطان، والمؤمنون عند شروطهم... إلَّا....

أمَّا الملاحظة الثانية الهامَّة التي ترد إليَّ من قرَّائي الأكرمين، فهي ضرورة عدم الإطالة؛ وأنَّ هذا الجيل لا يقرأ النصوص الطويلة، ولقد شبَّ على النصوص القصيرة، بل ـ بسبب النَّاتْ ـ تمرَّس الرسائل المشفَّرة؛ فلا وقت لديه ولا تركيز، إلَّا من كان من جيل المدرسة القديمةِ، التي نشّئت على القلم والقرطاس، وعلى أمَّهات الكتب، وأصول العلوم.

وحتى هذه الملاحظة سأوفي بها في مقالي هذا، وأنهيه للتو، بما يلي:

تعلَّمت أنَّ المعلّم ـ بل الإنسان عامَّة ـ حين يمرض، أو حين يشيخُ؛ فإنه وهو وحيدٌ في مهجعه، فريدٌ في حجْره الاضطراري الدائم؛ تعتريه وساوسُ ـ إلَّا من رحم ربي ـ من قبيل:

- أنَّه متوجّه إلى الموت،

- وأنَّ الحياة قد أدارت له ظهرها،

- وأنَّ الناس قد انشغلوا عنه وتركوه،

- وأنَّ أغلب الناس جُفاة أصحابُ مصالح، لا يزورون إلَّا من يطمعون في نفعه،

- وأنَّ من انتهى نفعُه فقدْ انتهت صلاحيته، ومن ثمَّ فلا معنى لتضييع الوقت في السؤال عن حاله... إلخ.

ولذا، حاولتُ وأحاول كلَّ مرَّة أن أصل أحدا ممن علَّمني، ولو حرفًا، سواءً كان ذلك في المدرسة الرسمية، أم المدرسة الحرَّة، أم في الجامعة، أم في أيّ مناسبةٍ من مناسبات التعلُّم، وفي جميع المستويات والمراحل؛

ولا أدَّعي أني وفَّيت، بل التقصير هو ديدني، والقصور هي صفتي...

لكن، مع ذلك أحاول، وأحاول، وأحاول... ولا أملُّ.

وحين بداية الكُرونا، قبل شهر بالتمام والكمال، صُغت قائمة للذين علَّموني، ولأصدقائي القُدامى، ولمن لي معه علاقةٌ ما بأيّ شكل من الأشكال...

ومن ضيَّعتُ رقمه طلبتُه من طريق قريبٍ أو بعيد...

حتى يسَّر الله تعالى لي أن هاتفت المئات ممن له حقٌّ عليَّ،

ولا أذكر أني ندمتُ على هاتفٍ واحد؛ بل العكس هو الصواب؛

فلقد أحسست بعد كل هاتف أنَّ قلبي ينشرح، وأنَّ البركات تتنزَّل عليَّ، وأنَّ جوًّا من الصفاء يغمر المكان الذي أدبُّ فيه...

ولقد والله سمعتُ مرات، من بعض من علَّمني، ومن كبار السن من رحِمي... سمعت بأذنيَّ عبر الأثير نحيبهم وبكاءهم فرحًا،

ورأيت بعين القلب دموعهم،

ووجدت بركات دعائهم،

ولا تزال ذبذباتُ كلماتهم ونبراتها ترنُّ في أذني، ولا أظنُّ أني سأنساها يوما ما...

لله الحمد، ولله المنة، وله الثناء الحسَن، وهو القائل: «وقولوا للناس حسنًا»، «وأحسن كما أحسن الله إليك»

انتهى المقال

على هامش المقال أدعو لأساتذتي ومشايخي وكل من علَّمني، وأذكر منهم للتمثيل، على عجلٍ، وأخصُّ بالذكر الأموات دون الأحياء، من أمثال أستاذي الدكتور ناصر، والدكتور موساوي حفظهما الله تعالى؛ والذين علموني مباشرة دون من علَّمني بالكتاب من أمثال مالك بن نبي، وعلي عزت، والمسيري رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ؛ شاكرا لمن نبهني ولاحظ عليَّ (عبر التعليقات) حول من لا يخفى فضلُه الدكتور ناصر؛ مع ملاحظة أني لم أراع الترتيب الزمني،

ولا الترتيب حسب الفضل والأثر... وأبدأ بـ:

معلمتي الأولى، لفن الحياة ولمعنى «أن تكون إنسانا»، جدتي لأمي حنة مرزوق (ماما زيزي)، رَحِمَهَا ٱللَّهُ.

معلمتي الأولى، لجمال كلام الله وقت السحَر، جدتي لأبي عائشة ابن ادريسو (ماما تعزيزت)، رَحِمَهَا ٱللَّهُ.

أوَّل معلم لي في المحضرة عمي عمر طلاي، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أوَّل معلم لي في المدرسة القرآنية الاستقامة، الشيخ محمد أويوسف اطفيش، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

عمي الحاج عمر نشريفي، الملاك يمشي على الأرض، من ختمتُ عنده القرآن، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

عمي حجوط، معلم المواريث، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

دادي محمد نشريفي، معلم القرآن المتفاني بلا حدود، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

سعيد خالدي، أحسن من علَّمني الرياضيات على الإطلاق، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الشيخ عبد الله كنطابلي، أبي الذي لم يلدني، من لقَّنني أصول الفكر والفلسفة؛ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الشيخ الحاج صالح بزملال، راهبُ العلم وصانع الرجال، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الشيخ حمو فخار، من نفحني بأدبه ولفحني بعلو خلقه، فتبناني لسنوات طويلة؛ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الشيخ عدون شريفي سعيد، وقد دلَّلني بروحه التي لا مثيل لها، فصاغ لي مساري العلمي؛ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الدكتور حمود حنبلي، شهيد العلم الذي قتل في التسعينيات بست رصاصاتٍ فبكيناه، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الشيخ بحيو محمد أبصير، مدير الجابرية الخلوق الأبي، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الشيخ محمد أوصالح انبانو، معلمي في المعهد الجابري، صاحب الهيبة الجميلة، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الأستاذ معروف محمد، المراقب الصارم، الأخ الأكبر للطلبة في أصعب مراحل العمر، بثانوية مفدي زكرياء.

الشيخ محفوظ نحناح، شيخي النادر المثال في السيرة النبوية بالجامعة، وفي سياسة السياسة؛ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الشيخ صالح باجو، الذي غمرني بحبه ونفحني بأدبه، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أستاذي الدكتور الهاشمي التيجاني، أستاذ التفسير من الجيل الذهبي، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أستاذي الدكتور محمد ابن بريكة، من ولج بي عالم التصوف وتزكية النفس، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الشيخ عبد الرحمن شيبان، الذي صاغ شخصيتي الصحفية في البصائر بأنقه وألقه، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الشيخ محمد الغزالي، المحاضِر الذي كان ينفحنا بروحه الدعوية من وقت لآخر، وهو معلم كل جزائري من جيلي، من

خلال «حديث الاثنين»؛ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي، الذي كان يحاضر لنا في مقاصد الشريعة بفقهه، وضلوعه في العلم؛ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الدكتور عبد الرحمن المراكبي، العالم الضليع في أصول الدين (آخر ما نشر له في صفحته الخاصة بالأنترنت، في 17 جانفي 2017م) رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيا أو ميتا... إلخ.

جميع من علَّمني، ممن ذكرته أو لم أذكره، حفظ الله الأحياء، ورحم الأموات... آمين.

الجزائر: من لها؟

الجزائر: من لها؟

(سؤال ما بعد الجائحة...
هذا أوان ثورة حقيقية لأجل الجزائر!)[1]

يقولون «لكلّ شيء من اسمه نصيب»، وأيم الله صدقوا وما كذبوا...

الجزائر (الدزاير) لو حاولتَ تصريف اسمها لانتهيت إلى ألف لفظٍ، وألف معنًى، ولأعياك طِلابها، فقط حاوِل وأدمن الطرق «ولا بدَّ لمدمن الطرق أن يلجا»...

ففي اسمها، وبين جنباتها، وعلى ضفاف زمانها، وبين حنايا أرضها، وتحت سقف سمائها، ومن سمات أهلها، وعلى مرِّ دهرها وتاريخها، هي:

جزائر: ولقد جاءَها، وسكَنها: زائرٌ، وجائرٌ، وحائرٌ، وخائرٌ، وفائرٌ، وثائرٌ، ودائرٌ، وذائرٌ، وسائرٌ، ونائرٌ، ومائرٌ، وبائرٌ...

وإذا ما نطقتها بالدارجة «الدزاير»، ففيها، وعليها، ومنها، وبها، وحول جنباتها: الدزُّ، والجزُّ، والحزُّ، والخزُّ، والهزُّ، واللزُّ، والرزُّ، والطزُّ، والبزُّ، والنزُّ...

ويجمع بين كل المعاني التي تصنع الجزائر، معنى الهيجان،

(1) برج البحري، فجر التاسع عشر من شعبان 1441هـ / الثالث عشر من أفريل 2020م.

والثورة، والحركة العنيفة، والبركان[1]...

فهي عبر التاريخ لم تعرف الاستقرار والسكون في جغرافيتها وسياستها، في ترابها وسمائها، بين إِنسيِّها وجِنِّيِّها، حين حَرّها وقرّها...

من أي زاوية أبصرتها رأيتها تفورُ وتهيج، وتضطرب وتعيج...

۞ ۞ ۞

رحماك ربي، عند ذكر الجزائر ينتابني شعوران متعارضان:

عشقٌ وهيام، وحبٌّ وغرام... إلى حدّ الخبال والجنون...

ضيقٌ وألم، وحسرة وأسفٌ... إلى حدّ القرف والغثيان...

وأنا دوما بين بين، جزائريٌّ إلى النخاع، لي على كل معنى «شاهد ودليل»، من دنيا الناس، أو من واحة الأدب؛ من عالم

(1) الجائر: اسم فاعل من جأر يجأر أي رفع صوته بالحق، أو من جار يجور أي ظلم واستبدَّ في حكمه.. الفائر: فاعل من فار؛ وفار فلان إذا طار غضبه واشتدَّ. الذائر: فاعل من ذئر، ومعناه أنف وغضب، وذاءرت الناقة نفرت عن الولد ساعة تضعه، وذئر الشيءَ إذا كرهه وانصرف عنه... النائر: فاعل من نار، ونار من النار، ونار من الأفعال التي تحمل معاني متضادة من مثل: أضاء، وانهزم، وحسن، ونفر... المائر: فاعل من مارَ، ومار الرجل إذا تدافع في اضطراب ذهابا وجيئة. البائر: فاعل من بار، أي تاه من دون هدف، أو من بارت السلعة إذا كسدت... الدز: كما في الدارجة، أي الدفع. الجز: فاعل من جزَّ الشيء إذا قطعه. الحز: من حزَّه أي قطعه، وحزَّ عليه أي زاد عليه شرفا ورفعة. الخز: الخز من الثياب ما ينسخ من صوف وإبريسم، وهو الخالص من الثياب. اللز: من لزَّ الباب إذا أغلقه، ولزَّ الناسُ إذا اجتمعوا، وإذا تضايقوا... الرز: صوت الرعد، صوت المطر، وصوت السماء؛ ورز الباب والشيء ثبته، ومن الرزة.

الفكر، أو من حقيقة الفرك وبمنطق السبب...

يقول الإمام عبد الرحمن الثعالبي:

إنّ الجزائر في أحوالها عجب
ولا يدوم بها للناس مكروه
ما حلّ عُسر بها أو ضاق مُتسع
إلا ويُسر من الرحمن يتلوه

ويقول شاعر الثورة مفدي زكرياء:

إنَّ الجزائرَ في الوجود رسالةٌ
الشعبُ حرّرها.. وربُّك وَقّعا!
إنَّ الجزائرَ قطعةٌ قدسيّةٌ
في الكون.. لحّنها الرصاصُ ووقّعا!

أمَّا الإمام عبد الحميد ابن باديس، فقد قرَّر ولِنعم ما قرَّر، وحرَّر ولِنعم ما حرَّر، أنَّ الجزائر «ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا لو أرادت، بل هي أمَّةٌ بعيدةٌ عن فرنسا كلَّ البعد... في لغتها، وفي أخلاقها، وعنصرها، وفي دينها، لا تريد أن تندمج... ولها وطن معين هو الوطن الجزائري».

وأمَّا مالك ابن نبي مهندس الحضارة، فقد ترك كلامًا محيرا، كلَّما قرأته انتابني قلق حيال الجزائر، وإذا ما التفتت يمنة ويسرة وجدت ثعابين وحيات، وأفاعي وعقارب... جميعها تتعقب الجزائر وتتصيَّدها، ولقد قال بعد أن سُدَّت في وجهه السبل، وسافر مكرها، وغادر عبر البحر نحو فرنسا التي يكرهها، قال:

«وجدت نفسي أقول، وأنا متكئ على حافة الباخرة:

يا أرضا عقوقا!..

تُطعمين الأجنبي وتتركين أبناءك للجوع،

إنني لن أعود إليك إن لم تصبحي حرّة...»

فلما عادت حرَّة أبية، تحكَّم في مقدَّراتها كثير من الجهل، ومن «القابلية للاستعمار»، ومن التبعية والخيانة للوطن؛ رغم وجود من أخلص لها، ونافح عنها، ودافع عن عرضها... غير أنَّ الفساد في كثير من الأحيان تغلَّب على الصلاح، والمفسدون كثيرا ما كانوا أكثرَ حضورا من المصلحين؛ فاضطرَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أن يكتب مذكراته عن هذه المرحلة، ويختار لها عنوانا مثيرا: «العفن» (pourriture).

واليوم، ونحن في هذا المنعرج من التاريخ، بعد حراكٍ دام طويلا، ولما ينته أمره بعدُ...

وبعدَ جائحة لا تزال خفيفةً في حق الجزائر، نسأل الله السلامة...

وبعدَ حملاتٍ شعواءَ، وحروبٍ هوجاء... ضدَّ كلِّ ما هو «جزائريٌّ»... من أعدائها وشانئيها دائمًا... ومن أبنائها وفلذات أكبادها غالبًا...

بعد كلِّ هذا، وبعدَ أن استُنزفت خيراتها،

وهُتكت حرماتها،

وأفرِغت طاقاتها،

ونالها من الحرمان ما نالها...

اليومَ، مع كلّ ذلك، وبعد كلّ أولئك... تبقى الجزائر أحبَّ أرض الله إلى نفوسنا، وأجمل أرض الله في ملَّتنا، وأسخى أرض الله في اعتقادنا...

اليومَ حان وقت ثورةٍ جديدة، ونيةٍ جديدة، وانطلاقةٍ جديدة، وعزمٍ جديد... وحزمٍ حديد...

ولن تكون هذه الثورة إلَّا صادقةً، ولن تكون سوى ثمرةً من ثمرات تقلُّبات السنين، ونتيجة لخبراتٍ من خبرات السنين...

فهل نحن فاعلون؟

هذا سؤال ما بعد الجائحة... لأنَّ الجائحة ستمرُّ، بل لقد مرَّت وانتهى أمرها بسلام إن شاء الله تعالى... ولكن يبقى السؤال الأصعب قائما:

الجزائر... مَن لها؟

في انتظار الجواب، لن نبقى مكتوفي الأيدي، سنعلنها صريحةً،

بلسان الحال ولسان الفعال، ونعاهد الله تعالى أننا سنحيا وهي عزيزةٌ، أو نموت شهادة في سبيل حريتها... نقول ونردد:

نعم... للجزائر مستقبلها...

نعم... للجزائر أبناؤها...

نعم... للجزائر علماؤها...

نعم... نعم...

وتبقى الصداقة... ويبقى الصديق

وتبقى الصداقة... ويبقى الصديق

(اللهم اجعلنا من الذين بعد إلَّا)[1]

كتبتُ قبل أعوام مقالا بعنوان «رجلُ المرحلة»، وكنتُ من يومها أمنّي النفسَ بكتابة مقال مكمِّل بعنوان «مرحلةُ الرجل»؛ فيه أعالج جدلية الزمن والدَّوْر: أيُّ وقت لأيِّ دور؟ وأيُّ دور لأيّ وقت؟

غير أني لم أدرك ما تمنيتُ، ولم أنجز التكملةَ، وسأضلُّ في أمنيتي إلى أن يشاء الله تعالى، أو أهلك دونها.

ولقد وجدتُ من اللائق استعارةَ المفهوم للحديث عن «الصاحب» و«الصديق»، ولبسط القول في «الخلّ» و«الرفيق»؛ ذلك أنَّ شحنةَ المشاعر في هذه العلاقة محرِقةٌ أحيانا، قاتلةٌ أحيانا؛ هي مثل البركان الحي لا تعرف البرودة والخمود.

مَن منَّا لم يبدأ حياته بأصدقاء من الحيِّ والجيران، أو من أبناء الأخوال والأعمام؛ مُعتقدا يومَها أنها صداقةٌ ستدومُ وليس في ذلك بدٌّ، وأنها ستتواصل ولن تنقطع أبدا.

(1) يوم 20 شعبان 1441هـ / 14 أفريل 2020م.

ثم بعد حينٍ ـ لسبب أو لآخر ـ أصابها شيء من البرودة، فاعتراها قليلٌ من التكلس؛ ثم رويدًا رويدًا انمحت تلك الصداقةُ، فصارت حُلما جميلًا، يدغدغ العواطف والمشاعر، ولا يملأ الزمان والمكان؟

ثم، أوان أعوام الدراسةِ، يتَّخذ الواحدُ منَّا صديقًا أو أصدقاءَ؛ فيقاسمهم «الحارَّة والمارَّة» (دارجة)، ويبادلهم «الأمل والألم»؛ ويبني معهم قصورا من «الأحلام والأوهام»، ثم يخطط إلى جوارهم «مُستقبله ومصيره»؛ حتى إني أتذكَّر أحدَ أعزِّ أصدقائي في هذه المرحلة، وقد خطَّطنا سويًّا لإنشاء شركةٍ كبيرةٍ «لإنتاج وتصنيع الدجاج»، بمجرَّد أن وفّقنا في تربية بضعِ دجاجات في البستان، ثم مات الدجاج ومات إثره الحلمُ... وصار كلٌّ منا إلى طريقٍ.

ثم تتفرَّع تخصُّصاتُ الأصدقاء واهتماماتهم، وينتقل البعض منهم إلى الثانويات العلمية والأدبية، والبعض الآخر إلى مراكز التكوين المهني، وينقطع آخرون عن الدراسة للتجارة أو للصنعة مما هو من متطلَّبات الحياة؛ فيجد الأصدقاءُ القُدامى أنفسهم وقد صاروا غُرباءَ عن بعضهم البعضِ، لا يلتقون إلَّا في المناسبات العفوية ابتداءً، ثم المتكلَّفة لزمنٍ، ثم تنقطع تلكم اللقاءات متَّبعة في ذلك منطق السُّنن.

۞ ۞ ۞

ثم تتشكَّل صداقاتٌ جديدةٌ بألوان الطيفِ، في مقاعد الجامعة، أو بين ثنايا الثكنة، أو مع لفح الهجرة، أو لتوثيق عقودٍ وتجارةٍ

مشتركةٍ، أو في صفوف عمل جماعيّ جامعٍ...

ومن هذه الصداقة ما يبقى ويدوم لوقت طويل،

ومنه ما ينقطع ويضطرب من حين إلى حين،

ومنه ما يخرمه بُعدُ الشقَّة والمسافاتِ،

ومنه ما يكون ضحية اختلافٍ في محور التركيز والاهتمامات...

وتبقى الصداقة معنى جليلًا، ويبقى الصديق حلمًا جميلًا...

ولكنَّ نهر الحياة الجارف قد لا يلائم بالضرورة ذلك المعنى، وقد يصادم في ظروف أخرى ذلكم الحلم؛

فتفور القلوب بمشاعر صاخبةٍ، تُبكيك أحيانا،

وتؤرّقك أخرى،

وتدفعك إلى أن تراسل في ظروفٍ،

وتتخذ لك وسائط للصلح في ظروفٍ أخرى،

وتحملك على تكلُّف النسيان في مناسبات،

وتغريك بإعادة ترميم العلاقات لأسباب...

وتبقى الصداقة... ويبقى الصديق... دائرةً تنفرج حلقاتها أحيانًا، وأحيانًا تضيق...

وتبقى الصداقة... ويبقى الصديق... ضرورة من ضرورات الحياة، كالهواء والنور، والماء والغذاء...

غير أنَّ الزمن الصعب يُبلي السرائر:

فشرائح الهواتف...

وصفحات التواصل...

وطول المكث أمام الشاشات،

وتسارع إيقاع الحيَوَات...

كلُّ ذلك أصاب الصداقةَ في مَقتلٍ، وقلَّل أفران الإنضاج والطبخ...

فصار أكبرُ سؤالٍ اليوم في تربية أبنائنا سؤالًا متكلَّفا، لا تُسعفه بساطةُ الحياة التي عرفناها قبل عقودٍ، يومَ كانَ التلفزيون بالأسود والأبيض، وكان الشارع مَرتعا للكرة و«الغمَّيضة»، وكانت الداخليات في الثانويات مكانا لبناء النفوس، ومعالجة صداع الرؤوس... وكان... وكان...

صار السؤال، على غرار «الفاستفود» (سريع التجهيز، سريع الاستهلاك، سريع الزوال) هو:

على أيّ أساس يختار الواحد صديقه؟

وهل يكفي أن ترسل له «جام» عبر الصفحة الزرقاء حتى يكون صديقًا؟

وهل ساعات اللقاء الجسديِّ، في دوائر من أصدقاءَ، على قارعة الطريقِ، والكلُّ منكبٌّ على محموله، يسبَح ويعيد، يتعجَّب ويستعيد... هل هذا الشكل من العلاقة سيدوم؟ وهل إذا دام

سيكون خصبًا ولودًا؟

أتركُ الفسحة للقارئ ليتفقَّد أبناءه إذا كان أبًا[1]،

أو ليراجع ذاته إذا كان شابا أو شابة،

أو ينظر فيمن حوله وفيما حوله إذا كان مُلاحظًا جيّدًا، صاحبَ رأي ورؤيةٍ...

أنهي المقال، وأبعث بالقبلات إلى جميع من كتب الله تعالى لي معه صداقة، أذكُره بين ثنايا قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾،

وأحمد الله أننا بحمد الله تعالى لم نلتق إلَّا في سبلِ الخير، وطرُق البر؛ وأنَّ قلوبنا لم تتلاق إلا لنصرة صلاحٍ، ومحاربة فسادٍ... غير أنَّا لا نزكي أنفسنا، ونسأله سبحانه الصفح عمَّا بدر، والعوف عمَّا صدر.. ونقول:

اللهم اجعلنا من الذين بعد إلَّا[2]...

(1) بنية العمل: أرجو من كل واحد منا فتح حوار مع أبنائه، ونحن في الحجر الصحي، عن الصداقة الصديق؛ ومحاولة التوجيه الجميل في ذلك، بلين وحكمة.

(2) استعرتُ صيغة «بعد إلَّا» من مفدي زكرياء، حين قرأ عليه أحدهم ناقما على الشعراء، قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتْبَعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾. فأجابه مفدي ببداهته المعهودة: «أنا من الذين بعد "إلَّا"». قال سبحانه وتعالى: ﴿... إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُواْ اللهَ كَثِيرًا﴾.

رجل المرحلة

رجلُ المرحلة[1]

﴿وَلَا تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[2]

قال لي: «لو كتبتَ لنا شيئا عن رجل المرحلة، لعلَّنا نستفيد في مسارنا الدعويِّ»، وقد سمعني يوما أفسِّر أمرا بهذا المصطلح الجديد الوليد.

ففكَّرت مليًّا، ونظرتُ جليًّا، ولكنَّ اليراع تأبَّى عليَّ... جفَّ القلمُ، وتصلَّبت الكلماتُ، ولم أجد حرفًا واحدًا أذيبُ به الجليد؛ وما ذلك إلاّ لأهمية الموضوع وخطورته، من جهةٍ؛ ثم للحذر من أن يفهم أحد، أيُّ أحد، أني قصدته...

انتظرتُ طويلا، حتى اطمأنَّ قلبي إلى أنَّ أوَّل المعنيين هو أنا، ولعلَّ أوَّل المنسحبين من الفريق، المتساقطين في الطريق هو أنا؛ ومَن يدري؟! ولا يزكَّى على الله أحد...

---

(1) برج البحري 21 شعبان 1441هـ / 15 أفريل 2020م.

(2) كتبتُ البارحة مقالا بعنوان «**وتبقى الصداقة... ويبقى الصديق**»، وذكرتُ في مستهلّه «رجلَ المرحلة» وهو مقالٌ يعود إلى ثماني سنين مضت، فجاء الطلب متكررا من القرَّاء الأعزَّة أن أحيلهم إلى الرابط، أو أعيد نشرَه، فوعدتهم بذلك؛ وكنت في «حَيْصَ بَيْصَ» بين أن أفيَ بوعدي، وأعيد نشر المقال كما هو، ومن القرَّاء من قرأه من قبلُ؛ أو أكتفي بمجرَّد التوجيه إلى الرابط، فأخسر مناسبة لتحيين «رجل المرحلة»؛ فاستعنتُ بقاعدة أصولية ذهبية، وهي «**الجمع أولى من الترجيح**»، ثم توكلت على الله، إنه نعم المستعان ونعم المعين.

هنالك، نزلت المعاني مِن علياء القلبِ، ثم سقت سفوحَ العقل، فاخضرَّت التلالُ الزمردية، وأورقت الأشجار الوارفة، وسال الحبرُ رقراقا بين أناملي...

فبدا أنَّ الربيع يطلُّ علينا من سامق المكان، وأنَّ الحقَّ يداعبنا ويقصِّر في الزمان؛

ثم استجبت لداعي الخير، سائلا الله القبول والتيسير؛ مستغفرا اللهَ الكريم من ذنوبي ومعاصِيَ، وهي كثيرة بلغت عنان السماء... متيقِّنا أني المقصِّر في حقِّه سبحانه، وفي حقِّ الكثيرين من أهلي وأصدقائي ورفاقي في الطريق، فقلت:

«لعلي أهدي لهم هذه الخاطرة، حبًّا ووفاء وصفاء»

ثم استعنت بالله، وكتبت هذه الكلمات:

«رجل المرحلة»[1] مصطلح منحوت عبر سنوات من العمل في الميدان، وعبر أعوام من المكابدة في مختلف المجالات

(1) المَرْحَلةُ: في اللغة: المسافةُ يقطعها السائرُ في نحو يوم، أَو ما بين المنزلَيْنِ؛ والمَرْحَلةُ: قَدْرٌ محدود من الشّيء، يقال: أنهى المرحلة الأولى من المشروع مثلا. والمَرْحَلَة هي وَحدة قياس للمسافات عربية قديمة، تعادل المسافة التي يقطعها المسافر في يومٍ سيرًا على الأقدام، أو على الدواب سيرا معتادا. والجمع مراحل. ومقدار الرحلة: 24 ميلا. وهي عند بعض المذاهب 44.52 كلم، وعند أخرى 89.04 كلم. نقرأ في كتاب «**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**» للإدريسي: «من إشبيلية إلى مدينة قرمونة مرحلة، ومن قرمونة إلى مدينة إستجة مرحلة».

الفكرية، والدعوية، والتربوية، والإدارية... وغيرها.

تحوَّل مصطلح «رجل المرحلة» بتكثيفه فكريًّا، وتطبيقية واقعيًّا، إلى مفهوم، وإلى نموذج له «قدرة تفسيرية» عالية، لكثير مما يقع فيه أيُّ مشروع، من أكبر مستوى، إلى أصغر حجم: الدولة، والجمعية، والشركة، والمؤسَّسة، وفريق العمل...

وتفصيل ذلك أنَّه من الطبيعي عندما يبدأ مشروعٌ ما، ويتنادى الناس إليه، تتشجَّع القلوب أوَّل وهلةٍ، وتكثُر الوعودُ وتنتشرُ الآمال، فيتساوى المنخرطون فيه ظاهريًّا، تماما مثل سباق للماراتون، قبل الانطلاقة، قد لا تستطيع تمييز البطلَ عن غيره: اللباسُ هو نفس اللباس، المشاعرُ هي ذات المشاعر، الوجهةُ هي عين الوجهة...

حتى إذا بدأ السباق، وتسارع الإيقاع، ظهر أمرٌ جديد؛ سمّي «التمايز» عند بعضِ الكتَّاب، وسمّي «التساقط على طريق الدعوة» عند آخرين، كما ورد عند فتحي يكن، في مؤلَّف له بهذا العنوان.

إذا لم يعتبر السائرون في الطريق أنَّ هذه ظاهرةٌ طبيعيةٌ،

وإذا لم يولوها العناية الفائقة،

وإذا حمَّلوا الناس ما لا يحتملون،

وإذا وضعوا هدفا لهم أن يصل كلُّ الناس في خطِّ النهاية، بنفس الحماس...

فإنَّ القلق سيكون سيِّد الموقف، ويستشري الظلم، وقد يُتَّهَم الناس في نواياهم، ولقد يجرَّمون أو يغرَّمون، أو يقال لهم:

خُنْتُم القضية!.

وفي هذا المنعرج البنيويِّ الخطير، الذي لا تعدمه أيُّ مسيرةٍ، يكثُر اللغط، ويعظم الشطط؛ وكثيرا ما يخوّن البعضُ البعضَ الآخر، وإذا تمادى الجميعُ في الشدّ والهدّ، وإذا ما استقصوا في حقهم، واعتقدوا أنَّ الحق أبدا إلى جنبهم؛ فإنَّ الانحراف سيكون هو القاعدة، وإنَّ المشروع سيرتطم بحجرٍ أو شجرٍ، قد يودي به إلى الزوال، أو يودي بأهله إلى تغيُّر الأحوال.

والصوابُ، أنَّ ثمة فرقًا شاسعًا بين «الخيانة» و«المرحلة»، بينما الخيانة كبيرةٌ من الكبائر؛ حتى إنَّ تولّي الدبُر يعدُّ من السبع الموبقات عند الله تعالى؛ فإنَّ اعتبار المرحلةِ طبيعيٌّ، يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار. قال جل من قائل:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا اِلَّا وُسْعَهَا﴾،

وقال سبحانه وتعالى:

﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾، ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾...

ولكن يبقى السؤال: بماذا نفسِّر هذا التساقط؟

الجواب هو، والله أعلم: نفسِّره بالمرحلة؛ ونقول:

ثمة رجال مؤهَّلون للمرحلة الأولى، وآخرون للثانية، وللثالثة... وهكذا؛ وقليلٌ من الناس من يتحمَّل جميعَ المراحل، أو يحتمل كلَّ الأطوار؛ فكلُّ واحد من الناس معرَّض للوعك، أو التعب، أو الملل، أو حتى الشكِّ في المشروع نفسه... وحينها، نبحث عن المخرج، وعن المنفذ، كيفما كان الأمر.

• فبعض الناس يجد المخرج في الثورة الشمولية، والانقلاب الكلي، على المشروع والبرنامج...

• وبعضهم الآخر، يحدِث الفوضى والضجيجَ، حتى يبرِّر انصرافه ولا يُتَّهم بالخيانة...

• والبعض الآخر، يفضِّل الصمت والانزواء في مكان قصيٍّ، حتى يختفي عن الأعين...

• وفريق رابع، يبقى بجسده وحضوره الظاهر، ويغادر بروحه وقلبه وإيمانه، فتراه هنالك وهو ليس هنالك...

وتمام المعنى أن نعلم أنَّ للانصراف من السباق (الماراتون) أشكالا وألوانا، وصيغا وإبداعات... وأن نتيقَّن أنه قد يحدث هذا الانسحابُ لدى جميع الأصناف: القائد، والجندي، والعامل، والموظف، والمتطوع، والمنفق، والمشجع، والمنخرط، والمجاهد... إلخ.

والمقرَّر عقلًا وواقعًا، أنه لا يخلو صنفٌ من هذه الأصناف من كونه «صاحب مرحلة»، ولا يخلو رجل منهم من صفة «رجل المرحلة».

ولِذا يتعيَّن ابتداءً، أن نتعامل مع الصورة والحادث بمعقوليةٍ وصدقٍ، لا بتشنج وخرَق، ومن ذلك:

• أن لا يُنسى فضلُ أحدٍ مهما كان في قوله وفعله، ومهما بدر منه من صواب أو خطأ، مصداقا لقوله تعالى ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، سواء في ذلك فضلُ مَن بقي، أو فضلُ من انصرف. فإنَّ

تمام الآية دالٌّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

● العدلُ ملاك الأمر كلِّه، لقوله تعالى ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾. فالعدل العدل تُرحموا وتُنصروا.

● أن لا يُعتقد الصواب المطلق في جهة (التي بقيت مثلا)، والخطأ المطلق في الجهة الثانية (التي انصرفت غالبًا)، ذلك أنَّ المسألة تقديرية وليست من أصول العقيدة؛ فقد يكون الصواب والخطأ موزَّعا بين الطرفين، طبعًا بنسب تختلف؛ ويختلف الطرفان في تقديرها.

● أن يتحلَّى الطرفان «بالعفو والصفح» لوجه الله تعالى، لا لاعتبارات وحسابات ضيقة؛ وأن لا يحملوا الحقد والحنق، مصداقا لقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

● أن يَبحث ذلك المشروع ـ الفريق، المسيرة ـ عمَّن يليق بالمرحلة الجديدة، بلا توانٍ ولا تسويفٍ؛ فلا حرج في ذلك، وهذا الفعل لا يعني الخيانة أو التخوين، أو التنكُّر لما مضى وفات، أو الظلم لمن تعب أو توقف، أو حتى وجد ما هو أفضل مما كان فيه.

● أن لا يتوقف المنسحِب عن «الجهاد والاجتهاد» ضمن صيغ أخرى، أو مشاريع أخرى، أو مؤسَّسات أخرى... قد يجد أنها أكثر ملاءمة لطبعه، ومستواه، وفكره، ورؤاه. قال جلَّ من قائل، وهو أصدق قائل: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ﴾.

• أن يعلم الكلُّ أنَّ الحياة، بالجميع ستواصل مسيرها، دون الجميع سوف تواصل مسيرها، فلا تتوقَّف الحياة أبدا على فئة، أو فرد، أو عصر، أو مشروع... وهذه سنَّة من سنن المولى عَزَّوَجَلَّ، لم تُخرق حتى لخيرِ العباد، سيدنا محمَّد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «وما محمَّد إلَّا رسول، قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم؟ ومن ينقلب على عقبيه، فلن يضرَّ الله شيئا، وسيجزي الله الشاكرين».

والشاهد هنا، هو أنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ماتَ، ولم تتوقف الحياة، وما ينبغي لها أن تتوقف أبدا.

• ليركِّز مَن بقي في ذلك المشروع، على فكرة «رجل المرحلة»، وليصِلْ وليرحَم، ثم عليه أن لا يضيِّع وقته في البحث عن المبرِّرات، وفي تفسير الاختلافات؛ لأنَّ مثل هذا قد يستهلك الطاقة، والوقتَ، وقد يلتهم الدين، والصداقة، والعلاقات كلِّها...

ومثل ذلك يقال لمن (وعمَّن، وفيمن) انصرف، ووجد اختيارا آخر؛

فالغاية أكبرُ وأعظم من أن نشوّش عليها بالجزئيات والتفاهات والخلافات...

كان خالد بن الوليد عليه شآبيب الرحمة، فداه أمِّي وأبي، قائدا فذًّا، وسيفا لله مسلولًا، ومثالا للحنكة والحكمة، وعنوان

الشجاعة والإقدام؛ ثم مات نبينا عليه الصلاة والسلام، وهو على ذلك، ثم مات أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو على ذلك؛ ومرَّت مرحلة من خلافة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو على ذلك...

حتى إذا اقتضت الظروف، وتطلَّبت مصلحة الأمَّة، أن يحوَّل خالد إلى مَقود، وقد كان قائدا، جاءته رسالة التعيين الجديد، وهو في معمعة الحروب والفتوحات؛ فكيف تصرَّف، وكيف تلقَّى الأمر؟!

إنه «نسيجُ وحدِه»، ودرَّة زمانه، ولذا أحسنَ اليومَ الانقياد، كما أحسن من قبلُ القيادة؛ فتقبَّل الأمر بصدر رحب، ثم بعد أمدٍ، جاءه المرض وهو على الفراش، لا فوق صهوة الخيل؛ وتقبَّل كلَّ ذلك، باعتبار أنه «رجل مرحلة»، وأيّ مرحلة؛ وأنه ترك المفاتيح بيد شباب، هم كذلك سيبلون البلاء الحسن، ثم تنتهي مرحلتهم، وهكذا دواليك، والأيام دول.

فهل كون خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صاحبَ مرحلة يضرُّ به، أو يؤذيه، أو يخدش في كرامته؟!

كلَّا، ثم كلَّا، لم يزده فهمه لهذا المعنى، إلَّا رفعة ومكانة عند الناس، وقبل ذلك شأوا وشأنا عند رب الناس؛ وهو الذي لو شاء تمرَّد، ولو شاء لشقَّ الأمَّة شطرين... ولكنه، بنور الله يبصر، ومن مدرسة خير البرية تخرَّج، وإلى الله يسير، وإليه المصير... فهو «نعم المولى ونعم النصير».

مواقف أبكتني

(مِسك الختام، هدية للقراء الكرام)[1]

من أجود الشعر شعرُ أبي فراس الحمداني، يقول عنه الصاحب بن عباد: «بُدِئ الشعر بملِكٍ، وخُتم بملِكٍ»، الأوَّل امرؤ القيس، والثاني أبو فراس.

خلَّف أبو فراسٍ ديوانا من الشعر، نُشِر بعد وفاته، أنصحُ كلَّ عاشقٍ للأدبِ الأصيل الأسيل أن يقرأه، ويحفظ منه ما استطاع، فإنه سيكون له زادًا ومددًا؛ ومنه أنقلُ هذه الجواهر والدرر، ذلك أني أتمثَّلها، فأجد بين حناياها بعضًا مني، وأقرأ من بين ثناياها سبائك جهري، وكوائب سرّي؛ وفيها يقول:

أراكَ عصيَّ الدمع شيمتك الصبر
أمَا للهوى نهيٌ عليك ولا أمرُ؟
بلى أنا مشتاقٌ وعندي لوعة
ولكنَّ مثلي لا يُذاع له سرُّ
إذا الليل أضواني بسطتُ يدَ الهوى
وأذللتُ دمعًا من خلائقه الكبرُ

(1) برج البحري، 22 شعبان 1441هـ / 16 أفريل 2020م.

تكادُ تضيء النارُ بين جوانحي
إذا هي أذكتها الصبابة والفكرُ

فأنا مثل أبي فراسٍ لستُ عصيَّ الدمع، ولكَم خانني دمعي، وفضح كوامن قلبي؛ ولكَم بكيتُ بكاءَ الثكالى في مواقفَ لم تبقي مني شيئًا ولم تذر؛

سأنقل أمثلة منها هدية لكلّ قارئ صبرَ معي كلَّ هذه المدَّة من «الحجر الصحي»، لتكون هذه المقالةُ «مسكَ الختام» في هذا «البرنامج العلميّ البكوريّ»، من «مقالات السحر أوان الحجر الصحّي، عند نزول جائحة الفيروس التاجي»؛

ثم نستعدُّ بحول الله تعالى لرمضان وهو على الأبوابِ، ويكونَ لنا بإذن الله سبحانه برنامجٌ آخر من الدعوة مَليل، وشكلٌ مغايرٌ من الفكرُ يلائم هذا الشهر الفضيل.

القصَّة الأولى:

مع بدايات «المدرسة العلمية الجديدة» قبل حوالي عشرين عامًا، كنتُ أمارس تفاصيل الإدارة مُشرفا على المشروع، وكان أصعبُ ما نُعانيه ـ ولله الحمد ـ ولا نزال؛ كثرةُ الطلبِ، وضغط التسجيل؛ ولقد كنتُ يومًا في مكتبي، فدخلَ عليَّ رجل وامرأة وابنهما؛ وجلسا ثم شرعا في الحديث؛ وكان حديثهما شكوى من إدارة التسجيل بالمدرسة أنها لم تقبل ابنهما في الصف

الأوَّل؛ وكانا يريدان مني شفعةً أو معاملة خاصَّة؛ إلَّا أني حين نظرتُ في قائمة الطلبات التي تنتظرُ، وفي الطابور الطويل الذي يترقَّب؛ وفي شروط القبول أو عدم القبول؛ اعتذرتُ لهما بحياءٍ، وقلت لهما قولا معروفا.

قام الرجلُ متثاقلا، وبقيت زوجته على الكرسي، والطفل في شدهٍ ينظر إلى والديه؛

انفجر الرجلُ ببكاء مبرحٍ،

وسالت خدود المرأة دمعًا غزيرًا؛

وجَم الطفل وأطرق وهو لا يدري ما الذي حدث؛

ثم استأذنا فخرجا من المكتب، ونزلا أدرج البناية؛ وانصرفا...

بقيتُ لبرهة في حالة ذهولٍ، وكنتُ مطمئنَّ البال أني لم أظلم أحدًا، ولم أستجب للعاطفة لحساب أحدٍ، على حساب آخر؛ غير أني سرحتُ بخيالي بعيدًا، ورأيتني يوم القيامة، والله تعالى يسألني: لمَ لمْ تستجب لهذا، والحال أنه جاءك مقبلًا؟

فانفجرتُ بالبكاءِ، واستغفرت الله من ضعفي، من يومها وأنا أتألَّم من هذا الموقف الجلل...

۞ ۞ ۞

القصَّة الثانية:

في مصلى أبي عبيدة، كانت الأيام مثل التي نحياها اليومَ،

قُبيل رمضان من شهر شعبان؛ وألقيت درسًا ليلة الجمعة في فضل رمضان، وفي فوائد الصوم، وفي أجر الصائم؛ ولعلّي بالغتُ بعض المبالغة في التشويق والترقيق.

ثم انتهى الدرس، وصلينا العشاء، وذهب كلٌّ إلى سبيلٍ؛ وفي الشارع استوقفني رجل نحيل الجسم، أسيل الوجه، جاحظ العينين، تبدو عليه علامات الذهول؛ فقال: «اسأل اللهَ تعالى أن يغفر لي، وأن يخلفني في مصيبتي؟».

قلتُ: «غفر الله لنا جميعا، ورفع عنك كلَّ همّ وغمّ».

قال: «بينما كنتَ تعدّد أفضال الصوم، كنت أنحبُ، ذلك أني...».

سكتَ برهة ووجه عينيه إلى أسفل... وقال:

«...ذلك أني محروم من تلك الأفضال... فأنا لا أصوم مثل الناس...».

قلت: «ماذا تعني؟».

قال: «أنا مصابٌ بمرض مزمنٍ يحرمني من الصوم، ولقد حُرمت من الأجر... فانطلق في البكاء...».

فما أجبته، ولكن صبَّرته بكلمات مرتجفة، وقلت: «أنت مأجور بحول الله تعالى أكثر منا»... وودعَّته وانصرفتُ...

وأنا في طريقي إلى بيتي، كانت الدموع تنهمرُ، وأنا أفكر وأعيدُ في نعمة الله عليَّ، نعمةِ سلامة الجسد لأداء الشعيرة

الطيبة الصوم؛ ثم أسلت دمعا أفتك وأهلك، وأنا أفكّر في ناسٍ وُهبوا تلك النعمة، نعمة الصحَّة، بينما هم لا يصومون اختيارا لا قهرًا... ترى ما مصيرهم؟

القصَّة الثالثة:

التقيت في مدينة من مدن التلّ الجزائري بشابٍّ وسيم، كامل القامة والقوام، ثم بعدَ أيام سافرتُ إلى مدينة أخرى، والتقيت بوالد ذلك الشاب، وهو يعمل في التجارة؛ وكان في السبعين من عمره أو يزيد؛ فلمَّا سلَّمت على الوالد، وبعد أن تعرَّفت عليه؛ أردتُ من قبيل الإحسان أن أسليه، فذكرتُ له ابنه، وقلت:

«هو يسلّم عليك، ويقول إنه مشتاق إلى رؤيتك».

فزع الرجل، وانقبضت عضلات وجهه؛ ورمقني بعيون حائرة، وقال:

«هل أنت متأكد مما تقول؟».

قلت: «طبعا، وهل في ذلك شكٌّ».

قال: «أرجو أن تكون دقيقا، وأن تصدُقني القولَ، ذلك أنَّ ابني لم يزرني، ولم يُلق عليَّ السلام، منذ سنين، فأنا وهو في خلاف طويل...».

قلت: «صدقتَ، هو لم يسلّم عليك لفظًا، وإنما من عادة الناس

أن تفترض السلام من أحد لآخر إحسانا، لا واقعا».

ثم سكتُّ، وودَّعته، والدمعُ يسيح من عيني، كيف لوالدٍ وما ولد أن يفترقا لأعوامٍ، والحال أني إذا غاب عني والدي لأسابيع تضيق بي الدنيا بما رحُبت...

بكيت حمدا وشكرا،

وبكيت خوفا ووجلا،

وبكيت شفقة ودعاء..

۞ ۞ ۞

على وقع الدموع والشعر أودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه، وأقول على إثر المتنبي:

كفى بكَ داءً أنْ ترَى الموْتَ شافِيَا
وَحَسْبُ المَنَايَا أنْ يكُنّ أمانِيَا

إلى أن يقول:

خُلِقْتُ أَلُوفًا لَوْ رَحلتُ إلى الصّبَى
لَفارَقتُ شَيبي مُوجَعَ القلبِ باكِيَا

أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه، والسلام عليكم ورحمته تعالى وبركاته...

۞ ۞ ۞

البدايات والنهايات

الفصل الثاني

جائحة الفيروس التاجي: البارحة، اليوم، وغدا[1]

(جزائرنا بين خيارين: أحلاهما مرٌّ)

هذا الذي أكتبه ليس مقالًا، هو خاطرة بكوريَّة سريعة؛ وليدةُ ملف صوتي من صديقٍ عزيز، هو الدكتور سفيان بوستة، من جامعة ميغيل، تخصُّص علوم النوم والأعصاب؛ قال لي: «الوضع في الجزائر مستقرٌّ إلى حدٍّ بعيد؛ ولكن عندنا نحن هنا، في أمريكا وكندا، لا يزال الفيروس يحصد الكثير، فقط في مونتريال أكثر من عشرين ألف حالة... ولا يزال الحجر الصحي صارما...»

قلت له: «نسأل الله السلامة لنا ولكم، وسؤالنا نحن في الجزائر: هل نتوجه نحو الأحسن، أم نحو الأسوء؟»

الله أعلم،

ولا أحد غيره يعلم».

وبعد الحوار تذكرت ـ حامدا الله تعالى ـ أنَّنا قبل شهرين كنَّا على أهبة استقبال جائحة كُرونا (**كوفيد 19**) في الجزائر؛ وكانت صورة إيطاليا تُشعل عواطفنا، وكان الكثير منا يتوقع أن نبلغ ما بلغته من مناظر فظيعة مريعة، وكان البعض يهدد أنَّ الأمر عندنا سيكون أسوء حالًا؛ بالنظر إلى ظروفنا الوقائية،

(1) فجر الجمعة، 22 رمضان 1441هـ / 15 ماي 2020م؛ برج البحري.

وحالة مؤسَّساتنا الصحِّية... وكان العشرون من أفريل هو الموعد المحتوم لذروة الوباء[1]...

وكان... وكان...

اليومَ، بعد كلِّ ما تحقَّق من جهودٍ في جميع الأصعدة والمستويات، الرسمية وغير الرسمية، المرضية وغير المرضية، الحسنة والأقل حُسنا... اليومَ، بدا أنَّ الأمرَ أقلُّ سوءًا مما كنَّا نتصوَّر، على الأقل في مستوى الوفيات، إذ لم نسجل تلك النسبة العالية والكارثية للدول الكبرى، من مثل أمريكا الصريم، وفرنسا الغريم...

وغدًا، بعد بداية فك الحصار عن الحجر الصحي، نقع بين تفاؤل وتشاؤم، خوفٍ ورجاء؛ فمِن جهة لا بدَّ من موازنة بين آثار المرض وآثار التدهور الاقتصادي؛ ومن جهة اخترنا الإنسان على الدولار؛ ولكن ثمة تفاؤلٌ مشوب بالحذر، أنَّ الأمر لم ينتهِ بعد، وأنَّ ما بعد كُرونا سيكون أصعب، وأعقد، وأخطر من أوانها...

كيف ذلك؟

يُفترض أن يستفيق الناس على وضع اقتصاديٍّ صعب جدا،

(1) كتبت هذه الخاطرة، وقد بلغ عدد المصابين بالفيروس:
• في أمريكا: 1,45 مليون، وعدد الوفيات: 86.541. • وفي فرنسا: 141 ألف حالة، وعدد الوفيات: 27.425. • وفي كندا: 73.401 حالة، وعدد الوفيات: 5.472. • وفي الصين: 82.933 حالة، وعدد الوفيات: 4.633. • وفي الجزائر: 6.442 حالة، وعدد الوفيات: 529. وفي العالم كله: 4,44 مليون حالة، وعدد الوفيات: 302 ألف (مع ضرورة التذكير أنَّ هذه ليست مجرد أرقام، بل هي نفوس وأرواح بشرية، ولا يخفى ما للروح عند الله تعالى من قدر).

ويمتد ذلك إلى الوضع الاجتماعي، والتربوي...

وأن تتحرك جهاتٌ من الداخل والخارج في تسويد صورة الجزائر (ولقد شرَعت)، حتى لا ينسب لها ـ شعبا ودولة ـ أيُّ إيجابية تُذكر؛ فنسبة الإيجابية إلى الجزائر «عورة وعيب» عند المتربصين.

وأن يكون ثمة دائما من يبذل الغالي والنفيس لأجل الوطن، رغم صعوبة المهمَّة؛ ورغم الصدمات التي يتلقاها في يومياته، جراء الضعف، والكسل، والفشل، والإدارة، والذهنيات، والترسبات... إلخ.

وأن يُطلب من الناس التحمُّل والصبر، ولكن إلى أيّ حدٍّ؟

وأن تتحرك الدوائر العالمية، بخاصة القريبة منا، لإحداث مناورات إرهابية هنا وهنالك، ثم تنسبها إلى الإسلام كالمعتاد؛ حتى تدير الرأس والانتباه عن فشلها في إدارة الأزمة (لعلَّ فرنسا مع مشكلة النقاب والكمامة بدأت في هذا المسار).

وأن ننسى العدوَّ المشترك، والقيَم الكبرى التي تجمعنا، ونتذكَّر الخلافات التي كانت بيننا؛ فهل نتجاوزها؟ أم تكون لنا وحلا نحو الحركة والانطلاق، مرَّة أخرى؟

وأن يكون الاستعداد الداخليُّ أكبر وأكبر، أوكد وأوكد... وهل نحن على أهبة الاستعداد للتضحية وتناسي الخلافات، والعمل يدا بيد رغم كل التباينات؟

أن يكون من واجب الفلاح والصانع والتاجر والحرفي مضاعفة

الإنتاج، والتقليل من هامش الربح... ومن واجب المعلم والتلميذ والأستاذ تدارك التأخُّر في تحصيل العلم... ومن واجب الإداريّ والعسكريّ، والخدَميّ والسياسيّ تحسين الأداء ومحاربة الفساد بكل أشكاله... وفي المحصلة: «يلزم تغليب لغة الواجبات على لغة الحقوق» ممن ألف المطالبة بالحقوق منذ عقود.

وأن يكون الصراع العالميُّ في أشده بين قطبين كبيرين (نازل غربي، وصاعد شرقي) فنُستدعى للتخندق (معنا أو ضدنا)، ولكل خيار تبعاتُه؛ بخاصة أنَّ النفس والعقل اليومَ يميلان إلى الشرق، وأن الغرب هو الذي أذاقنا ولا يزال كلَّ المحن التي نحن فيها...

وأن تكون نيران الجوار، بخاصة ليبيا أشد إحراقا وإيلاما، ولقد تتسرَّب بعض الشظايا إلى الجزائر؛ إذا لم يحفظ الله تعالى، وتخمد الفتنة عاجلا...

وأن... وأن...

ويبقى الرهان على الإنسان، في أبعاده الكونية الكلية: الإيمانية، والأخلاقية، والعلمية، والتربوية، والفنية، والصحية...

ولا يمكن للجزائر أن تبقى أبدا ذيلا لغيرها: «ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا»؟!

جزائرنا اليوم بين خيارين «أحلاهما مرٌّ»!

حفظك يا ربّ... سترك يا ربّ... عافيتك يا ربّ...

ترموماتر الطاعة والمعصية

(هدية ليلة القدر، لكل عزيزٍ عليَّ حبيبٍ)[1]

مَن ظنَّ أنَّ أمر النفس يسيرٌ، فقد أخطأ التقدير،

ومَن ظنَّ أنَّ العقل هو الذي يضبط إيقاعَ الحياة، فقد جانَبَ الصواب؛

ومَن ظنَّ أنَّ الطاعة والمعصية من شؤون الغيبِ، لا دورَ لعالَم الشهادة فيهما، فقد خالف منطوق كلام الله تعالى.

ثمَّة مؤشّر و«ترمومتر» داخل كلّ واحدٍ من بني البشر، ما لم تتشوَّه خِلقته، وما لم يفسد خلُقه، وما لم يرِن على قلبه، وما لم يجحَد ربَّه، وما لم يُدِر ظهره للحقّ؛ هذا الجهاز النابض مرهفُ الحسِّ، دقيقٌ جدًّا، لا يوجَد من بين آلات بني البشر ما يُضاهيه أو يقترب منه في روعة الصنع، وفي عظمة الصَّنعة.

أنا، وددتُ مشاركة القارئ بعضَ ما أجده من دقَّات هذا الجهاز، فيما أسميه «الضمير»، «أو النفس»، أو «الصدر»، أو «القلب»، أو «الفؤاد»... لا تشغلني الكلمات عن حقيقة المعنى، فهي جميعا عنوانٌ لأمرٍ واحدٍ؛ وذلك أنني حين أطيع الله سبحانه وتعالى، أو حين أعصيه جَلَّجَلَالُهُ؛ فإنَّ هذا «الذي في داخلي» يتحرَّك ويدقُّ،

(1) برج البحري، الجزائر العاصمة؛ فجر الثلاثاء 26 رمضان 1441هـ / 19 ماي 2020م.

ويبشّر أو يُنذر؛ ولو قدرتُ أن أسجّل نبضاته لفعلتُ، أو لو استطعت أن أرسم طيفَه لما ترددتُ؛ ولكن هيهات، فهو فوق «ذبذبات الصوت»، وفوق «أطياف الصورة»؛ هو أعلى مقامًا من عالَم المادَّة بأشواطٍ؛ ولذا أكتفي بقلبِ كلّ قارئ، وهو جهاز يلتقط به ما أقوله، لا يخطئ ولا يحيد.

وبيان ذلك، ما يلي:

1. كم من بابٍ للخير، وكم من نعمةٍ لطالَما ترقَّبتُها وعملت لأجل استحصالها؛ ثم اقترفتُ معصية، فرأيت ذلك الخير يغادِر وتلك النعمة تبتعد حتى تختفي؛ يا حرستاه على ذلك .../ ... وكم من بابٍ للشرّ، وكم من نقمة بدت لي عيانا وهي تقترب مني، ثم اجتهدتُ في طاعةٍ من الطاعاتِ؛ فإذا هي تخفُت ثم تهرب مني حتى تتبخَّر؛ ألا ما أسعدها من لحظةٍ، تلك التي أحسُّ فيها هذا المعنى الجليل.

2. حين أعصي الله تعالى، يتعكَّر مِزاجي، وتسوءُ علاقتي بمن حولي، فأجد ذلك في نبضات قلبي، وفي نبرات صوتي، ولا أقدر على ردّه مهما بالغتُ في التمثيل والتضليل؛ ثم تمنيت أن لو ابتلعتني الأرضُ من تحتي، أو خرَّت عليَّ السماءُ من فوقي .../ ... وحين أطيع الله سبحانه، يطمئنُّ قلبي، فيصفو حالي، وأجد بردا وسلاما في قرارة نفسي؛ فتحسُن علاقتي بمن حولي؛ ألاَ ما أجملها من ساعاتٍ، وما أجلَّها من أوقات، لو طالت ولو كانت العمرَ كلَّه.

3. أوَّلُ ما يبردُ بُعيد المعصية فيَّ صلاتي، وإني مهما بالغتُ

في التطهُّر، وأطلت في الوقوف بين يدي ربي، إلَّا أنَّ المعصية تُصيب ركوعي وسجودي، وقيامي وقعودي، وتلاوتي وذكري: تصيب كلَّ ذلك بعاصفةٍ ثلجية حتى تتجمَّد، ولا أجد لها الحلاوةَ ولا الهدوءَ المألوف في الصلاة .../ ... وحين أطيع ربي، وأحسن الطاعة له سبحانه، فإنَّ صلاتي تتحوَّل إلى جنَّة من جِنان الدنيا، فتخضرُّ وتورِق ثم تثمرُ، وما إن ألج فيها حتى يلين قلبي بالذكر، وتغزُر عيني بالدموع، وأرجو أن لا أشهدَ خاتمة الصلاة، وأن يَقبض ملك الموت روحي وأنا في هذه الحال.

4. أقفُ أمام الناس واعظًا أو محاضرا، معلِّما أو موجّها؛ ووالله إني حين أفعلُ ذلك وقد تلبَّستُ بمعصية مهما بدت صغيرةً ـ ولا صغيرة في حق الله تعالى، لولا فضله علينا ـ، والله إنَّ صقيع كلماتي يُصيبني أنا قبل أن يطال من يستمع إليَّ؛ ولا ينفعني ـ شرو نقيرٍ ـ تنميقُ الألفاظ، ولا التحضيرُ الجيّد، ولا التحكُّم في الموضوع، ولا محاولةُ الإقناع؛ وإني غالبا في هذه الحال أنفُر من موعظة الناس، معتقدا أني أوَّل من يجب أن يوعظ قبل أن يعظ .../ ... لكن حين أكون محاطًا بالطاعة، أجدُ لكلامي أثرا على نفسي أولا، ثم ترتسم علاماتُ ذلك في تقاسيم وجهي، وأحسُّ أنَّ من يستمع إليَّ يتلقَّى الرسالة كاملةً، مِن القلب إلى القلب، بلا واسطةٍ؛ حقًّا ما أروع تلك الوقفة، وإنها لمن مُتع الدنيا الفائقة الجمال، لا تضاهيها متعة فيما أعلم.

5. للدعاء في حياتي مكانةٌ خاصَّة؛ ولكن حين أدعو الله تعالى، وقد تمرَّغتُ في ذنبٍ، أستحي من الله تعالى الذي أدعوه، وأكون

متيقّنا أني لستُ أهلا لأن يستجيب لي، ولولا تعلُّقي بعتبات بابه سبحانه، ولولا معرفتي بمدى عفوه وكرمه، لما دعوتُ، ولما رفعتُ أكفَّ الضراعة إلى السماء قبل أن أمحو تلك المعصية من سجلّي؛ ولكن ما حيلتي والدعاء ممحاة الذنوب؟! .../ ... أمَّا حين أتمرَّغ في طاعةٍ، وأرعى في سفوح جنَّاتها الوارفة الظلال، فإنَّ دعائي أجدُ له قبولًا مُتحقَّقا؛ إن عاجلًا أو آجلًا؛ حتى وإني أحيانا أكون على يقين تامٍّ أنَّ الله تعالى قد استجاب لي، لا لمعرفتي بذلك، حاشا؛ لكن أعلل النفس بحديث قرَّة عيني محمد ﷺ: «**إنَّ مِن عباد الله مَن لو أقسم على الله لأبرَّه**»(رواه مسلم).

6. مع المعصية يضطربُ نومي، فيكون ثقيلًا أحيانا، وأصَاب بالأرق أحيانًا؛ ينتابني الكسلُ الشديدُ، أنام في غير وقتِ النوم (البكور مثلا)، وأستيقظ في غير زمن اليقظة (بداية الليل مثلا) .../ ... أمَّا مع الطاعة، فإني أتحوَّل إلى «ملاكٍ»، أضع الرأسَ على المخدَّة فأستغرق في نومٍ عميقٍ وأنا لم أنْهِ تلاوة فاتحة الكتاب بعدُ؛ ثم أستيقظ باكرًا، وأجد حلاوة السحَر، وتكون القيلولة جنَّتي؛ والبكورُ متجري ومصنعي ومدرستي؛ وشتَّان بين حال وحال؛ لكأنِّي إنسان آخر، ما أبخس شأنه حين يعصي، وما أغلى شأوه حين يُطيع.

7. يطوف بي الخوفُ من كلّ جانب حين أعصي الله سبحانه؛ وكأنني المعني بقوله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾[المنافقون: 4]؛ فكلَّما انتابني أمرٌ انتفخَ رأسي، وتملَّكني الاضطرابُ الشديد،

وتوجَّستُ خيفة من كلّ ما حولي ومن حولي؛ إلَّا أنَّ هذه الحالة نادرة جدًّا في حياتي، ولله الحمد .../... أمَّا مع الطاعة، فإنني أقابِل الرياح العاتيات، وأواجه الشدائد القاسيات، وأقفُ أمام صروف الدهر الهاتكات، بصبرٍ وثباتٍ، وجلَد وأناة، ثم هي تذوب في عيني بعد أمدٍ قصيرٍ؛ وأعيش في أفق البطولة ولست بطلا (كما يقول أستاذي علي عزت)، وإذا الجبال تصير سهلا (بعبارة شيخي عدون).

لولا أن أطيل عليك أخي أختي، لواصلتُ السردَ في بيان مؤشرات الطاعة، وعلامات المعصية، في قرارة نفسي وجوف صدري، وفي حُشاشة قلبي وضميري؛ وأنا على يقينٍ أنَّ الواحد منكم يجدُ ما أجد (من الوَجْد)، وقد تكون له مقابلاتٌ أخرى بين الطاعة والمعصية، ولكن شريطة أن يتعلَّم السماعَ لنبضات قلبه، وأن يُرهف حسَّه بالذكر، وأن لا يميت قلبه بالإصرار؛ فإني كلَّما أصررتُ على معصيةٍ ضاقت عليَّ الأرض بما رحُبت، وضاقت عليَّ نفسي بما وسعت، إلَّا أن أظنَّ أن ﴿لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾، وكلّي أملٌ ورجاءٌ أن تشملني بقية الآية: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

ومن جميل ما تعلَّمت من رسول الرحمة محمد ﷺ، أن أطلُب الدعاء من غيري، وبخاصَّة ممن أحسب أنه قريب من الله سبحانه بخالص إيمانه وصالح عمله، ولا أزكي على الله أحدا؛ ولقد روي أنَّه ﷺ قال يوما لأصحابه: «**يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمدادٍ من أهل اليمن (...) له والدة هو بها بَرٌّ، لو أقسم على الله لأبرَّه،**

فإن استطعت أن يستغفر لك، فافعل» (رواه مسلم) .

ويروى عن رسولنا محمد ﷺ أنه قال لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حين أراد العمرة: «**لا تنسانا من دعائك**»، قال عمر: «كلمةً ما يسرني أن لي بها الدنيا». وفي رواية، وقال: «**أشركنا يا أُخيَّ في دعائك**» (رواه البخاري).

وإني أغتنم الفرصة، وأنا ضنينٌ بالحسنات، حريص على حَصادها؛ خائفٌ من السيئات، مبغضٌ لنَتنها؛ أغتنم الفرصة أن أطلُب الدعاء من كلّ قارئ لمقالتي، ولقد سبقتُه بالدعاء لله تعالى أن يغفر له ذنبَه، وأن يرفع عنه الفتن كلَّها، ما ظهر منها وما بطن، وأن ينجيه من الغلاء والوباء والبلاء؛ وأن يُميته على الطاعة، وأن يرحم والديه، ويُصلح أهله، ويجمعنا جميعًا في الفردوس الأعلى مع ﴿النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَآءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾[النساء: 96].

وآخر حديثي بيتٌ عزيز عليَّ، حبيبٌ إلى قلبي، يشكّل نموذجا من «نماذجي الإدراكية»، كلَّما تذكرته اهتزَّ كياني، وهو للشاعر الفحل أبو العتاهية، ولقد تمثَّله كثير من العلماء العاملين في خطبهم ومواعظهم، وهو قوله:

أحسَنَ الله بنا أنَّ الخطايا لا تفوحُ
فإذا المستورُ منَّا بين جنبيه فَضوحُ

وأجمل من البيت، ومن كلّ ما قالته بلغاءُ البشر في الأوَّلين والآخِرين، قولُ ربنا العليم الحليم، التواب الحكيم:

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ (11) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12)
يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13)
بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾...

﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾...

﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾[1]...

(1) خاطب نفسك أُخيَّ وقل لها: يا نفسُ، ألا ترين أنَّ في قوَّة قهر الهوى لذَّة تزيد على كلِّ لذَّة؟ ألا ترين حين يغلبك الهوى كيف تكونين ذليلة مهينة؛ لأنك قُهرتِ؟ ألا ترين حين تَغلبين أنت داعي الهوى، كيف تكونين قويَّة البنيان، عزيزة الجانبِ، شامخة الرأس، كريمةً أبيَّة؛ لأنك قهرتِ الشهوةَ وأحللتِ محلَّها الضمير؟ يا نفسُ، ليوم الخلود اعملي واجتهدي، واصبري وصابري... فاليومَ حياةٌ زائلةٌ فانيةٌ، وغدًا حيواتٌ باقيةٌ دائمةٌ... فهل تبيعين الذي هو أدنى بالذي هو خير؟.

المصيبة، وضمير المؤمن الرضي

المصيبة، وضمير المؤمن الرضي

(مهداة إلى كل مصاب بالوباء، وكلنا مصابٌ)

عجيبة هي لفظة «المصيبة» التي نحتها القرآن نحتا جديدا، بأبعاد ودلالات لم تكن معروفة في لغة العرب قبل نزول الوحي؛ ولو أتيت اليوم لترجمتها إلى اللغات الأخرى، فإنها تحتاج إلى «سلَّة من الألفاظ» ولا توافيها حقَّها، من مثل: **catastrophe**، **disaster**، **calamity**، **damage** وغيرها مما يشرحها ولا يترجمها.

والمصيبة في العربية مشتقَّة من مادة «صوب»، ومنه «أصاب، يصيب»، ومن المادة ننحت «صوبٌ، صوابٌ، صيّبٌ، مُصيبة...»؛ والمصيبة ما يصيب الإنسان سواء أكان مكروها أو مرغوبا؛ إلَّا أنَّ مألوف اللغة اختصرها على «كل مكروه يصيب الإنسان ويحل به قهرا».

وفي كتاب الله تعالى ورد اللفظ «مصيبة» عشر مرَّات، ولقد أخذتُ آيتين، وحاولت ربطهما بما أصاب الناس اليوم من مكروه الوباء، وهما:

قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَآ أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾.

وقوله سبحانه في سورة ﴿قُل لَّنْ يُّصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُومِنُونَ﴾.

۞ ۞ ۞

ثم سافرت بالآيتين إلى التراث البشري كلّه، وإلى الفلسفات الشرقية والغربية عبر التاريخ، من أكثرها تفاؤلا إلى أشدها تشاؤما؛ وقرأتُ في الفلسفة، والأدب، والرواية، والدين... لعلي أجد موقفا من «المصيبة» و«الابتلاء» أشبه بما ورد في الآيتين، فلم أهتد إلَّا إلى ما كان مصدره الوحي، في الديانات الأخرى، مما يظهر عليه عدم التحريف... ولكن بشهادة عالم محقق مثل «جيفري لانغ»، مثل هذه المعاني غير المحرفة في التراث المسيحي مثلا، لا توجد للأسف، إلَّا قليلا...

والعجب في ذلك أن يلازم لفظ المصيبة في كتاب الله تعالى، وفي سنة رسوله الكريم ﷺ، معان من مثل: البُشرى، والصلوات، والرحمة، والهداية، والمكتوب، والتوكل، والإيمان... أي أنها بهذه المعاني تتحوَّل إلى منحة بعد أن كانت محنة، إلى فرصة بعد أن أضحت تهديدا...

ومن هنا فهمتُ لماذا استعمل رسول الله ﷺ صيغة العجب في سياق علاقة المؤمن بالمصيبة، ثم أكَّد أنَّ هذه الحظوة ليست «إلَّا للمؤمن» لا يشاركه فيها غيره؛ فقال: «**عَجَبًا لأمرِ المؤمنِ إنَّ أمْرَه كُلَّهُ لهُ خَيرٌ وليسَ ذلكَ لأحَدٍ إلا للمُؤْمنِ: إنْ أصَابتهُ**

سَرَّاءُ شَكَرَ فكانتْ خَيرًا لهُ، وإنْ أصَابتهُ ضَرَّاءُ صَبرَ فكانتْ خَيرًا لهُ» (رواه مسلم).

واليوم إذا حلَّت المصيبة بأحد منَّا، أو ببعض منَّا؛ أترانا ننسلخ من إيماننا، لنواجهها بفكرٍ حضاري عالمي إنساني؟![1].

ثم هل نردّد ما يردّده الملحد، والكافر، والشاكُّ، والمنافق... الذي لا يؤمن بالله، ولا يؤمن باليوم الآخر.... وكذا الوضعاني، والعبثي، والفوضوي، والعلموي... الذي يقصر كلَّ إدراكه وفهمه على ما هو محسوسٌ ومحسوبٌ، وعلى كلّ ما هو أرضيٌّ وماديٌّ من عالم الشهود؛ ويرفض كلَّ ما هو سماويٌّ، ومعنويٌّ من عالم الغيب...؟

كيف لنا أن نكون ممن يتخذ جميع الأسباب والوسائل، ويجتهد في عالم الشهادة اجتهادا مُطلقا؛ ثم إذا حلت المصيبة، وكانت فوق قدرته وطاقته، فإنه يستسلم لله، ويُسلم أمره له، ويقول معنى لا لفظا فقط: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، سواء أكان رئيسَ دولة، أم

(1) حين يحلُّ أمر ما بالإنسان، فهو إمَّا يستقبله بعقله فقط، فيحلل ويستنبط، ويبني النتائج على المقدمات، ويستخرج الروابط والعلاقات... أو يستقبله بقلبه ليس إلاَّ، فيحبُّ أو يبغض، وينفرج مهللا أو ينقبض متأوها، ويصادق فلانا أو يعادي علانا لأجل ذلك الأمر... ولكن، أن يستقبله بقلبه وعقله معًا، بأن يعقل بالعقل ما هو من المعقولات، ويوازن بالقلب ما كان من القلبيات... فذاك ما عبَّر عنه القرآن بـ«قلب يعقل»، أو «قلب لا يعقل»؛ وهو ما يسمَّى في التراث المعرفي الإسلامي بالضمير والوجدان...

طبيبًا في الفيروسات، أم مصابًا بالوباء، أم أحد أقرباء المصاب، أم مسلما متألما لجميع الناس المصابين عبر العالم....؟

كيف نقولها بملء فينا، ولا نبالي: ﴿قُل لَّنْ يُّصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُومِنُونَ﴾؟، وأن نعمل بمقتضى ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾، ﴿عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا﴾، و﴿حَسْبُنَا اللهُ﴾... لا بمنطق ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الاَعْلَى﴾، و﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾...؟!

۞ ۞ ۞

كلُّ الرهان اليوم أن نتعلم نحن أولا، ثم نعلّم البشرية، وقد خاب ظنُّها في العلم، واكتشفت أنه ليس لوحده كافيًّا لإسعادها، ولرفع الخطر عنها؛ بل البشريةُ تبينت أنَّ العلم أحيانا هو نفسُه سبب الشقاء، ومقدّمة الوبال، ومنطلق المحن؛ إذا لم يكن مربوطا بقيم، ودين، وغاية، وروح، أي إذا كان «باسم العلم» لا «باسم ربك»...

هو منعرج في التاريخ لن يعود، إمَّا أن نكون للناس هُداة، فنحملهم على مقام الجمعِ، أو نكون لهم مضلّين، فنولَع بهم، ونتَّبعهم حتى في فكهم الارتباط بالله سبحانه، ونحول المصيبة إلى «هوسٍ»، وإلى «صخبٍ»، و«فوضًى عارمةٍ»... ونعذّب الناس بالخوف، فيموتوا ويهلكوا به قبل أن يهلكوا بالوباء؟

هي فرصتنا إذن، والله وكيلنا وحسيبنا... سبحانه.

۞ ۞ ۞

حتى «الموتُ» مصابٌ بوباء التمييز العنصري ضدّنا؟!

حتى «الموتُ» مصابٌ بوباء التمييز العنصري ضدَّنا؟!

(ولكنَّ صخرا لا بواكي له)

كم عدد قتلى فيروس كُرونا قبل خمسة أيام؟ 2000 قتيلا...

وكم عددهم قبل يومين؟ 2345

وكم عدد ضحايا كُرونا في الصين قبل يوم واحد؟ 2400 قتيلا و77 ألف مصاب...

العلامة كاملةٌ، والنقطة عشرة على عشرة، لن ترسب هذا العام، وستنتقل إلى الصف الثاني، مبروك...

واعلم غير معلَّم أنَّ الروح الإنسانية أغلى من الأرقام، وأنَّ موت واحد من البشر بالوباء يزرع الألم في قلوب الرحماء من الناس أمثالك، ما في ذلك شكٌّ، وحرام اعتقاد خلافَ ذلك في ملَّتنا وديننا...

لكن، في ذات الوقت، لو سألنا: كم عدد ضحايا الحرب في سوريا، من بداية الفتنة إلى اليوم؟

وفي اليمن، كم قتل من أبرياء؟

وفي العراق قبل ذلك؟

وفي ليبيا؟

وهلمَّ جرا؛ فإنَّ العدَّاد هنا يصاب بالعطل، وتتوارد أرقام متضاربة، بعضها يُغلي وبعضها يُرخِص؛ بعضها يُبالغ في التهويل، والآخر يُبالغ في التهوين...

السؤال موجَّه إلى القارئ، وقبل ذلك إلى الكاتب:

الحرب حقيقة في بلادنا ما في ذلك شك، ولكن كم هو حجم المعاناة؟ وكم هو عدد الضحايا؟

وكم عدد اللاجئين محليا (داخل نفس البلد) وخارجيا (إلى خارج البلد)؟

قبل أن أجيب، أود أن أنبه إلى أنَّ ما تحصده يوميًّا القنابلُ، والدبابات، الطائرات، والأسلحة الكيمياوية، والرشاشات، والغواصات... و...و يفوق ما يحصده وباء كُرونا بعشرات المرات، لا بل بمئات المرات أحيانا... لكن، موتى كُرونا يُحسَبون في عداد بني البشر، أمَّا موتى الحروب البشرية ـ من بني جلدتنا ـ فهم كلُّ شيء، إلا أن يكونوا بشرا: هم خبرٌ، هم حدثٌ، هم شجرٌ، هم حجرٌ، هم فئران أو بعوض أو حتى جراد... ولذا، لا أحد يبكيهم، والكل يملأ بهم صفحات جرائده، وساعات قنواته، وشارات حصصه... والكلُّ يزيّن بهم أخباره اليومية، بل وجلساته حين يسمر ليلا في صالونه، أو يشغر المقاهي صباحا في بلدته...

ثم، تنتهي الإثارة سريعا، والخبر الجديد الناسخ للخبر القديم: انهزام ريال مدريد... وحصول اللاعب ليو ميسي على الكرة الذهبية... وبلوغ مجموع ثروة جيف بيزوس، أغنى رجل في العالم، مقدار 113 مليار دولار... وتغريدة ترامب في شأن بيلوسي جاء فيها ما يلي، وقد كتبها في الثالثة صباحا وثلاث دقائق... إلخ.

۞ ۞ ۞

القاعدة الكلية التي لا تتخلف أبدا، هي:

إذا انتشر الجورُ في أرض، رخصت الأرواح فيها بالضرورة...

وإذا حلَّ العدل بين قوم صار للروح البشرية قيمة وقدرا...

ولا يُستثنى من ذلك البلاد الإسلامية، فإنها يوم كانت تسير على بساطٍ من العدل، كان مقتل طفل أو امرأة أو رجل واحد يُقيم الدنيا ولا يقعِدها...

بمجرَّد أن يصل صوت الضحية إلى الحاكم: «وَاعُمَرَاه...»

حتى يأتي الجواب منه إليها: «لبيك أمَة الله..»

ثم بعد ساعات يكون الجيش قد تحرك للقصاص...

أما اليوم، فإنَّ الإنسان المسلم والعربي (الذي ليست له حصانة دبلوماسية في بلده) حين ينادي الحاكم:

«واحكماه...»

يأتيه الجواب من الحاكم محفوظا ممجوجا:

«معذرة أخي لستَ الوحيدَ في طابور المعاناة، وليس في برنامجي السياسي أن أنقذك، فالموت أرحم لك من الحياة... ألا إن لم تمت اليوم، يكن مصيرك الهلاك غدا.

وقد يضيف شطرا من بيت شعري، إذا كان حاكما متعلّما: «تعدَّدت الأسباب والموت واحد...».

ألا فلنعلم، أننا لا نعرف حقيقة مأساة أهلينا في البلاد التي ذكرتُها، ولا حتى في بلادنا؛ وإنما نحن رهائن العدَّادات التي تعمل أحيانا، وتتعطَّل غالبا؛ والتي تزوّد للبعض وتزيد لها في الكيل، وتخسر الميزان للآخرين... ومع ذلك، فإحدى هذه العدَّادات العنصرية تقول:

أكثر من 600 ألف قتيل في سورية، وأكثر من 6 ملايين مهجَّرًا داخليًّا، وأكثر من 5 ملايين مهجرا خارجيا...

وفي العراق، عدد الضحايا منذ غزو أمريكا للعراق يتجاوز 700 ألف قتيل...

وفي اليمن... وليبيا... ومصر... والسودان، والجزائر، وتونس، والمغرب... و... و[1].

(1) ملاحظة عابرة: لاحظوا أنَّ صور قتلى كُرونا لا تتداول في وسائل الإعلام، لكن صور قتلى المسلمين ملء الشاشات وصفحات الجرائد... ما الفرق بين هذا وذاك، إذا لم

ما أصدق الخنساء يوم رثت أخاها صخرا، وقالت:

«ولكنَّ صخرا لا بواكيَ له»...

كلُّ مواطن في بلاد العرب، وفي بلاد الإسلام اليومَ، هو صخرٌ... حجرٌ... شجرٌ... خبرٌ... إلا أن يكون إنسانا مُصان الدم، محصن العرض، كريما عزيزا...

يقول رب العزة والجلال: ﴿إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ...﴾ سبحانه ﴿وَمَنَ اَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا﴾...

وإذ لم يدافع عن الله عنَّا فلنتأمَّل معنى «خوَّان» وما بعدها من سورة الحج العظيمة، فثمة الخلل ولا ريب.

اللهم رحماك...

تكن كرامة إنسان من كرامة بلده، وهوان إنسان من هوان بلده؟.

«كُرونا» وعصر الكرامات

(أو: حين صدَّقت سجاح مسيلمة الكذاب؟)

كنا نعتقد أنَّ عصر الكرامات قد ولَّى، وأنَّ ادعاء «استخدام الجن»، أو الضرب على «خط الرمل»، أو «قراءة الكف»، أو حتى «قراءة الفنجان»... كنَّا نعتقد أنَّ كلَّ ذلك قد ولَّى مع «الثورة الصناعية»، وأصبح مهزلة في عهد «الثورة المعلوماتية»؛ وأنَّ الناس قد طلَّقوا التفكير المختزل على وقع «شبيك لبيك»، واستبدلوا به التفكير العقلي الموضوعيّ العلميّ، الذي يعالج القضايا بمعالجة أسبابها، ويحلل الظواهر تحليلا علميا لا غبار عليه.

لكن «كُرونا»، ونحن نقرأه ونقرأ عنه، زعزع قناعاتنا البالية؛ ذلك أنه بدأ نوعا من أنواع «الوباء»، وشكلا من أشكال «الفيروس»؛ وكان من مهام الطبيب والعالم بالأوبئة والصيدلي؛ ثم انتهى «عفريتا ماردا»، يصيب به «العرَّاف والكاهن والقزان» من يشاء ويصرفه عمَّن يشاء...

بدأ «الوباء المارد» في الصين، ثم انتقل بعد مدَّة إلى إيران، وها هو يستقرُّ في العراق، وسافر إلى إيطاليا... ولكنه ـ بما أنه يخدم «نظاما دوليا، ومخططا عالميا» ـ تفادى الانتشار في عمق أوروبا «ألمانيا وفرنسا»، ولم يقرر الدخول في «أمريكا وكندا»،

واستحيى أن يلج حدود «إسرائيل أو حتى سنغفورة»... بل وحتى بعض البلاد التي رضي «النبيُّ الدعيُّ» عنها حين اكتُشفت فيها حالات من «كُرونا» قيل لنا: المصابون بالوباء جميعهم كانوا قد سافروا إلى إيران وعادوا معهم بالمرض...

والغريب حقا أنَّ «سجاح» قد صدَّقت «مسيلمة الكذَّاب» فأسَّسوا جبهة «وبائية» و«إعلامية»، ثم إنها آمنت بنبوَّته، فسلَّمت له قيادها، ولم يسلم جسدُها من «العهر» الذي بالغت مصادر التاريخ في وصفه، إلى حد القرف والسفه...

وأغرب من ذلك أن يصدّق هذا الهراء الإنسانُ الحرُّ، والمسلم الفطِن، والمثقَّف الواعي، والعالم الحجَّة...

أغرب من ذلك أن يستسلموا للأخبار كلية، ولا يتركوا مساحة للشك، ولا فسحة للتردد... والحال أن لا أحد من العقلاء عبر التاريخ، عرض صدره للعدو واستسلم لفوهة بندقيته، بلا مقاومة...

أكاد أجزم، بل أقول متيقنا، أنه بعد وقت لن يكون طويلا، سينتهي «كُرونا» إلى مرحلة النسيان، وسيبقى خبرا بعد عيان؛ ولكن لن يكون ذلك إلَّا إذا انتهت المحادثات التجارية، والصراعات العسكرية، والمناورات الجوية والأرضية والبحرية... بين «الصين» ومَن وقف إلى جهتها، و«أمريكا» ومن صلَّى في معبدها، بل وعبدَها هي دون الله أحيانا...

فأمَّا الضحايا فنعرفهم، والألم ملء الفؤاد يعتصرنا حيالهم، ولا نفرق بين ضحية شرقية وضحية غربية؛ وأمَّا المجرمون فهم

كثرٌ، ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾، كأنهم يسكنون أرض «الواق واق»، ويطعمون من «شجر الزقُّوم» التي ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾...

قد يطالبني البعض بالعمل بعد العلم[1]، كما ألفوا، وكما اعتادوا مما يصدر من «نموذج الرشد»؛ وأقول مجيبا:

مجرَّد امتناعك عن أن «يستخفَّك» فرعون وملؤُه،

ومجرَّد أن يبلغ بسببك «النمرودُ» حالا يوصف فيها أنه «بُهت الذي كفر»،

ومجرَّد أن لا يكون الواحد منا ببغاء، ولا قردا...

مجرد ذلك، هو عمل، وهو واجبُ المرحلة، وصاحبه رجل «والرجال قليل»...؟

وصدق الله العظيم الذي علَّمنا وربَّانا، لو سمعنا وأطعنا، فقال: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا أَن تُصِيبُوا قَوْمَۢا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ صدق الله العظيم.

(1) كتب أحد الإخوة معلقا: «ويبدو أن لكل زمن سامريّه»؛ ولقد وُفِّق وصدق؛ ذلك أنَّ الله تعالى وصف عجله، بأوصاف هي ذات الأوصاف التي يمكن أن نصف بها «كرونا»، ووصف السامري بنفس الأوصاف التي نراها في صاحب العجل اليوم، ثم وصف بني إسرائيل بكثير من الأوصاف التي تنطبق علينا في هذا الزمان... فقال سبحانه: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ (88) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

هذا أو ذاك: لعبة القط والفأر

هذا أو ذاك...[1]

لعبة القط والفار.. أو محنة المسلم اليومَ

راحَ شابٌّ مسلم ليخطب فتاةً، وقد بلغ سنَّ الزواج حسبَ العُرف في بلده؛ وحين تقدَّم وجد نفسه بين متناقضات، ومفارقات، وخيارات لا تجتمع...

قيل له مرَّة: «تخيَّر، بين أن تكون جميلة غير متخلّقة»، أو «متخلّقة ذميمة»...

قال: «سبحان الله، وهل التعلُّم يناقض الجمال؟ أم أنَّ الجمال يلغي العلم؟ هلَّا كانت جميلة ومتخلّقة على السواء؟»

قيل له: «أنت لا تخطب ملكا، أنت تخطب بشرا من لحم ودم، فلا تُعلِ من سقف التوقع، يا رعاك الله».

ثم قيل له مرَّة ثانية: «اختر، أن تكون شريكةُ العمر صمَّاء سليمةَ العينين»؛ أو «عوراء سليمة السمع»...

فقال: «هلَّا كانت سليمة السمع والبصر جميعا؟»

فأجيب: «هذه هي الدنيا، لست في الجنة فتجد كلَّ ما ترغب فيه»

(1) سَحَر الثلاثاء 18 فيفري 2020م.

ثم عاود الكرَّة ثالثة، فقصد جهة أخرى، ودقَّ الباب فوجد الجواب: «يا فلان، لنا ابنتان، إحداهما نشيطة فاعلة غير ولودٍ»، والأخرى «ولودٌ، لكنها كسولة خاملة»...

فأجاب: وما المانع أن تكون ولودًا نشيطة، فاعلة فعالة؟

شبيه من هذه الخيارات الصعبة وقعت فتاةٌ وهي تستقبل الخطباء واحدا تلو الآخر، وتجد الخيار دائما: «إمَّا... وإمَّا»... وتتساءل في قرارة نفسها: لماذا هذه الثنائيات المتناقضة، وهل لا يجتمع الخير في واحدٍ؟

۞ ۞ ۞

ليست الخطيبة في قصَّتنا فتاةً، وليس الخطيب فتًى... ولكنه الدين والبلد، والتاريخ والجغرافية، والثقافة والحضارة... فالمسلم اليومَ في حيرة من أمره، وهو مخيَّر بين متناقضات، حائرٌ بين مفارقات، تائهٌ بين خيارات لا تجتمع؛ منها:

مسلم، ولكنه فقير...

غنيٌّ، لكنه فاجر...

متعلّم، لكنه مستهتر...

ورعٌ، لكنه مَهين لا يكاد يُبين...

مصلٍّ، لكنه يعيش يوما بيوم...

صاحب مسؤولية كبرى، لكنه تارك للصلاة...

شرقيٌّ هادئ، لكنه متخلّف حضاريا...

غربيٌّ ثائر، لكنه ملحدٌ مطلّق للقيم...

عالم بعلوم الدنيا والسياسة، لكنه جاهل بأمور دينه ومصيره...

مستوعب لأمور دينه وآخرته، لكنه جاهل بالسياسة والثقافة والتكنولوجيا وكل علوم التحكم...

هكذا دواليك... وهكذا كلَّما التفتت حواليك... كأنَّ الواقع يقول لك: «عليك إذن أن تلعب لعبة الحظ، لا أن تغير ما بك، لتغير ما بنفسك، ثم ما بحولك... يا للأسف...»

لماذا قدرُنا أن نخيَّر بين خيرٍ وخيرٍ؟

ألم يدع سيدنا عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بقوله: «اللهم إني أعوذ بك من جلَد الفاجر، وعجز الثقة!».

وما الذي يمنع أن أكون مسلما، كريما، قويا، غنيا، ملازما للصلاة، نشطا، مبدعا، متطورا تكنولوجيا، مرتبطا بالله برباط الحب والطاعة...

تسألني أخي القارئ العزيز:

لكن ما السبب الذي حملنا على ما نحن عليه من الوقوع في حال التناقض؟

أجيبك بنص كتبه «شارل جانييه» ابن «إميل جانييه» الذي كان مديرا «للثانوية الفرنكو ـ إسلامية» (Lycée franco-musulman)

في تلمسان في أواخر الخمسينيات؛ قال:

«لاحظت السلطة المدنية في فرنسا أنَّ الذين يدرسون علوم الدين في الجزائر، ينفصلون بالضرورة عن علوم الدنيا، ويبتعدون طبيعيا عن حركة الحياة؛ وأنَّ الذين يدرُسون علوم التحكُّم والحُكم: التكنولوجيا أو الاقتصاد أو الإدارة؛ ينفصلون بالضرورة عن قيمهم ودينهم، ويتغربون بمنطق القوة، ويتحكَّمون بسلطة الواقع» (المعنى بتصرف)

سؤالي: هل تغير شيء اليومَ؟

لا يعنيني الواقع السياسي كثيرا، رغم أنه نتيجة وثمرة للواقع التربوي...

لكن الذي أسأل عنه: هو واقع المدرسة، والجامعة، والجامع... أي عن محاضن العلم، هل فكَّ فيها التعارض، وجمع المتناقض، ووحّد المفرَّق... حتى تكون صالحة للدنيا، صالحة للآخرة؟

أم أنَّ قدرنا هو أن نلعب «لعبة القط والفأر»...

فإذا حضر القط غاب الفأر، وإذا غاب القطُّ حضر الفأر...

ولا بد من حضور الواحد وغياب الآخر...

ما دمنا لا نملك إرادتنا، ولا نخطط لمصيرنا... ولا نقوى على تغيير ما بأنفسنا...

أخي... أختي...

الذين لاحظوا ذلك البارحة، هم يلاحِظونه اليومَ... (هم الفاعل)

والذين لوحظوا البارحة، هم اليوم يلاحَظون... (وهم المفعول به)

فلا نامت أعين الجبناء...

دعاءٌ على استحياء، وابتهال لما بعد العيد[1]

(ربّ إني لِما أنزلت إليَّ من خير فقير)

اللهم يا من بيده مقاليد كلّ شيء، ويا من نواصينا بين يديه، ويا من خلقت الزمنَ فجعلته ظرفا للحركة، وخلقت المكان فجعلته وعاء للأجسام، وخلقت العقول فجعلتها مَصنعا للأفكار، وخلقت القلوب فجعلتها موطنا للأسرار..

اللهمَّ أصلح لي قلبي، وسلّم لي عقلي، وبارِك لي في منزلي وبلدي، وأعنّي على عمارة ليلي ونهاري بالبر والطاعات، واغفر لي ما اجترحت من المعاصي والخطيَّات...

اللهمَّ ها قد ولى رمضان في أسرع من لمح البصر، رحلَ يا ربّ وتركنا حيارى محزونين، ولقد كان لنا أنيسا في وحدتنا، رادعا لفوران شهواتنا، باعثا لنا إلى الإحسان، مربيا لنفوسنا، مزكيا لضمائرنا... ثم سافر وغادر، وذهب وهرب... فنحن اليوم بدونه يتامى، لولا فضلك ورحمتك بنا يا رحيم.

سيعودُ الناس إلى عاداتهم القديمة، في المأكل والمشرب، في المنكح والملبس... ولكن، لن ينسوا أبدا رمضان هذا العام، ولا صلاة هذا العام، ولا حج هذا العام...

(1) الثلاثاء 3 شوال 1441هـ / 26 ماي 2020م؛ برج البحري، الجزائر العاصمة.

سبحانك يا رب إنه لأمر جلل عظيم، وإنه لألم شديد غريم... رحماك بنا.

إلهي لازَم الناس منازلهم ولا يزالون، وكمَّم الناس أفواههم ولا يزالون، وامتنع الناس عن مصافحة بعضهم ولا يزالون، وهجر الناس قهرًا أرحامهم ولا يزالون، وأغلق الناس مدارسهم ومساجدهم ولا يزالون، وعطَّل الناس حركاتهم ولا يزالون...

فاللهمَّ يا الله عجل بالفرج، وافتح المغاليق، وسرح السجناء، وارزق العاطلين... آمين.

رب إنَّ طائفة من خلقك قد تخذت من مرض الناس بضاعةً وتجارةً، وإنَّ المستضعفين من الناس حاروا في أمر دنياهم وآخرتهم لا يبرحون، وإنه لا أمرَ إلا أمرك، ولا حكم إلا حكمك، ولا أحد من خلقك يملك أن يعطّل قدرك...

فاللهم انصرنا عليهم، واشفنا من كل سقم، وارحم كل مؤمن توفيته، واغفر لكل مذنب ـ مثلي ـ تاب وندم، وتقبل من كل محسن إحسانه...

أنت رب المستضعفين وربي...إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي...

اللهم لا تُعِدْ علينا رمضانا مثل رمضان هذا العام، وأنت الرحيم بنا والحليم...

اللهم لا تُعد علينا عيدا مثل عيد هذا العام، وأنت الكريم بنا والحكيم...

دعَوتُك يا رب ولست أهلا للإجابة لولا فضلك ومنك،

ولقد استجبت للداعين مثلي وأنت أهل لكل إجابة، كرما منك بنا وإحسانا بخلقك...

سبحانك، سبحانك، سبحانك

لا إله إلا أنت سبحانه، إني كنت من الظالمين....

رب إني لِما أنزلتَ إليَّ من خير فقير...

ساعة الجمعة: الزمن الثقيل... الثقيل

ساعة الجمعة: الزمن الثقيل... الثقيل[1]

(رب عجل بالفرج وبالفجر، فنعود إلى مساجدنا)

لا أكتب مقالةً فكرية، وإنما هو إحساس عميقٌ جدا أعبر عنه، ومواساة أحتسب أجرها وبرها عند الكريم المنَّان؛ ذلك أنَّ «ساعة الجمعة» كانت في عمرِ الواحد منَّا، هي أمتعُ وأروعُ وأبدعُ ساعةٍ في الأسبوع، فيها يغتسل ويلبس البياضَ، ثم يتوجه بسجَّادته المزركشة إلى أقرب «جامَعْ»، ويتأنق في المشي، وفي الجلوس، وفي إلقاء السلام على مَن حوله من الأصحاب والجيران...

ثم يصلي ركعتين خفيفتين، ويختارُ من رفّ المصاحف «مصحفه» المفضَّل، الذي وَضع عليه علامةً لختمةٍ دومًا يحرص على تمامِها، حتى يفتح ختمةً أخرى، بنية «الحالِّ المرتِحل»...

ولقد يكون في «الجامَعْ» درسٌ من واعظٍ، أحيانا يُعجبه ويتفاعل معه، وأحيانا أخرى لا يتوافق مع مِزاجه ورؤيته للأمورِ؛ ولكنه درسٌ على كل حال...

ويؤذّن المؤذن للصلاة، ثم يرتِّب الصفُّ نفسَه، متوجّهين إلى جهةِ القبلة والمحراب، فيَعلو الخطيبُ منبره، ويختار لخطبته

(1) ساعة الجمعة، يوم 13 شوال 1441هـ / الخامس من جوان 2020؛ برج البحري، الجزائر العاصمة.

الكلمات التي يراها الأنسبَ للمناسبة، ويعمُد إلى فنّ الخطابة، وفنّ الأسلوب، وإلى قوَّة الاستدلال، وإلى الشواهد؛ ثم يربط كلَّ ذلك بواقع الناس، حتى يحسُّوا معه ما يحسُّ، وحتى ينتفعوا بما يقال، وحتى لا يبدو هوَ خارجَ السياق...

وتنتهي الخطبةُ، ويقيم المؤذن الصلاة، وبترتيل جميلٍ وتجويدٍ جليلٍ، بصوتٍ كأنه مستعار من الجنة، أو من أحد الملائكةِ الأبرار ـ بخاصة إذا كان الإمام في تقدير الناسِ من المخلصين، ومن المحسنين ـ؛

بكل ذلك تمرُّ الأوقات سريعةً، خفيفةً، تُضاهي نسمات الصباح في الربيع، بل وتتفوق عليها وتتبختر بهاءً ورونقًا...

وتنتهي الصلاةُ، ويخرج المصلُّون من «الجامَع»، أحيانا بوقارٍ، وأحيانا بشيء من الاستعجال... يخرجون ليسارعوا إلى شراء ألذ الخضروات حسبَ ذوقهم، من طاولة أو سيارة مقابل «الجامَع»، وهم يرومون بذلك الامتثال لأمر الآية الكريمة: «...وابتغوا من فضل الله...».

ثم يتوجَّهون إلى بيوتهم ليجدوا الزوجات في أحسن ثياب، والأبناء في أبهى صورة، إما ليطعموا الغداء، غالبا ما يكون «الكسكسي» في عادة الجزائريين، أو لينطلقوا وجهة واحةٍ، أو غابةٍ، أو شاطئٍ... هنالك ينسون تعب الأسبوع، ويصححون العلاقات فيما بينهم، ويمتّنون القلوب لأسبوعٍ قابلٍ، قد يكون مريحا أو متعِبا... لا يهُّم، ما دام الترياق هنا، والآنَ...

أمَّا مع «الحجر الصحي» المشؤوم، ومع «الكوفيد» المَريد، فلقد تبدَّلت الأرض غير الأرض والسموات، وصارت ساعةُ الجمعة ثقيلةً على القلوبِ، وإني واللهِ لأتألم ألم من توجعه ضرسه، وأتقلَّب تقلُّب الثكلى لموت عِرْسِه...

وأكاد يُغمى عليَّ وأنا أسمع مؤذن «جامَعْ السنة» المجاور، يدعو إلى الصلاة «حي على الصلاة»، ويدعو إلى الفلاح «حي على الفلاح»؛ ثم حين ينتهي ينسَخ كلَّ ذلك بالدعوة إلى عدم المجيء، وإلى المكث في الديار: «صلوا في بيوتكم...».

لا أعرف، لعلَّ أجر الرضا بالقدر سيكون مضاعفًا إن شاء الله، ولعلَّنا ننال من الربّ الكريم أجرَ الجمعة وزيادةً، وأجر ألمنا وحسرتنا، ونحن في بيوتنا؛ لكن من الناحية النفسية، ومن الزاوية الاجتماعية، ومن موشور الزمن... أجد أنَّ أثقل ساعة في الأسبوع، هي ساعة الجمعة...

وأسأل الله أن يعجل بنا بالفرج وبالفجر، ثم إلى «الجامَع» نعود، وإذا عدنا أن نحسن القيام والقعود، وإذا صلينا أن نطيل الخشوع والدعاء، والابتهال لربنا والسؤال...

وليس أقربَ ولا أحبَّ إلينا من رب الجمال والجلال، وأقربُ ما يكون العبدُ من الله وهو في السجود، وليس أعظمَ أجر من جماعةٍ ساجدة لله تعالى، بقلوبٍ موجلة، وألسنة مخبتة، وجوارح متذللة....

يا رب سبحانك...

سبحان ربي الأعلى، سبحان ربي الأعلى، سبحان ربي الأعلى...

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الغد المزهِر، والأمل المبهِر...

الغد المزهِر، والأمل المبهِر...[1]

﴿وَجَآءَ مِنَ أَقۡصَى ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾

لو أنَّ هذه الزهرة كانت مثل الكثيرين منا لما شقَّت الأرضَ الصلبة الوعرة بلا ماء، ولما رمت بجمالها إلى الشمس تنافسها سواء بسواء، ضاربة جذورها في عطاء لا ينبض من رب الأرض والسماء، مستنزلة الرحمات كلَّ حين وآن من العلياء...

أنا مِثلها، وهي مَثلِي...

من جلالها أستقي المعنى الجميل، ومن جمالها أرسم خط الحياة الجليل...

ولله الحمد والشكر والثناء...

على غير العادة، لا أدون الأفكار في هذه المقالة، وإنما أرسم على صفحة التراب أمامي خطًّا طويلا، متعرجا أحيانا، ومستقيما أحيانا؛ وأكتب أسفلَه «هكذا كنا»، وأعلاه «وهكذا سنكون»؛ وفوق الخط أكتب عبارة: «لله الحمد والشكر والمنة والثناء الحسن»... ثم أشفع ذلك بنقطة يتحول فيها السهم من

(1) الأحد، 15 شوال 1441هـ / 7 من جوان 2020م.

وجهة إلى ضدها، وأكتب أمامها: «نقطة الانعطاف»...

نحن لا نختار مصيرنا، ولا نرسم قدرنا؛ وإنما نتصيد الأسباب، ونرفع أكفَّ الضراعة لرب الأسباب؛ ثم نجاهد ونجتهد، ونفرغ الوسع ما استطعنا؛ وبعد ذلك نترك الثمرة والنتيجة للقدَر الحكيم، وللربّ الرحيم؛ فما شاء يكون، وما لم يشأ لن يكون...

لو خيرني أحد للعودة إلى الصبا، ثم إعادة تجربة الحياة، فإني لن أختار إلا ما اخترته من قبلُ، ولن أرضى إلَّا بما كُتب لي على مر السنين؛ والحقُّ أني أختلف عن كثير من الناس، وذلك أني لا شيء ندمتُ عليه في حياتي، صِدقا لا شيءَ؛ فما كان من حُسنٍ شكرت الله عليه؛ ذلك أنه من فضله وكرمه عليَّ؛ وما كان من سوءٍ، فبما كسبت يداي، وغالبا ما حوَّلته إلى خير بالصبر، وبالاعتبار، وبالمراجعة...

ثم أحيانا تكون الضراء أنفع لي من السراء، بخاصَّة إذا انتهت إلى قلبٍ كسير، وروحٍ عامرة بالتوجه إلى السماء، وبتلاوة قوله تعالى على لسان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾... وعلى لسان المصطفى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا... لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

عافاني الله تعالى من أمراض وأسقام كثيرة، ولا يزال...

غمرني الله سبحانه بأفضال لا تحصى، من أعظمها نعمة ملازمة العلم وأهله...

نجاني الله ذو الجلال من مخاطر كثيرة كانت محدقة بي، من

قنابل انفجرت أمامي، إلى ما لا أحصيه...

رزقني الله جَلَّجَلَالُهُ بعلاقات كلها من الطراز الملائكي: الوالدان، الزوج والأهل، الأساتذة، الإخوة، الأصدقاء، المحبون، الطلبة...

حمَّلني الله الكريم بمسؤوليات جسام، منه ما تحملته بعونه، ومنه ما أخفقت فيه لضعفي؛ ولكني لم أكن يوما ما جبانا حيال المسؤولية، إلَّا أن أجد أني لستُ أهلا لها، وأني لو تقدمت لما كنت الرجل المناسب...

هربت من وظائف ومقترحات لا حصرَ لها، منها ما هو في مستوى عالٍ من السلك الإداري، ومنها ما يلائم تخصُّصي، ومنها ما هو اجتماعيٌّ... وذلك لسبب واحد، وهو أني لا أضيّع ما في يدي، وأتلقى بالأحلام ما ليس في يدي... سامحني الله إن أخطأت التقدير...

أبلغني الله تعالى الخمسين في أسرع من البرق، ولكني أحسُّ أني في بدايات الطريق، وأني لا أزال في ريعان الشباب، وفي الأشُدّ؛ وأني ملزَم بالعمل أكثر وأكثر، وبالاجتهاد بلا كل ولا ملل... فلا أشتكي ولا أضجر...

أنا صارم مع نفسي أكثر من صرامتي مع الآخرين، وبرنامجي الزمني صعبُ المراس، أحيانا أقدره وأستطيعه، وأحيانا يتفلت مني، ويفضح كسلي وغروري... ثم لا ألبث أن أعود...

اليومَ أقرر أنَّ ما سيكون غدا ـ إن شاء الله ـ مختلف تماما عمَّا كان البارحة؛ العالَم بعد الجائحة ليس هو العالم قبلها؛ لا التفكير هو ذات التفكير، ولا البرنامج هو نفس البرنامج، ولا المخطط، ولا المقدرات، ولا الوجهة... كل شيء إلى تغير، شئنا أم أبينا...

فقط، سيكون الاختبار حول مدى إدراكنا للتحوُّل، وكذا الاستجابة لتبعات الانعراج، وتغيير الرؤية والفكرة، والقدرة على السلاسة في استقبال المستجدات... وإلا طحنتنا التقلبات، وصرنا خبرا بعد عيان...

أنا متفائل جدًّا ليوم غدٍ، وأعتقد أنَّ الأسوء قد مرَّ، وأنَّ ما يأتي بكل المعايير أفضل مما مرَّ؛ لأنَّ ساعة الوهم قد غادرت، وساعة الصراحة قد حلَّت... قد يطول الزمن، قد يستغرق أكثر مما كنا نتصور؛ لكنه على كل حال هو آتٍ، بكل ما فيه وبكل ما ليس فيه...

لدي إحساس دفين أنَّ من كان يبني أسوارا من الظلم لعقودٍ وسنواتٍ، قد حلَّ أجلُه، وآن أوانُه؛ ولقد يخلفه من يواصل مهمَّته، لكنَّه لن يكون في مثل جبروته وفرعونيته، سيكون «فرعونا ضعيفا»، إذ كلَّما مات فرعون حلَّ مكانه قارون، وشتان بين الأول والآخر؛ هما سواء في إرادة الشر، ولكنهما يختلفان في المدى وفي الأثر...

أمَّا الخيرون، فلقد كانوا لقرون مشتَّتين، مقهورين، ضُعفاء... إلَّا أنَّ توالي المحن بدأت تقوّي شوكتهم، وتتالي المظالم بدأت

تلمُّ شملهم؛ ولم يبقَ لهم سوى «رأس الحرباء» لينطلقوا في الآفاق، وليزرعوا الحسن والخير حيثما حلُّوا، ويتركوا الأثر الطيب من حيث ارتحلوا...

أخيَّ، ابحث عن خيِّر قريب منك، واجمع نيتك إلى نيته،

غالب داعي الأنا فيك، واعمل على «النحن»، ما استطعت إلى ذلك سبيلا...

لا تكن جبانا، ولا خوَّانا، ولا متهوّرا... فإنَّ الله قد رشَّحك لأمر عظيم...

ثق في الله تعالى، واحذر فقدان الأمل، فإنه الحالقة، وهو الطامة الكبرى...

حتى ولو بقي رجلٌ صالحٌ واحدٌ في المدينة، فإنه قد يأتي مِن أقصاها، وقد يغير التاريخ، وقد يكون نقطة انعطاف للبشرية برمتها؛ فلم لا تكون أنت ذلك الرجل...

سلامي إلى غد... وإن غدا لناظره قريب...

موت العالم ثلمة لا يسدُّها اختلاف الليل والنهار[1]

(نعزي أنفسنا في موت الشيخ أوبكة وكوكبة من العلماء معه)

تجمَّدت الحروف في حلقي المهزوز، انتشر ثقب أسود على مجرَّة عقلي المكدود، تيبَّست أصابعي فلم تقدر على حمل القلم، ولا على الرقن على لوحة المفاتيح؛ أصلًا ضاع مني منطقُ التفكير، فكنتُ فوضًى عارمةً مثل ساحةٍ للحرب غادرتها الدباباتُ والعساكر، مخلّفين قتلى وجرحى بالآلاف...

كنتُ في سالف الأيام والليالي كلَّما حلَّ بالأمَّة خيرٌ أو غَيرٌ نشطتُ للكتابة علَّ ذلك يكون لي صدقة عند الله تعالى؛ ولقد أكسِب جرَّاءه حسنة أو درجة عند الله تعالى، أو يجعله الله سببا لمحو سيئة عني ويلحقني بالصالحين من عباده...

وأنشَطُ ما أكون حين تُبتلى الأمَّة في «الإنسان»؛ سواء أكان عالما عاملا، أم شهما فاعلَ خير، أم صاحب رأي وقيادة، أم طفلا بريئا وامرأة طيبة... فأذكّر نفسي أوَّلا بقدْره ونفعِه للبلاد والعباد، وأدعو الناس من حولي للعبرة والدعاء، وأن يفكروا في الخلفِ لسلف صالحين....

(1) باسة وافضل، بني يسجن؛ الاثنين 1 ذو الحجة 1441هـ / 20 جويلية 2020م.

أمَّا منذ شهر أو يزيد، فقد فُتِحت قائمة الراحلين إلى هنالك، ولم تغلق؛ ومن يومِها ونحن يوميًّا نفجع في حبيب، ونعزَّى في لبيبٍ؛ حتى إننا لم نقدر على استكمال العدّ، فكيف يمكننا الجلوس لكتابة التعزية أو الشهادة[1]...

هكذا... كلَّ مطلع شمس، وكلَّ مغرب شمس... تأتينا الأخبار طائرةً طائشةً من هنا وهنالك، من قريب وبعيد، من شمال البلد وجنوبه، من أقصى مشرقه إلى أدنى مغربه...: توفي فلان، رحم الله علان، لحقت بالرفيق الأعلى أمة الله، استجاب لنداء ربه عبدُ الله...

من قال إنَّ الشيخ الجليل، العالم الفقيه: الحاج أحمد أوبكة يسافِر عنَّا في صمتٍ، ولا نقدر حتى على حضور الجنازة، ولا أداء واجب التعزية؛ ذلك الرجل الذي كان البلسم الشافي لنوازل الناس، والنساءِ بخاصَّة؛ وكان الفقهَ يمشي على رِجلين، والحِلم يطيرُ بجناحين؛ وكان قصارى أمنيتي حين أقدم ميزاب أن أزوره في بيتِه ـ رفقة أخي طه كوزي غالبا ـ، وأغترف من معين أدبه وعلمه، وأسأله عن بعض ما يشكُل عليَّ... فلا أخرُج منه إلَّا وقد شفيتُ من أسقام كثيرة، وارتويتُ من علمٍ غزيرٍ، وحملت بين شفتي دعاء ممتدا إلى السماء: أن ارحم يا ربِّ علماءنا،

(1) ممن لحق بربه في هذه الأيام العصيبة، من أقربائي السادة: ابن يامي إبراهيم والد حمزة، حمودة موسى والد علي، الدكتور عبد الرحمن جلمامي، زوجة الشيخ عبد الله كنطابلي، عمي عيسى باباعمي، عمنا صالح حفار، صالح داده، الدكتور الحاج امحمد عمر، السيد عيسى محمد، الدكتور سلمان دبوز... وغيرهم كثير. رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى برحمته الواسعة، وأسكنهم فسيح الجنان.

واحفظ من بقي منهم على قيد الحياة...

وها اليوم أقول: وارحم شيخي وإمامي الحاج أحمد أوبكة برحمتك الواسعة...

ومن قال إنَّ الشيخ بوسهال هو اليومَ في البرزخ، ينتظر يوم النشور، ولقد ملأ دنيا الناس نُصحا، ونشر بينهم ريحا ورَوحا، فكان لهم بابا للخير، ومحرابا للبر، وأبًا في السراء والضراء؛ يأوون إليه في الصغيرة والكبيرة، يجعلونه بينهم في الخصام وحين الصلح؛ ثم يبادر إلى إسلام روحه إلى رب العزَّة، عزيز النفس كريما...

وها اليومَ، يذكر فيقال: رحم الله الشيخ بوسهال... يا أرحم الراحمين...

ومن قال إنَّ الدكتور أحمد بيوض قد غادرنا إلى الأبد، في هدوء وسكونٍ، وخلَّف وراءه آثارا من حسن الخلق وحسن المعشَر، ومن حصافة الرأي ورجاحة العقل، ومن روح وثَّابة لخدمة الخَلق، وقلب نابض بحب ربّ الخلق؛ ثم اصطفاه الله إليه؛ ولقد كنتُ قبل أيام على هاتف معه، وهو يرشدني ويوجهني باسم «خلية التنسيق والتوجيه بالعالية»، ويبدي رأيه في إدارة شؤونها، وكيف يجب تحري الحكمة في القول والفعل؛ مع ابتسامة ظاهرة، لو نطق هاتفي لنشرتها عبيرا على الآفاق...

وها اليوم نقول: رحم الله الدكتور، وجعله من أوليائه المقربين...

ثم يشاء الله أن يدعو إلى جواره الشيخ الجليل بابكر بيوض،

وقد ملأ الدنيا دعوة للخير، وحمل الناس، والشبابَ بخاصة، على طاعة الله والإقلاع عن المعاصي، ونشر الكلمة الطيبة، والعمل الصالح بين الداني والقاصي، بجرأةٍ وصراحة وروحٍ خفيفة مُنقطعة النظير...

وها اليوم نعدُّه في الصالحين، ونسأل الله أن يرحمه برحمته التي تغمر الكون كلَّه...

ويكتب الله سبحانه أن تلحق به زوجته «عويشتي» المرأةَ العالمة الصالحة، التي كسبت الآلاف من النساء في كل قرى ميزاب، بدروسها، وتوجيهاتها، ونصحها، ومحاربتها للبدعة، ونشرها للسنة... فكانت المرأة المثال لجيل كامل من النساء؛ لا يزال عبق خيرها يفوح في ربوع البلاد، ويشهد لها بالخير والصلاح...

وها اليوم نرفع أكف الضراعة إلى السماء أن يقبلها في كوكبة الخيرين إماما...

ثم نفجع في الدكتور محمد زكرياء، وهو الرجل الشهم السمح، العالم المعلم، الذي يبسط عليك لطفه قبل أن يغمرك علمُه؛ فتكاد تنسى أنك أمام قامةٍ من العلماء الأفذاذ، الذين قلَّ لهم نظير، ونَدُرَ لهم مثال... ولقد غادر كما عاش في سكونٍ، وأبقى لنا ذكرا حسنا...

وكثيرون غير هؤلاء، ممن أعرف أو لا أعرف، وممن سمعت عنه بالاسم، أو بالأثر... جميعهم، يرحمهم الله برحمته الواسعة؛

والحال أنَّ أعظم معنى قرأته، وأروع صورة ذهنية سمعتها عن موت العالم، هو الحديث الذي روي موقوفا عن بعض الصحابة، ورفعه البعض إلى رسول الله ﷺ، وهو حديث: «موت العالم ثلمة في الإسلام، لا يسدها اختلاف الليل والنهار».

والثلمة هي الشرخ، والشق، والفجوة في الشيء، وهو الفراغ...

وأي فراغ أعمق من موت عالم في أمَّة، كانت تأوي إليه حين يَدْلَهِمُّ عليها الأمر، وتسأله في شؤون دينها، وتستنصحه لأمور دنياها، تجد عنده التيسير والمخرج، والجواب ومبعث الأمل؛ فتولد بين يديه مرات ومرات، وهو لا يحملها على ورعه، ولكن يحملها على يُسر الدين اللطيف، وعلى مقاصد الشرع الحنيف...

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ ورد عن مجاهد أنَّ معناه: «موت العلماء» أي أنَّ نقصان الأرض من أطرافها بمعنى موت العلماء...

وحين يموت العالم الكلُّ مُعَزٍّ والكلُّ مُعزًّى، فهو مِلك الجميع، لم يورِّث مالا ولا ضياعا، ولكنه ورَّث رأيا، وحكما، وحكمة، وفتوى، وكتابا، ومقالا، وتلميذا، ومنهجا، وكلمة... أي ورَّث ما لا يفنى، فكل ذلك شاهد له عند الله تعالى إلى يوم الدين...

فاللهم اخلفنا في ديننا، وصبرنا في مصابنا، وكن لنا ومعنا، وفرج عنا الفرج القريب... آمين، آمين... يا رب العالمين.

غادرنا عمنا صالح حفَّار، ولكنَّ البرَّ لا يَبلى![1]

(وهو الماء في روعته، والحِلم في فَروته)

كالماء أينما وقع نفع...

لو أنني عزمتُ على الكتابة عن عالمٍ نحريرٍ، أو زعيمٍ مشارٍ إليه بالبنان، أو شخصيةٍ مرموقةٍ؛ لكان ذلك سهلًا يسيرًا؛ إذ يكفي أن أذكر بعضَ مناقِبه، ومُنجزاته، ثم شهادات الناسِ عنه؛ فأكون قد كفيتُ ووفيتُ...

غير أنَّ الكتابة عن رجلٍ من طينة عمّنا «صالح بن محمد بن بكير حفار» هو أمرٌ أشبه بالمستحيلِ؛ إذ الكلمات تعجِز عن نسج البيان، والعباراتُ تقصُر عن رصّ البُنيان؛ ولذا رأيت من «حسن التخلُّص» أن أصوغ له «صورةً إدراكية»، هي أقرب إلى وصف روحِه وباطنه، منها إلى وصف شكله وظاهره.

ليس في السوائل سائلٌ أروعُ، ولا أبدعُ، ولا أقدر على منح الحياة من «الماء»، ولذا نبَّهنا ربُّ العزة إلى نعمة الماء في آيات كثيرة، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤمِنُونَ﴾، وقال جلَّ من قائل: ﴿إِنَّا صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبًّا﴾، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً﴾...

(1) باسة وافضل، بني يسجن، غرداية؛ صبيحة يوم التروية، الثامن من ذي الحجة 1441هـ / 29 جويلية 2020م.

بل إنَّ الماء إذا «غار»، أو صار « أجاجا» فلا أحدَ من بني البشر يملك الحيلة لإطلاق نبعِه، وإدراك غزارته؛ ولا لجعله ماء زلالا، مُستساغا للشاربين...

ولقد أمِرنا دوما أن ننظر إلى «الماء الذي نشرب»؛ وأن ننظر إلى «المزن والسحاب»، التي تلقيه، وتسخو به، بقدرة قادرٍ؛ وأن نعترف مُوقنين أن لا شيء لنا من ذلك؛ بل الله سبحانه وحده هو المنزّل للماء من السماء، وهو المتمُّ لنفعه على الناس؛ لو يشكرون أو يعتبرون...

تقول العرب «لكلّ شيء من اسمه نصيب»؛ ولعلَّ اسم «حفَّار» فيه إشارة إلى الحفرِ في منابع الماء، وإلى الحفرِ في موارد المعنى؛ فالحفرُ عملٌ مسؤولٌ، ومهمَّةٌ شاقَّةٌ، لا يقدرها إلَّا الكُمَّل من الرجال؛ وكثير من الناس يلامِس القشرةَ، ويكتفي بالسطحِ؛ إذ شتان بين من حفر بئرا في قصرٍ من قصور ميزاب مثلًا، ثم ارتوى منه وروَّى الناس، ومن اكتفى بشراء قارورة ماءٍ معدنيٍّ، ثم شربها ونفع نفسه، فلم ينفع غيره...

ولا أعرف، ما السرُّ الذي تفجَّر من أعماقِ الأرض، فأنبت ذريةً اختارت لها «الماء» محورا للرزق، وللحياة، وللتجارة، وللنفع الخاصّ والعامّ؛ ولا ريب أن لا شيء في الدنيا يأتي عبثًا...

ثم إنَّ عمَّنا صالح رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، كان له من صفات الماء الكثير: فهو سهلٌ، يسيرٌ، سمحٌ، لطيفٌ...

ولقد قالوا في القديم: «كن كالماء: أينما وقع نفع»؛ ولم أرَ

في الرجال أكثر حرصًا على نفع الناس منه؛ فهو دومًا يلاحِظ وينصحُ، ويأمر وينهى، وينبه ويربّي... حتى في أبسط جزئيات الحياةِ؛ مِن مثل وضع المصلي «حذاءه» على الأرض عوضَ أرفف المصلَّى أو المسجدِ؛ فما تلبثُ أن تسمع منه إشارةً تسبقها ابتسامة: «شمَّر ترشستتش قدها غفش، والتجَّ طمورت أتَّغَد أرَّازن»...

وهو لا يملُّ من تكرار الملاحظة عشرات المرات؛ يستوي عنده الكبيرُ والصغيرُ، البالغ وغير البالغ، العالم الوقور والعامل الجسور...

ولقد ألَّف قطبُ الأيمة الشيخ امحمَّد بن يوسف اطفيش كتابا تحت عنوان: «لغز الماء»؛ ونال به وسامًا وشارةَ اعترافٍ من «الباب العالي»؛ وفي الكتاب المطبوعِ حجريًّا الكثيرُ من «الصيغ المجازية» التي يصعب على غير المتمرس في اللغة فكَّ رموزها؛ ولقد فعلها القطب، فكشف اللغز، وكان صاحب الحظوة...

فهل ثمة علاقة بين الماء وأخلاق الرجال؟

في اللغة المزابية دعاءٌ شافٍ وافٍ، يلزُّ في قرنٍ بين الماء والرجال؛ وهو: «ربّ واغنديجي دفَّر ومان، أماغ دفَّر إرجازن» (ربّ لا تخلِّفنا بعد أن يَغُورَ الماء، ولا بعدَ أن يفنى الرجال).

واليومَ نجد أنَّ غياب عمّنا صالح حفَّار أشبه ما يكون بنضُوب بئر للماءِ، كان المئات بل الآلاف من الناس يرتوون منها: نُصحا وتوجيهًا، ضبطا للحسابات، تصفية للتركات، إصلاحًا بين الناس، نفعا للفقراء والمعوزين منهم، قياما على المشاريع، دعوة للمَّ

الصف، وحِلمًا في عِشرة الناس...

إبراهيم بن أبي بكر حفار: محيي العلم، وهمزة الوصل:

لم يشأ الله تعالى أن ألتقي بالشيخ إبراهيم بن بكير حفار، رائد النهضة العلمية بلا منازع، وكان مشايخي وأساتذتي الذين تتلمذوا عليه من مثل الشيخ كنطابلي عبد الله، والشيخ طلاي إبراهيم، والشيخ صدقي محمد... كانوا كثيري الحديث عنه، ودائمي العرض لمناقبه... فأنا بذلك تلميذُ تلاميذه... ولقد نلت شرف الاغتراف من معينه... غير أنَّ عمَّنا الحاج صالح بن محمد حفار، فيما أحسبُ، كان صورة ناصعةً من عمّه الشيخ إبراهيم؛ وهو وإن لم يشتغل بالعلمِ، إلَّا أنه اشتغل بنفع الخلقِ، وبالذود عن الحقِّ...

الشيخ إبراهيم بن بكير حفار (1890-1954م)، هو عمُّ الحاج صالح بن محمد بن بكير حفار (1931م-2020م)؛ أي أنَّ إبراهيم هو أخٌ لمحمدٍ (ت.1942م)؛ كان من تلاميذ الحاج عمر بن يحي؛ وحين حفظ القرآن الكريم واستظهره وهو في سنّ الخامسة عشر، أرسله شيخه إلى معهد القطب اطفيش ببني يسجن رفقة الشيخ أبي اليقظان إبراهيم، فمكث فيه خمسة أعوامٍ كاملةٍ؛ وقد خصَّه القطبُ لنبوغه بدرسٍ في غير الوقت العام للطلبة.

ولقد سافر إلى تونس عام 1912م لمداواة عينه، فاغتنم الفرصة، وأخذ علم القراءات عن الشيخ محمد النورقي في جامع الزيتونة، وختم القرآن الكريم عنده على القراءات السبع.

وعاد إلى مسقط رأسه القرارة وقد كفَّ بصرُه، ثم أنشأ عام 1915م مدرسة للقرآن الكريم وعلوم الشريعة، ولقد نشطت لخمسة أعوامٍ ثم أغلِقت.

ولم يتوان ولم يفشل، بل انتقل إلى غرداية، وأدار بها المدرسة القرآنية التي أنشئت عام 1920م؛ وأغلقها الاستعمار الفرنسي، ثم عاد إلى القرارة.

وفي عام 1925م، بإصرارٍ وعزم شديدٍ، قصد بني يسجن، مدينة شيخه القطب، فأدار مدرسة قرآنية أنشأها عبد الله بوكامل؛ وفي عام 1943م ساهم في إنشاء المعهد الجابري، وكان أبرز الشيوخ به إلى أن توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عام 1954م.

من مؤلفات الشيخ «إبراهيم أنبوكر» كما يسمَّى في بني يسجن؛ ترجمةٌ لقطب الأيمة الشيخ اطفيش، هي من أبرز مصادر الدارسين للقطب وتراثه، اختار لها عنوانا مسجوعا سلِسا، وهو: «السلاسل الذهبية، في الشمائل الطفيشية».

وله من المخطوطات: «رسالةٌ شروط المفسر»، وحاشية على «الدرر اللوامع» في التجويد، و«شرح المخمَّسة وتحريض الطلبة» لأبي نصر الملوشائي، «وحاشية على كتاب الديانات»، و«حاشية على كتاب الموجز لأبي عمار»، و«حاشية على التكميل لما أخلَّ به كتاب النيل» للثميني، ومنظومات في الفقه والأحكام.

وفيما نحسب لم يُنشر له من التراث سوى «السلاسل الذهبية»، ولذا وجب أن ينبري بعض طلبة العلم والباحثين، فيهتموا بآثاره،

ويطبعوا ما يمكن طبعُه، ليعمَّ بين الناس نفعُه؛ وأن يجروا عليه دراسات وبحوثًا؛ فهو من العلماء الفطاحِل، ومن الأعلام المراجع؛ ما في ذلك شكٌّ!.

عمُّنا صالح حفار: يدعُّ الناس إلى الخير دعًّا

يقول بعض العلماء: «التاريخ يعيد نفسه»، ولكنَّ الصواب عند المحققين منهم، أنَّ «التاريخ يشبه نفسه، ولا يعيد نفسه»؛ يشاء الله تعالى أن يكون عمُّنا صالح حفار، بعد عقودٍ من وفاة عمّه إبراهيم، بذرةَ خيرٍ، وهمزة وصلٍ؛ وذلك حين وقفَ على رأس «المدرسة العلمية، ومشاريع مكتب الدراسات»: محرضا، منفقا، موجّها، ناذرا لذريته، واقفا لأملاكه وأملاكهم، سائلا عن الحركة، وناقدا لما يبدو له على غير الصوابِ، وداعيًّا لله تعالى بالتوفيق والسداد، والقبول والرضا...

فحين تأسَّست «المدرسة العلمية الجديدة»، عام 2003م، كان عمُّنا صالح حفار أباها، وراعيها، وبركتَها، ونفَسَها؛ ولا أزال أذكر أنه حتى حين عجزَ عن السير، وكان ملازما لبيته، كان دوما يسأل: هل من حاجة؟ ماذا فعلتم في حق المعلمين؟ وهل وفيتم ما عليكم من واجب؟ وماذا تنوون القيام به مستقبلا؟ وماذا عن التلاميذ الصغار؟ وتعليم القرآن والأخلاق للناشئة؟

وابلٌ من الأسئلة، والاهتمامات، والتوجيهات... يلقاني به، كلَّما زرته؛ حتى إني حين أخرج من عنده أجد رُوحا جديدة، وأحس اندفاعة قوية حديدةً، وأبدِئ وأعيد فيما قال، وفيما رأى، وفيما نصح به؛ وآخُذُ ذلك على محمل الجدّ؛ ثم يأتي أبناؤه البررةُ،

فيُنزلون ما يراه إلى أرض الواقعِ، ولا يألُون جُهدا في السخاء، مع الحرص على السرية، وعلى أن لا يُذكروا، ولا يُحمدوا...

وهم أبدا يقولون: الدعاء، الدعاء، الدعاء...

غادرنا عمُّنا صالح حفار، لكن البرَّ لا يَبلى:

ليس الرجل لحمًا وعظمًا، ولا هو عقلٌ وقلبٌ من خلايا حيَّة، ولا اسمًا وصفةً، وشاراتٍ واعتباراتٍ؛ إنَّما الرجل بروحِه، وبأنفاسِه، وبحلمه، وبرأيه، وبقوله، وبفعله، وبعلاقته بالناس؛ وفوق ذلك وقبل ذلك بصلته بربّ الناس...

ولذا كان الموت الجسديُّ قدرا محتوما: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾؛ أمَّا الموت المعنويُّ فهو لا يطال الكِرام من الرجال؛ فكلُّ أثرٍ من آثارهم هو حياة أخرى، وهو عمر ثانٍ، وهو في نفعه وأجره ممتد إلى يوم القيامة، لا ينثني حتى تجفَّ الأقلام، وتحلَّ على البشرية علامات الساعة، فتزول الأوهام.

عمُّنا صالح حفار لا يزال حيًّا، ولن يزال: فأبناؤه من صُلبه، وأبناؤه في المعنى؛ جميعُهم يزوّده بأجرٍ عند الله ممتدٍّ: علمٍ نافعٍ، وصدقةٍ جاريةٍ، ودعاءٍ مخلصٍ.

أذكر أنَّ عمَّنا صالح حين يدخل محلاً تجاريًّا أو سكنيًّا، ولا يجد الساعة معلَّقة في حائط؛ يقول: «لماذا محلُّك مظلمٌ؟» وحين تسأله عن المعنى يقول: «إذا لم تكن عندك ساعة، ولم تكن حريصا على الوقت، فأنت في ظلمة شديدة».

ومن ثم كان بحرصه على الوقت، وعمله على أن لا تضيع ساعةٌ في غير نفعٍ... مِن ثم كان مثالا لي في اهتمامي بالزمن وبالوقت، وبالبرمجة الزمنية؛ وإني والله لأقيس ما كان عليه من بُكورٍ، ومن نشاطٍ، ومن سعيٍ حثيثٍ، بما عليه الكثيرون منَّا، ومن الشباب بخاصَّة، اليومَ في زماننا الصعب؛ فأجد الفرق شاسعًا، والبون واسعًا؛ وأسأل الله تعالى أن يهدينا لما هدى إليه الأوَّلين، وأن ينجينا من «مصيدات الوقت» التي تلتهم عمرنا كما تلتهم النارُ الحطبَ؛ بخاصَّة وسائل العصر، والمشاهدات ذوات العَصْر، والتفاصيل التي تدفع الناس إلى الخُسر...

رحمك الله عمنا الحاج صالح حفار، مِن رجل أتعبتَ من معك، وأتعبت من بَعدك؛ وقوَّى الله عقِبك ليكونوا صورةً منك، وليسيروا على سيرتك وخلالك، ويُحيوا آثارك ومناقبك... والحال أنَّ العصر قد تعقَّدت خيوطه، وتكشَّرت أنيابه، وحار الناس في أمرهم، واختلط عليهم الحابل بالنابل، الصدق بالكذب، الحق بالباطل؛ إلا أن يتغمَّدهم الله برحمته، ويفتح عليهم من عوارف المعارف؛ بفضله وكرمه؛ فهو القائل وقوله الحق: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُومِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إلى أن يقول: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

عمَّنا الفاضل الكريم ندعو الله لاهجين متضرّعين أن يسكنك في الفردوس الأعلى، إلى جوار سيِّد المرسلين محمد ﷺ مع ﴿النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَآءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾.

ولله الحمد أولا وآخرا... وهو القائل في حق عباده الصالحين:

﴿يَآ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾.

واللهِ لولا الله[1]

(مواساة إلى كل من توفي له قريب في زمن الوباء)

قبل أشهرٍ من الزمن الصعب، لم يكن أحدٌ منَّا يسمع عن كلمة اسمها «الكوفيد»... كان الناس شتى في هموم الحياة، يتقلَّبون بين شدَّة ورخاءٍ، بين فقد ووجدٍ؛ ثم فجأةً، من غير سابق إنذارٍ؛ يسمع الواحد منَّا كلمة جديدة، اسما جديدا، لا يُدرك معناه ولا يبصر مداه...

ومع توالي الأيام يتقلَّب بين القبول والرفض، بين اليقين والشك...

كان عدد الوفيات قليلا، وكنا نمني النفس أنَّ الوباء زارنا زيارة خفيفة، وأنَّنا قد خرجنا من عنق الزجاجة بسلام؛ بينما الكثير من البلاد عبر العالم تتجرَّع الغُصص، وتحصي موتاها بالمئات، بل بالآلاف يوميًّا... مما زرع فينا طُمأنينة ظرفية، بلغت حدَّ الاسترخاء أحيانا، وحدَّ التسيُّب أحيانا أخرى...

كنا جميعا حيال الاسم الجديد «كُرونا» في حيرة حائرة، وفي أمر مريج؛ قد يعلو فينا سوق الأمل وقد ينزل: ننتظر... نترقب... نتحاور... نقول... ثم نصمت...

(1) باسة وافضل، بني يسجن؛ 18 ذو القعدة 1441هـ / التاسع من جويلية 2020م.

إلى أن بدأ الموت يحصد أرواحنا الطاهرة، الواحدة تلو الأخرى؛ وبدأنا نشاهد ـ ولا نشهد ـ يوميا جنائز هنا وهنالك، وتأتينا وسائل التواصل بالأخبار سريعة مُريعة:

هذا قد أصيب، وذاك قد نُقل إلى المستشفى، والآخر دخل في حجرٍ صحيٍّ، والرابع يعاني من ضيق التنفُّس... ثم يأتيك نبأ الوفاة بين غفوة ويقظة، فلا تملك إلَّا أن تستغفر الله، ثم تلهج بأعلى صوتك: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾...

تمرُّ على خيالك صورةُ الحبيب المفقود، يوم رأيتَه لأوَّل مرَّة، ويوم التقيت به في مجلس أنسٍ، ويوم سمعت عنه حكايات طريفةً، ويوم سافر أو أقام، وُلِد له ابنٌ أو حفيدٌ، زوَّج فريدَه وفريدته، ألقى إلى دنيا الناس بفلذات أكباده وزوَّدهم بالنصح أن «يخافوا الله ويتقوه»...

أنام على صورهم وهي تتمايل بين عينيَّ، ثم أستيقظ مرَّات في جوف الليل، وأنا أردّد أسماءهم، ثم سحَرا أقوم ولساني يلهج بالدعاء: اللهمَّ ارحمه، اللهمَّ افسح له في جنَّاتك، اللهمَّ اكتبه في زمرة الشهداء... اللهمَّ... اللهمَّ...

أمَّا مَن لا أعرفه بالصورة، ولم أعاشره على التحقيق، فإني مِن خلال عقِبه وذريته وأثره أبني له صورةً في مخيلتي، ثم أشكلها في ذهني، ثم أسترسل معها بعيدا؛ حتى لكأني عشيره لسنوات...

ولا ينتهي الشوط، ولا يختفي النبأ... حتى يخلُفه شوطٌ جديد، ونبأ آخر على النفس شديدٌ... وأعيد الكرَّة تلو الكرَّة... أردّد

ذات الفعل، وأُسمِعُ نفسي، والملائكة الكتبة من حولي، عينَ القول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾...

ولا يهنأ لي بال، ولا يسكن لي قلب، حتى أحمل نفسي على القول الصريح، والمعنى المليح: لولا الله... لولا الله... لولا الله:

والله لولا الله، لما رضينا بهذا الزلزال الشديد، ولسخطنا، ثم لكنَّا إذن مع السامري، نتخذ العجل إلها، ونُعرض عن إله موسى، ومحمد، وإله الخلق أجمعين...

لولا الله، لكان لوفاة أعزتنا معنًى - أو لا معنًى - آخرَ، ليس فيه رجاءٌ في رحمةٍ، ولا صبرٌ على فتنةٍ، ولا دعاءٌ، ولا صلاةٌ، ولا تلاوة لكتاب الله، ولا احتساب لوجه الله...

لولا الله، لقلنا إنه الهلاك قد عمَّ، وإنَّه السخط قد نزل بنا... ولعقدنا جميع حساباتنا لهذه الدنيا، ولم نبق للآخرة قطميرا ولا شَرْوَ نقيرٍ...

لولا الله، لتعلَّقنا بأمريكا والصين، وبنيويورك وبيجين؛ وبأدوية المركز الفلاني، ولقاح الجامعة العلانية...

لولا الله، لهربنا بعيدا، ولتركنا خلفنا كلَّ شيءٍ، ولحبسنا أنفسُنا وأهلينا في دهاليز غائرة، إلى يوم يبعثون...

لولا الله، لكنا في حاجة إلى «علماء نفسٍ» يخفّفون عنَّا لوعةَ الحزن، ويصبّروننا بالأدوية والمهدئات... ولا ندري بعد ذلك أنموت بالوباء أم بالكآبة والقلق...

مع الله كلُّ شيءٍ - مهما كان شديدا - يهون،

دون الله كلُّ أمرٍ ـ حتى ولو خفَّ ـ لا يهون،

أحيانا أسأل نفسي: ترى لماذا نحن مسلمون؟[1]

لمثل هذه الأوقات العصيبةِ، لمثل هذه المواقف العصيَّة؛ لنعلمَ أنَّ كلَّ ما جاءنا من الله سبحانه هو رحمةٌ بنا، سواءً أكان سرَّاء أم ضرَّاء، خيرًا أم شرًا... فلا خيرَ في سرَّاء يعقبها سخطُ الله، ولا شرَّ في ضرَّاء تنتهي بنا في كنف الله سبحانه...

ها قد انشرح الصدرُ، وبسَط طائرُ الصبر أجنحته على القلب، وألقى مزن الاحتساب ماءه الزلال على سفوح الفؤاد؛ وها قد رأينا موتانا رؤيةً مختلفة: رأيناهم وقد زفَّتهم الملائكة إلى السماءِ، في موكبٍ مَهيبٍ، غاب عنه البشرُ، وحضرته الملائكة...

ها قد بدأنا نودع كلَّ يوم شهيدًا، ونشهد مع كلّ وفاةٍ عُرسًا، ما دام من غادرنا قد كان من عباد الله الصالحين، من المتقين، من المؤمنين، من المصلين، من المزكّين، من الموفّين...

وبالله فقط يكون موتُ أحدنا أحيانا خيرا من حياته، ولقد تكون حياته بالله خيرا من موته؛ لكن الأمر كله من الله، بالله،

(1) في هذا العمق الإيماني، كتب الأستاذ الدكتور مصطفى باجو، بأدبه الجمّ؛ تعليقا على مقال: «**وصايا مَلَكية**» ما نصُّه: «سلِمَت يمينك عزيزنا محمد. وسلَّمك الحافظ الشافي من كلّ داء. حقًّا ما قلتم. كلمات من ذهبٍ؛ فيها عين الصواب وفصل الخطاب. فمن محنة الابتلاء وُلدت هذه الحِكَم العطائية. ومن ليل هذا الوباء أشرقت شمسها العرفانية. فانداح نورها يمحو الظلام. وسرى نسيمها ينعش الأنام ويبعث الأمل في نفوس اليائسين، ويبشر بفرج آت بكل يقين. فلِمَ الوساوس وسوء الظنون؟ ومالك الأمر رحمان رحيم بعباده. فهل نحن مسلمون وبوعده مؤمنون؟».

لله، في الله، عن الله، إلى الله...

سبحان الله... وهو القائل: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ الأَرْضِ أَ.لَهٌ مَّعَ اللهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

ولقد شدَّني هذا الحديث الذي يجمع بين أبسط جزئيات الحياة، وأعظم معاني الحياة، في سلاسة وانسياب بديع، وبأسلوب معجز رفيع؛ فقد نقلت كتب السنة أنَّ رجلا قال:

قلت: «يا رسول الله، إلامَ تدعو؟»

قال: «أدعو إلى الله وحده، الذي إن مسَّك ضرٌّ فدعوتَه كشفَ عنك، والذي إن أضللت بأرض قفرٍ فدعوته ردَّ عليك، والذي إن أصابتك سَنة فدعوته أنبت لك».

قال: قلت: «أوصني؟»

قال: «لا تسبنَّ أحدا، ولا تزهدنَّ في المعروف، ولو أن تلقى أخاك وأنت منبسط إليه وجهك، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي، واتزر إلى نصف الساق...».

سبحان الله... والحمد لله... صدقت يا حبيبي، يا قرة عيني، يا رسول الله...